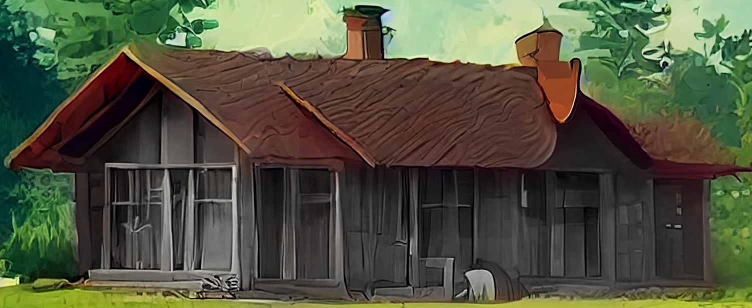
أنطون تشيخوف



القصص القصيرة

جمع وترجمة أبو بكر يوسف

القصص القصيرة

تأليف
أنطون تشيخوف

جمع وترجمة
أبو بكر يوسف



القصص القصيرة

أنطون تشيخوف

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٢٣ ٢

صدر هذا الكتاب عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

مقدمة

عندما تُولَد الموهبة

حين طُلِب من تشيخوف كتابة سيرة ذاتية لنشرها في دليل عن خريجي كلية الطب بجامعة موسكو خلال الفترة من ١٨٨٤م إلى ١٨٩٤م ردَّ الكاتب بأنه «مُصاب بداء الخوف من السِّير الذاتية.» وأضاف: «إنه لَعذاب حقيقي أن أقرأ أي تفاصيل عني … فضلًا عن كتابتها بنفسي للنشر.» وأَرفق بهذه الرسالة سيرة ذاتية قصيرة للغاية عَرض فيها رأيه حول العلاقة بين الأديب والعلم، أكثر مما كَتب عن تفاصيل حياته الشخصية أو إبداعه.

وقد راودني نفس الإحساس المعذِّب عند كتابة هذه المقدِّمة عن تشيخوف. فكيف تَكتب عن مبدع كبير معروف على نطاق العالم كله منذ بزوغه في سماء الأدب الروسي في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حتى هذه الأيام؟ وكيف تُقدِّمه للقُراء العرب ومنهم من يعرف عن أدبه وحياته الكثير من التفاصيل؟ وما العمل من أَجْل ألَّا تخرج هذه المقدِّمة في صورة تقريرية تتناول حياته وأدبه بنبرة البحث العلمي الجافة، أو أن تجنح إلى الاعترافات العاطفية بالحب لهذا الفنان المدهِش وأدبه الأكثر إدهاشًا؟ وأخيرًا قرَّرتُ أنه ليس هناك ما هو أفضل من الدرب المعهود والطريق المطروق، وهو الحديث عن تشيخوف الفنان وتشيخوف الإنسان، الأمر الذي يتيح لنا أن نجمع بين الموضوعية والذاتية في سبيكة واحدة، إذا حالفنا التوفيق بطبيعة الحال.

خرج أنطون تشيخوف إلى الدنيا في ٢٩ يناير ١٨٦٠م، ورحل عنها في يوليو ١٩٠٤م، وخلال هذا العمر القصير «٤٤ سنة» والعمر الأدبي القصير «٢٤ سنة» ترك لنا إرثًا

أدبيًّا خالدًا من القصص القصيرة والروايات والمسرحيات التي أحدثَت انقلابًا حقيقيًّا في القصة القصيرة والأدب المسرحي. وليس غريبًا، لهذا السبب، أن يظل تشيخوف معاصرًا حتى اليوم، وأن يحاول المخرِجون في شتَّى دول العالم إعادة قراءة مسرحياته الشهيرة وحل ألغازها عامًا بعد عام على خشبات المسارح، التقليدية والتجريبية، الكلاسيكية منها والطليعية.

كان أنطون (اسم التدليل: أنطوشا) الابن الثالث في عائلة التاجر الصغير بافل تشيخوف، الذي كان يملك حانوت بقالة في مدينة تجانروج على شاطئ بحر آزوف في جنوب روسيا. وقد سبقه إلى الدنيا أخوه ألكسندر «الذي أصبح فيما بعد أديبًا»، ونيكولاي «الذي أصبح مصورًا» وتلاه إيفان «مدرس»، وميخائيل «أديب»، وأخته ماريا التي عملَت مدرِّسة وكانت موهوبة في التصوير، وأصبحَت اليد اليمنى للكاتب في حياته وحافظَت على تراثه بعد مماته.

لم يَعش أنطوشا طفولة سعيدة في هذه الأسرة الموهوبة؛ فقد كان الأب يجبره مع إخوته على العمل في الحانوت، فكان يقف بالساعات على قدميه في الحانوت البارد مُغالِبًا الرغبة في اللهو والنوم. وفي أيام الآحاد والأعياد الدينية — وما أكثرها — كان الأب يجبره على الغناء في كورال الكنيسة، مصاحِبًا طقوس الصلوات المُضنِية الطويلة؛ ولهذا قال تشيخوف فيما بعد: «في طفولتي لم تكن لديَّ طفولة.» وانتهت هذه الطفولة الشَّقيَّة نهاية تعيسة؛ فقد أفلس الأب، وهرب سرًّا من الدائنِين إلى موسكو، ثم لحِقت به عائلته ما عدَا أنطون، الذي بقيَ ليكمل تعليمه الثانوي، وظل وحيدًا طول ثلاث سنوات يكسب رزقه بإعطاء الدروس الخاصَّة، ويقتصد من هذا الكسب الضئيل بعض المال ليرسله إلى موسكو مساعدة لوالديه وإخوته.

في عام ١٨٧٩م أنهى أنطون تشيخوف المدرسة ورحَل إلى موسكو؛ حيث التحق بكلية الطب بجامعة موسكو، وتخرَّج فيها عام ١٨٨٤م ومارَس مهنة الطب فترة قصيرة.

وقد تفتَّحت موهبة الأديب وهو بَعدُ في الصف الأول بكلية الطب، فشرع في كتابة الفكاهيات والقصص القصيرة الساخرة والمشاهد المضحِكة ونشرها في الصحف والمجلات الأسبوعية الفكاهية في موسكو وبطرسبرج، وكان يُوقِّعها بأسماء مستعارَة (أشهرها: أنطوشا تشيخونتي).

ويمكن تأريخ البداية الإبداعية لتشيخوف بعام ١٨٨٠م الذي نَشر فيه قصته القصيرة «رسالة إلى جاري العالم»، ثم ظهرت أول مجموعة قصص قصيرة «حكايات ملبومينا»

(عام ١٨٨٤م) ثم توالت المجموعات: «قصص منوعة» (١٨٨٦م)، «في الغسق» (١٨٨٧م)، «أحاديث بريئة» (١٨٨٧م)، «قصص قصيرة» (١٨٨٨م)، «أناس عابسون» (١٨٩٠م).

يشير النُّقاد والمؤرِّخون إلى أن فترة الثمانينيات (حتى بداية التسعينيات) من القرن التاسع عشر كانت من أشد الفترات ظلامًا ورجعيَّة في تاريخ روسيا الحديث؛ فقد فشل مشروع الإصلاح الذي تبنَّاه القيصر ألكسندر الثاني، عندما أصدر مرسوم تحرير عبيد الأرض (الفلاحين) عام ١٨٦١م، وأفلَست حركة «الشعبِيِّين» الثورية ودخلَت طريقًا مسدودًا فتَبنَّى جناحها المتشدِّد أسلوب الاغتيال الفردي. وبالفعل أُغْتِيل القيصر ألكسندر الثاني عام ١٨٨١م، وبالطبع لم يؤدِّ ذلك إلى تحسين الأوضاع، بل زادها سوءًا، وتراجعت السُّلطة حتى عن الحد الأدنى من الحرِّيَّات الذي كان موجودًا، وتوالت الإجراءات القمعية ضد الحكم المحلي (الزيمستفو) في الأرياف والأقاليم، فوُضِع تحت إشراف المحافظِين المباشر وأُلغيَ مبدأ الانتخاب فيه، وفُرِضت رقابة صارمة على الصحف والمجلات بصدور قانون النشر الجديد عام ١٨٨٢م الذي أباح إغلاق المجلات بسبب اتجاهها العام وليس فقط بسبب مقال محدَّد، وألزمها بإبلاغ السلطات بالأسماء الحقيقية للكُتَّاب الذين ينشرون بأسماء مستعارَة. وألغيَ الاستقلال النسبي الذي تَمتَّعت به الجامعات، ووُضِعت القيود على دخول المدارس الحكومية لأبناء الفقراء والفئات الدنيا. وفي عام ١٨٨٤م أُغْلِقت مجلة «مذكرات وطنية» التي كان يرأس تحريرها الكاتب الروسي الساخر الكبير سالطيكوف-شيدرين، والتي كانت مِنبَر الكُتَّاب الديمقراطِيِّين الروس.

في هذه الفترة العصيبة الخانقة بدأ «أنطوشا تشيخونتي» في نشر قصصه واسكِتشاته المَرِحة وفكاهياته «البريئة» اللاهية في المجلات الفكاهية المعروفة آنذاك: «الجرادة» و«المنبه» و«شظايا»، التي كانت لا تستهدف سوى إضحاك القُرَّاء وتسليتهم وتطلُب من كُتابها الالتزام بهذا الهدف ذاته. ولكن موهبة تشيخوف كانت أكبر من أن تبقى أسيرة هذه القيود. وشيئًا فشيئًا تبرز في قصصه القصيرة الفكاهية جوانب السخرية اللاذعة من عبَدة المناصب والألقاب والمنافِقين «البدين والنحيل»، «الحرباء»، وذوي الطباع الفظَّة الذين يستعذبون إهانة الضعفاء «القناع»، «الكبش والآنسة»، وضعاف النفوس الذين يستسلمون لمصائرهم دون محاولة احتجاج «المغفَّلة»، «أنيوتا». وتمتد سخرية تشيخوف إلى المسحوقِين أنفسهم، فهو يسخر من «العبيد الصِّغار» الذين يجدون قمة اللذة والسعادة في إهانة السادة وإذلالهم لهم وقسوتهم عليهم «حُلة النقيب»، والذين يموتون خوفًا من غضب الرؤساء «وفاة موظف»، وأصحاب النفوس الصغيرة التافهة الذين يفرحون لنشر أسمائهم

في الصحف حتى لو كان ذلك بسبب دهس عربات الخيل لهم «فرحة»، والشخصيات المشوَّهة، وليدة المجتمع الظالم الذي يفرِّخ «الجواسيس المتطوِّعِين» الذين يريدون «منع كل شيء» و«الإبلاغ عن كل الناس» «الصول بريشيبييف» والشرطي المتقاعِد «حالات جنون العظمة» الذي يحبس القطط والكلاب والدجاج في صناديق لفترات محدَّدة، ويسجن البقَّ والصراصير والعناكب في زجاجات، ويحاول إقناع أهل بلدته بدخول الحجز مقابِل نقود!

وفي هذه المرحلة تَتجلَّى النبرة الوجدانية الحزينة في قصص تشيخوف القصيرة عن أحزان «الغلابة» التي لا يريد أن يسمعها أحد «وحشة» ومآسي الصنَّاع المَهرة الذين تقضي الفودكا على كل ما هو طيب فيهم وتمضي حياتهم كأنها في غيبوبة «المصيبة». ويرسم تشيخوف لوحة إنسانية عريضة لشتَّى النماذج البشرية من مختلف درجات السُّلَّم الاجتماعي، ويبلغ بها مستوًى عاليًا من التعبيرية والرمزية كما في قصص «الرجل المعلَّب».[١]

كان تصوير تشيخوف للتشوُّهات النفسية والأخلاقيات المتَرَدِّية في تلك الفترة (ثمانينيات القرن) يُفضي بالقارئ مباشرة إلى استنتاج واحد؛ أن كل هذه الفظاظة، وهذا النفاق والابتذال والضعة والطغيان … إنما هي ثمرة الأوضاع الاجتماعية المختلَّة التي يُكرِّسها النظام القائم ويُسبغ عليها ثياب الشرعية والدَّيمُومة. ولا عجب إذًا أن تنتبه الرقابة «اليقظة» إلى هذه المعاني فتمنع صدور أولى مجموعات الأديب القصصية، وتُواصل تدخُّلها في كل ما يكتب.

ويجذب الأديب اهتمام القراء وزملائه بتحفته الأولى «السهوب» في جنس الرواية القصيرة «النوفيلا» والتي ظهرت عام ١٨٨٨م مُؤْذِنة بشق طريق إبداعي جديد لموهبة كبيرة؛ حيث لا تلعب الأحداث أو الحبكة الروائية الدور الرئيسي، بل يلعبه المزاج العام للقصة، ولوحات السهوب الشاسعة بآفاقها اللامحدودة وسحرها الخاص، وكأنَّما يرمز الكاتب إلى وطنه روسيا وقوته وجماله، وتطلُّعه إلى مستقبَل أسعد. ويمتزج التفاؤل والفرحة بالحزن العميق الأغوار، وتَرنُّ النبرة الوجدانية كموسيقى حزينة خافِتة مُصاحِبة للسياق العام للرحلة عَبْر هذه السهوب المترامية. فلا ترى هل أنت أمام منظر طبيعي رسَمَه مصوِّر بارع، أم سيمفونية صاغها موسيقار مبدِع؟!

ولعل موهبة تشيخوف في مرحلة إبداعه الأولى (١٨٨٠–١٨٩٣م) لم تَتجلَّ بهذه القوة والعمق كما تجلَّت في روايته التالية «للسهوب» «حكاية مُملَّة» التي صدرت عام ١٨٨٩م

[١] القِصص المشار إليها في هذه المقدمة مترجَمة في هذه المجموعة باستثناءات قليلة. (المُعَرِّب)

والتي طرح فيها بقوة فكرة اللامبالاة وخَطَرها على الروح الإنسانية، واضعًا في بؤرة الرواية أستاذًا شهيرًا في الطِّب بجامعة موسكو، يراجع حياته بعد إصابته بالسرطان وتقاعُده. لقد أثارت الرواية إعجاب الكثيرين. وكَتب الأديب الألماني الحائز جائزة نوبل توماس مان عنها:

«إنها شيء غير عادي تمامًا، شيء ساحر لن تجد له مثيلًا في الأدب كله. فقوة تأثيرها وميزتها في نبرتها الخافتة الحزينة. إنها حكاية تثير الدهشة على الأقل لتسميتها «بالمملة» في حين أنها تَهزُّك هزًّا. وعلاوة على ذلك فقد كَتبها شابٌّ لم يبلغ الثلاثين من عمره، ورُوِيَت بأقصى نفاذ على لسان عالم عجوز، ذي شهرة عالمية.»

في عام ١٨٩٠م يقرِّر أنطون تشيخوف القيام برحلة شاقَّة محفوفة بالخطر من موسكو في الغرب إلى جزيرة ساخلين في أقصى شرق روسيا عَبْر سيبريا كلها، قاطعًا عشرة آلاف كيلو متر بالقطار والسفينة والقوارب وخيول البريد والعربات الصغيرة، متعرِّضًا لمخاطر الغرق والبرد والضياع لكي يصل إلى جزيرة سخالين (أرض المعاناة التي لا تطاق) — كما قال عنها — ويستقصي أحوال السُّجناء والمنفِيِّين هناك ليقدم بعد ذلك دراسة سوسيولوجية أدبية مذهلة بعنوان «جزيرة سخالين» (١٨٩٣–١٨٩٤م). وخلال هذه الرحلة أُصيب تشيخوف بمرض الدَّرَن الرئوي الذي كان السبب في رحيلة المبكِّر عن العالم.

ويمكن القول إن هذه الرحلة الطويلة (٩ أشهر) والبؤس والفظاعة التي رآها تشيخوف ولَمَسَها بنفسه في سجون ومَنافي تلك الجزيرة التعيسة، وأثمرت روايته القصيرة «عنبر رقم ٦» (١٨٩٢م) قد هزَّت كيان الكاتب وغيَّرت مجرى حياته. فعندما عاد إلى موسكو قرر الانتقال إلى الريف، واشترى عام ١٨٩٢م ضيعة «ميليخوفو» على بُعد ٧٠ كيلومترًا من موسكو، وشرع في غرس البستان وترتيب البيت وبناء المَرافق، وأمضى هناك سبع سنوات قام خلالها بعلاج الفلاحِين ومكافحة الكوليرا وبناء المدارس على حسابه الخاص، وجمع التبرعات لمنكوبي المجاعة من الأطفال، وبالطبع زاول الكتابة. وفي هذه الفترة وما بعدها حتى وفاته (١٩٠٤م) أبدع تشيخوف أعمالًا رائعة مثل: «رواية رجل مجهول»، و«الراهب الأسود»، و«الطالب»، ورواياته القصيرة الجميلة: «حياتي»، و«ثلاث سنوات»، و«المنزل ذو العلية»، ورواية «الفلاحون»، وقصة «السيدة صاحبة الكلب»، و«حبوبة» وآخر قصصه «العروس».

وفي عام ١٨٩٨م اضْطُر تشيخوف إلى ترْك بيته وضَيعته في «ميليخوفو» لاشتداد وطأة المرض عليه، وانتقل إلى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود لجوِّها الدافئ المشمِس،

واشترى قطعة أرض قرب مدينة «يالطا» وشيَّد فيها منزلًا صغيرًا أبيض على مقربة من البحر، وغرس بستانًا جديدًا وضع في غرساته كل رِقَّته وحنانه وحنينه إلى موسكو الحبيبة. وككل شيء تلمسه أنامل تشيخوف تحوَّلت تلك البقعة الجرداء المقفِرة إلى واحة صغيرة يانعة جذَبت إليها الوافدين الكبار إلى القرم، وفي مقدِّمتهم عميد الأدب الروسي آنذاك ليف تولستوي، ونجمه البازغ مكسيم جوركي، والكُتَّاب الجدد: كوبرين، وكورلنكو، وبونين وغيرهم من الفنانِين والأدباء البارزِين.

في هذه الفترة أيضًا قدَّم أنطون تشيخوف للمسرح أعماله المعروفة «النورس» و«الخال فانيا» و«الشقيقات الثلاث» و«بستان الكرز» وغيرها من المسرحيات الأقل شهرة والأعمال ذات الفصل الواحد والفودفيل.

ورغم ذلك كانت «يالطا» بالنسبة له سجنًا ومنفًى، كما قال. وكان يُتابع بالرسائل والبرق أخبار مسرحياته المعروضة في موسكو، ويُصارع المرض وحده في البيت المظلم في ليالي الشتاء برباطة جأش نادرة وأمل في المستقبل، ورغم أنه — كطبيب — كان يدرك دُنوَّ أجَلِه المحتوم.

وفي يونيو ١٩٠٤م تدهورت صحته بشدة؛ فسافر إلى ألمانيا للعلاج في مُنتجَع «بادن فيلر» حيث وافَته المنِيَّة في ١٥ يوليو ١٩٠٤م، وكانت آخِر كلمات لفظها قُبَيل وفاته: … Ich sterbe؛ (إنني أموت – بالألمانية).

جاء تشيخوف الفنان إلى الدنيا حاملًا رؤية جديدة ترتدي ثياب الفكاهة والسخرية، ومفهومًا جديدًا عن «المضحِك» لا باعتباره شيئًا كوميديًّا، بل باعتباره تراجيكوميديا، يجمع بين البسمة والسخرية والحزن، وهذا ما ميَّزه عن بقية الكُتَّاب الروس. أما المأساة عنده فليست في وقوع شيء فاجِع خارق، بل في عدم وقوع أي شيء وبقاء الأمور كما هي عليه! إنه يُقدِّم أبطاله دون تزويق أو سَتر لعيوبهم وضعفهم؛ لأنه يؤمن بأن «الإنسان سيصبح أفضل عندما تُظهرون له ما هو عليه» دون استدرار للشفقة أو اللجوء إلى «الكذب السامي». من هنا يتَّسم أسلوب تشيخوف بالموضوعية الصارمة، التي قد تبدو نوعًا من البرود تجاه مصائر الأبطال.

ويبتعد تشيخوف عن العبارات الطَّنَّانة والميلودراما، ويلتزم التحفُّظ الذي لا يفصح عن موقف الكاتب للوهلة الأولى؛ لأنه يعتبر ذلك أكثر إقناعًا للقارئ. فقد كان تشيخوف يحترم عقل القارئ ويثق في فطنته. ويهتم تشيخوف اهتمامًا بالغًا بالتفاصيل كمفتاح للإيجاز والتكثيف السردي، وهو الإنجاز الكبير الذي حقَّقه تشيخوف في مجال الأسلوب.

وهذه التفاصيل قد يرسم القليل منها صورة كاملة للشخصية، وقد تبلغ بالعمل الأدبي درجة التوتُّر النفسي والشحن العاطفي التي يريد الكاتب إيصالها إلى القارئ؛ ولذا يرقى بالتفصيل أحيانًا إلى مستوى الرمز (كالنورس المقتول في مسرحية «النورس»).

فليس غريبًا إذًا أن يقول تولستوي: «إن تشيخوف هو بوشكين في النثر … إنه فنان لا مثيل له.» ويضع تولستوي العظيم يده على مفاتيح لغز تشيخوف كمجَدِّد فيقول: «بفضل صِدقه صاغ تشيخوف أشكالًا كتابية جديدة كل الجدة، بالنسبة للعالم كله، على ما أعتقد، أشكالًا لم أجد لها مثيلًا في أي مكان.» وعن فكاهيَّة تشيخوف، وأسلوبه عامة، يقدِّم تولستوي هذا التحليل المدهِش: «كان تشيخوف يُجيد إلى درجة الكمال، تحويل الموضوع كوميديًّا، وتنويع الأشكال الفكاهية المؤثرة. لقد كان بارعًا في اختراع المواضيع وتقديم بدائل لا نهائية للموضوع الواحد، وكان ينوع في استخدام الأشكال البنيوية المضغوطة … لقد كان يعرف فن الصورة الموجَزة واستخدام التفاصيل بشكل معبِّر … وكان يلجأ على نطاق واسع إلى الحوار الحي الموحي مع التعبيرات الفكاهية للغة الكلام الدارج دون أن يهرب من الكاريكاتير المركَّز، مستخدمًا بكثرة المبالَغات والألقاب الساخرة.»

كان تشيخوف يتوخَّى البساطة والدخول مباشرة في الموضوع، ويَكرَه البناء المعقد للعمل الأدبي وكان شعاره «كلما كان الموضوع أبسط كان ذلك أفضل»، ولكن ذلك لم يكن على حساب عُمق التحليل والتعبيرية السيكولوجية وبروز ملامح الشخصيات والأماكن، حتى شاع تعبير «الشخصية التشيخوفية» عندما تصادف في الحياة شخصية تكاد تكون نسخة حيَّة من شخصيات روايات تشيخوف وقصصه، وكأنما أصبح المرجِع فَن تشيخوف لا واقع الحياة.

في أعمال تشيخوف الروائية والقصصية والدرامية تحس — رغم تحفظ الكاتب و«حياديته» — بتعاطفه العميق مع شخصياته المعذَّبة وأبطاله المُهانِين الذين سحَقَتهم الحياة بابتذالها وكآبتها، وبعطفه عليهم حتى وهو يدين ضعفهم ورذائلهم. ولم يقتصر تشيخوف في إبداعه على تصوير المثقَّفِين، الأقرب إليه روحيًّا واجتماعيًّا، بل هبط إلى القاع، فقدَّم لنا نماذج بشرية من الفلاحين والتجار والعمال والحِرفِيِّين والأطفال ولم يقسم أبطاله إلى أشرار وأخيار، فتَحت تأثير الصراع النفسي الداخلي والهزَّات الأخلاقية تتبدَّل النفوس فتسمو أو تنهار أو تتبادَل المواقع رواية «المبارزة»، وفي هذا التعاطف العميق مع البشر يَكمُن سِحر تشيخوف الخاص الذي يجعل منه معاصرًا بعد رحيله ومحبَّبًا إلى كل القلوب.

لا شك أن أنطون بافلوفيتش تشيخوف عبقرية مبدِعة «لا مثيل لها» كما قال تولستوي، لكنها لم تظهر من الفراغ. لقد عاش تشيخوف في وقت واحد مع ليف

تولستوي العملاق الذي أثَّر فيه تأثيرًا كبيرًا في مرحلة معيَّنة، وكان من أساتذته معاصره سالطيكوف-شيدرين أعظم الكُتَّاب الروس الساخِرين. وأحاطَت به مجموعة من الكُتَّاب الموهوبِين الذين ذاعَت شهرتهم في حياة تشيخوف «جوركي، وبونين، وكورلنكو، وكوبرين وغيرهم». وكان من أصدقائه أكبر مصوِّري ذلك العصر لفيتان وريبين، وأبرز الموسيقِيِّين الروس: تشايكوفسكي ورحمانينوف، وأكبر مخرج ومُنظِّر عرفه المسرح الروسي والسوفيتي: قسطنطين ستانسلافسكي، وزميله نيميروفتش-دانتشنكو. وإلى وسادة الأدب الروسي الوثيرة … التي صنعها بوشكين، وجوجول، وليرمنتوف، وتورجينيف، ودوستويفسكي … أسند أنطون تشيخوف ظَهْرَه، مستمِدًّا من هذا الإرث الثقافي الضَّخم قُوَّته الإبداعية الفذَّة.

وأخيرًا لا نجد أفضل من كلمات الأديب المعاصر لتشيخوف، ألكسندر كوبرين، لنختم بها هذه المقدِّمة:

> «… وبالفعل … فسوف تمرُّ الأعوام والقرون. وسوف يمحو الزمن ذكرى آلاف الآلاف من الأحياء من الآن، لكن الأجيال القادمة، التي كان تشيخوف يحلم بسعادتها بذلك الحزن الساحر، سوف تُردِّد اسمه بعِرفان، وبِأَسًى خافِت على مصيره.»

د. أبو بكر يوسف
القاهرة، يونيو ٢٠٠٧

رسالة إلى جاري العالِم

قرية بليني-سبيدني[1]

جاري العزيز مكسيم ... (نسيت كيف تُدْعَون باسم أبيكم فأرجو سماحكم الكريم)[2] اعذروني واغفرو لهذا العجوز القديم ولهذه النفس البشرية الحمقاء؛ إذ أتجرَّأ وأُزعجكم بتمتمتي الكتابية البائسة هذه. ها قد مرَّ عام بطوله منذ أن تفضَّلتم فحللتم بهذا الجزء من العالَم الذي نحن فيه، ونزلتم إلى جواري، أنا الإنسان الضئيل، ومع ذلك ما زِلت لا أعرفكم وأنتم لا تعرفونني أنا الجرادة البائسة. فَلتسمَحوا لي أيُّها الجار النفيس، ولو عن طريق هذه الهيروغليفات العجوز، أن أتعرَّف بكم، وأن أشُدَّ في الفكر على يدكم العالِمَة وأهنئكم بالقدوم من سانت بطرسبرج إلى قارَّتِنا غير الجديرة، المسكونة بالموجيك والناس الفلاحين؛ أي بعنصر العامَّة. ومن زمان وأنا أبحث عن مناسَبة للتعرُّف بكم، وكنتُ متعطشًا إلى ذلك؛ لأن العلم الذي هو إلى درجة ما أُمُّنا الحبيبة، هو والحضارة شيء واحد؛ ولأني أحترم من صميم القلب أولئك الأشخاص الدين تُدوِّي أسماؤهم الشهيرة وألقابهم المتوَّجة بهالة المجد الذائع وبأكاليل الغار والصنوج والأوسمة والأشرطة والشهادات في جميع أنحاء هذا العالم الكوني الظاهر والخافي؛ أي ما هو تحت القمر. إنني أحب حبًّا لاهبًا الفلكيِّين والشعراء والميتافيزيقيين، والبريفات دوتسنتي،[3] والكيميائِيِّين وغيرهم من سدَنة العِلم الذين تَنسبون أنفسكم إليهم من خلال حقائقكم الذَّكيَّة وحقول علومكم؛ أي المنتَجات والثمار. ويقال

---

[1] اسم من اختراع المؤلِّف للسخرية والدعابة ويعني «الشطائر أُكِلَت». (المُعَرِّب)

[2] تقتضي تقاليد المخاطَبة الروسية مخاطَبة الشخص باسمه واسم أبيه للاحترام. (المُعَرِّب)

[3] بريفات دوتسنت: الأستاذ المساعِد من خارج هيئة التدريس. (المُعَرِّب)

إنكم طبَعتم كُتبًا كثيرة خلال جلوسكم الذهني مع الأنابيب ومقاييس الحرارة وكومة من الكُتب الأجنبية ذات الرسوم المغرية. ومنذ قريب جاء إلى أملاكي الحقيرة، إلى أطلالي وخرائبي، مكسيموس بونتيفكس[٤] المحلي، الأب جيراسيم، وأخذ بتعصُّبه المعهود يسبُّ ويلعن أفكاركم وتفكيركم بخصوص أصل الإنسان وغيره من ظواهر العالم الظاهر، وهاج وثار ضد مجالكم الذهني وأُفقكم الفكري المغطَّى بالكواكب المنيرة والشهائب[٥] وأنا لا أوافق الأب جيراسيم بخصوص أفكاركم الفكرية؛ لأنني لا أعيش ولا أتغذَّى إلا بالعلم الذي وهبَته العناية الإلهية لجنس بني الإنسان لاستخراج الفِلزَّات الثَّمينة واللافلزَّات والجواهر من باطن العالم الظاهر والخافي، ومع ذلك فلتعذرني، يا أبتاه، أنا الحشرة التي لا تكاد تبين، إذا ما تَجاسَرت فدحضتُ بأسلوب العجائز بعض أفكاركم بخصوص طبيعة الطبيعة. لقد أخبرني الأب جيراسيم بأنكم فيما يبدو ألَّفتم مؤلَّفًا فتفضَّلتم بأن عرضتم فيه أفكارًا غير جوهرِيَّة بالمرَّة بخصوص البشر، ونشأتهم الأولى، وكينونتهم قبل الطوفان. وتفضَّلْتم فألَّفتُم بأن الإنسان هو من نَسْل قبائل القرود والنسانيس والأورانجوتان[٦] وما شابه. سامحوني أنا العجوز؛ فإنني لستُ متَّفقًا معكم بخصوص هذه النقطة المهمة وبوسعي أن أضع أمامكم عُقدة، فلو أن الإنسان، سيد العالم، أذكى المخلوقات المتنفِّسة، جاء في الأصل من قرد غبي جاهل، لكان لديه ذيل وصوت متوحِّش. ولو أننا جئنا في الأصل من القِرَدة، لكان الغجَر يسوقوننا الآن في المدن للفُرجة، ولدفَعْنا نقودًا مقابِل الفُرجة على بعضنا البعض ونحن نرقص بأمر الغجَري أو نجلس خلْف القضبان في حديقة الحيوانات. وهل يغطِّي الشعر أجسامنا كلها؟ ألا نرتدي الثياب التي ليست لدى القرود؟ وهل كنا نحب المرأة ولا نحتقرها لو فاحت منها ولو قليلًا رائحة القردة التي نراها كل ثلاثاء لدى رئيس النبلاء؟ ولو أن أسلافنا كانوا من نَسل القرود لما دُفنوا في المقابر المسيحية. إن والد جدِّي أمفروستي، مثلًا، الذي عاش في زمنه في المملكة البولندية، قد دُفن لا كقرد، بل إلى جِوار العَبَّاد الكاثوليكي يواقيم شوستاك الذي يحتفظ أخي إيفان (الرائد) حتى الآن بمذكِّراته عن المناخ المعتدل والتناوُل غير المعتدل للمشروبات الكحولية. والعَبَّاد تعني

[٤] الحبر الأعظم؛ (محرَّفة عن اللاتينية).

[٥] تحريف كلمة «الشهب» للسخرية من جهل كاتِب الرسالة؛ حيث أورد تشيخوف الكلمة مُحرَّفة. (المُعَرِّب)

[٦] إنسان الغابة، نوع من القردة العليا الشبيهة بالإنسان. (المُعَرِّب)

القس الكاثوليكي. فلتعذروني أنا الجاهل لِتدخُّلي في شئونكم العلمية وحديثي بطريقتي، بأسلوب العجائز، وفَرْضِي عليكم أفكاري المشوَّهة والفظَّة، التي تكون لدى العلماء والقوم المتحضِّرين في مكان أقرب إلى البطن منه إلى الرأس. ولكني لا أقوى على الصمْت ولا على الصَّبر عندما يفكِّر العلماء تفكيرًا خاطئًا في عقولهم، ولا يمكنني إلا أن أعارضكم. لقد أخبرني الأب جيراسيم أنكم تفكِّرون تفكيرًا خاطئًا بخصوص القمر؛ أي الهلال الذي يعوضنا عن الشمس في ساعات الظلام والعتمة، حين يكون الناس نيامًا، بينما أنتم تنقلون الكهرباء من مكان إلى آخر وتعملون الخيال. لا تضحكوا مني، أنا العجوز؛ لأني أكتب بهذه الصورة الغبية. إنكم تكتبون أن القمر؛ أي الهلال، يعيش ويقطن فيه بشر وقبائل. وهذا لا يمكن أن يكون أبدًا؛ لأنه لو كان الناس يعيشون على القمر لحجبوا عنا نوره الساحر والفاتن بمنازلهم ومَراعيهم الكثيفة. وبدون المطر لا يستطيع الناس أن يَحيوا، والمطر يسقط إلى أسفل على الأرض وليس إلى أعلى، على القمر. ولو عاش الناس على القمر لَسقَطوا إلى أسفل على الأرض، ولكن ذلك لا يحدث، ولانهالَت القاذورات والمخلَّفات من القمر المسكون على يَابستِنا. وهل يمكن للبشر أن يعيشوا على القمر إذا كان لا يوجد إلا ليلًا، وفي النهار يختفي؟ كما أن الحكومات لن تسمح بالعيش على القمر؛ لأنه بسبب بُعد المسافة وعدم إمكانية بلوغه، يمكن الاختفاء فيه من المساءلة بكل سهولة. إنكم أخطأتم قليلًا. لقد ألَّفتم ونشرتم في مؤلَّفكم الذكي، كما قال لي الأب جيراسيم، كما لو أنه تُوجَد على أعظم الكواكب المنيرة، الشمس، بُقع سوداء. وهذا لا يمكن أن يكون؛ لأن هذا لا يمكن أن يكون أبدًا. كيف أمكنكم أن تَروا على الشمس بقعًا. إذا كان من غير الممكن النظر إلى الشمس بالعيون البشرية العادية، وما الداعي لأن تكون عليها بقع إذا كان من الممكن الاستغناء عنها؟ ومن أي جسم رطب صُنِعت هذه البقع ذاتها إذا كانت لا تحترق؟ وربما حسب رأيكم، تعيش الأسماك أيضًا على الشمس. اعذروني أنا المخدر المسموم على هذه المزحة الغبية! فأنا جدٌّ مخلص للعلم! والروبل، شعار القرن التاسع عشر هذا، ليس له عندي أي ثمن، فقد حجبه العلم عن عيني بأجنحته اللاحقة. كل اكتشاف يُعذِّبني كأنه مسمار في ظهري. ورغم أنني جاهل ومالِك أطيان دقة قديمة، فإنني، أنا المستهتر العجوز، أشتغل بالعلم والاكتشافات التي أصنعها بيدي، وأملأ رأسي الأخرَق، جمجمتي المتوحِّشة، بالأفكار وبطاقم من أعظم المعارِف. وأُمُّنا الطبيعة هي كتاب ينبغي أن نقرأه ونراه. وقد أنجزتُ بعقلي الخاص الكثير من الاكتشافات التي لم يخترعها أي مُصلِح حتى الآن. وأقولها

بلا مُباهاة، إنني لستُ من الأواخر فيما يخص التعليم الذي حصلتُ عليه بالأصابع المشقَّقة من الكَدِّ وليس بثروة الْوالِدَين؛ أي الأم والأب، أو الوصاة الذين كثيرًا ما يَقضون على أبنائهم بالثروة والرفاهية والمساكن من ستة طوابق بالجواري والأجراس الكهربائية. وهاكم ما اكتشفتُه بعقلي البخس. لقد اكتشفتُ أن شمسَنا العظيمة النارية المشِعَّة والمشعثة تضيء بلوحة من شتى الألوان الملونة في الصباح الباكر من يوم الفصح المقدَّس، وتترك بوميضها المدهش انطباعًا لعوبًا. واكتشاف آخر. لماذا يكون النهار في الشتاء قصيرًا والليل طويلًا، والعكس صيفًا؟ اليوم في الشتاء قصير؛ لأنه مثل باقي المواد الظاهرة والخفِيَّة، ينكمش بالبرودة، ولأن الشمس تغرب مبكرًا، والليل بفعل أزيز اليراعات المضيئة والمصابيح يتمدد لأنه يدفأ. ثم اكتشفتُ أيضًا أن الكلاب في الربيع تأكل العشب مثل الغنم، وأن القهوة مضرة لأصحاب المزاج الدموي؛ لأنها تحدث في الرأس دوارًا وفي العينين لونًا عكرًا. وما شابَه ذلك وخلافه. لقد أنجزت اكتشافات كثيرة من هذه، رغم أني لا أحمل شهادات أو تقديرات.

تعالوا زوروني يا جاري العزيز، أستحلفكم بالله. وسنكتشف معًا شيئًا ما، ونشتغل بالأدب فتعلمونَني أنا الوضيع مختلِفَ الحسابات. لقد قرأتُ من وقت قريب عند أحد العلماء الفرنسيين أن بوز الأسد لا يشبه أبدًا الوجه البشري كما يظن العلماء. وعن هذا أيضًا سنتحدث، تعالوا لو تكرَّمتُم. تعالوا ولو غدًا مثلًا. إننا الآن نتناول طعام الصيام، ولكن سنُعِد لكم طعام الإفطار. وقد طلبَت ابنتي نتاشنكا منكم أن تجلبُوا معكم كُتبًا ذَكِيَّة ما. إنها عندي متحرِّرة، والجميع في نظرها أغبياء وهي وحْدَها الذكية، الشباب، ودَعْنِي أَقُل لكم، يُفصِح عن نفسه، وفَّقَهم الله! بعد أسبوع سيأتي إليَّ أخي إيفان (الرائد)، وهو شخص طيب، ولكن فيما بيننا أقول إنه بوربون[٧] ولا يحب العلوم.

هذه الرسالة سيحملها لكم حامِل مفاتيحي تروفيم في تمام الساعة الثامنة مساءً. فإذا جاء بها متأخِّرًا فلتصفَعُوه على خدَّيه على طريقة الأساتذة، فلا داعي للكلفة مع هذه القبيلة. فإذا جاء بها متأخِّرًا فمعناها أنه عرج على الحانة، هذا الملعون. إن عادة زيارة الجيران لم نَبتدِعها نحن، ولسنا نحن من سينهيها؛ ولذا تعالوا من كل بد بآلاتكم وكُتبكم.

[٧] فَظ جاهل. (المُعَرِّب)

كان بِوُدِّي أن آتي إليكم لكنني خجول للغاية وتعوزني الجرأة. فلتعذروني أنا المستهتِر على الإزعاج.

أبقي على احترامي لكم
صف ضابط مُتقاعِد بقوات الدون من النبلاء، جاركم
فاسيلي سيمي-بولاتوف

فرحة

كانت الساعة الثانية عشرة ليلًا.

اندفع ميتيا كولداروف إلى شقة والديه منفعلًا منفوش الشعر، ومضى يروح ويجيء بسرعة في جميع الغرف. وكان الوالدان قد أَويَا إلى الفِراش ورقدت أخته في سريرها تقرأ آخر صفحة من الرواية. أما إخوته التلاميذ فكانوا نائمِين.

وقال والداه بدهشة: من أين جئتَ؟ ماذا بك؟

– أوه، لا تسألا! لم أتوقَّع أبدًا ذلك! كلَّا، لم أتوقعه أبدًا! إنه ... إنه غير معقول!

وقَهْقَه ميتيا، وجلس في الفوتيل وهو لا يقوى على الوقوف من فرط السعادة.

هذا غير معقول! لا يمكن أن تتصوروا! انظروا!

قفزَت أخته من الفِراش، وأسدَلت على كتفيها البطانية واقتربت من أخيها. واستيقظ التلاميذ.

ماذا بك؟ إنك شاحب جدًّا!

– هذا من الفرحة يا ماما! فالآن أصبحَت روسيا كلها تعرفني! كلها! من قبل لم يكن أحد غيركم يعرف أنه يوجد في الدنيا المسجِّل الاعتباري[1] ديمتري كولداروف، أمَّا الآن فروسيا كلها تعرف ذلك! ماما! يا إلهي!

قفز ميتيا وجرى في غُرف البيت ثم عاد إلى مجلسه.

– ولكن ماذا حدث؟ هل أوضحت لنا؟

[1] المسجِّل الاعتباري رتبة من أدنى الرُّتَب المدنِيَّة في روسيا القيصرية. (المُعَرِّب)

– إنكم تعيشون كالوحوش البرِّيَّة، لا تقرءون الصحف، ولا تهتمون أبدًا بما يُنشَر، بينما في الجرائد أشياء رائعة! فإذا حدَث شيء يصبح معروفًا على الفور، ولا يخفى أبدًا! كم أنا سعيد! يا إلهي! الجرائد لا تكتب إلا عن مشاهير الناس فقط، وإذا بهم فجأة يكتبون عني!

– ماذا تقول؟ أين؟

امتقع الأب. ونظرَت الأم إلى الأيقونة ورسَمَت علامات الصليب. وقفز التلاميذ في قمصان النوم القصيرة فقط، واقتربوا من أخيهم الأكبر.

– نعم! كَتبوا عني! الآن تعرفني روسيا كلها! خبِّئي يا ماما هذا العدَد واحتفِظي به للذكرى! سوف نقرؤه أحيانًا. انظروا!

وأخرَج ميتيا من جيبه عددًا من جريدة وأعطاه لأبيه وهو يَدسُّ إصبعه في موضع محاط بخط أزرق.

– اقرأ!

وارتدى الوالد النظارة.

– هيَّا اقرأ!

ونظرَت الأم إلى الأيقونة ورسمت علامة الصليب. وتنحنح الأب وشرع يقرأ: «في ٢٩ ديسمبر، في الساعة الحادية عشرة مساء كان المسجِّل الاعتباري ديمتري كولداروف.»

– هل رأيتم؟ هل رأيتم؟ أكمل!

– كان المسجِّل الاعتباري ديمتري كولداروف خارجًا من الحانة الواقعة في شارع مالايا برونايا، في منزل كوزيخين، وهو في حالة سُكر.

– شربتُ مع سيميون بتروفتش ... وصَفوا حتى أَدقَّ التفاصيل، أكمل بعده! اسمعوا!

– وهو في حالة سُكر زلَّت قدمه وسقط تحت حصان حوذي كان واقفًا هناك، ويُدعى إيفان دروتوف من قرية درويكينا بناحية يوخنوف. وذُعِر الحصان فخطَا من فوق كولداروف وسَحب من فوقه الزحَّافة التي كان جالسًا فيها ستيبان لوكوف التاجر من الدرجة الثانية بموسكو، وانطلق عبر الشارع وتمكَّن البوابون من الإمساك به. ونُقل كولداروف الذي كان فاقد الوعي إلى قسم الشرطة؛ حيث أُجريَ له كشف طبي. واتضح أن الضربة التي تلقاها في مؤخِّرة رأسه.

– إنها من اصطدامي بذراع الزحَّافة يا بابا. أكمل، اقرأ بعد ذلك!

– التي تلقَّاها في مؤخِّرة رأسه تُعتبَر من الضربات الخفيفة. وقد تم تحرير محضر بالواقعة. «وأُجرِيَ للمُصاب إسعاف أَوَّلي.»

– نصحوني بأن أُبلل مؤخِّرة رأسي بالماء البارد.

حسنًا، هل رأيتم؟ هه؟ هكذا! الخبر الآن ينتشر في روسيا كلها! هات الجريدة!

وخطف ميتيا الجريدة وطواها، ودسَّها في جيبه.

– سأُسرع إلى آل هكاروف لأريها لهم ... ينبغي أن أُريها أيضًا لآل إيفانيتسكي، ولنتاليا إيفانوفنا، ولأنيسيم فاسيليتش! أنا ذاهب! وداعًا.

وارتدى ميتيا العمرة ذات الشريط المعقود، وانطلق إلى الشارع منتشيًا فرِحًا.

وفاة موظَّف

ذات مساء رائع كان إيفان ديمتريفيتش تشرفياكوف، الموظَّف الذي لا يَقلُّ روعة، جالسًا في الصف الثاني من مقاعد الصالة، يتطلَّع في المنظار إلى «أجراس كورنيفيل». وأخذ يتطلع وهو يشعر بنفسه في قمة المتعة. وفجأة ... وكثيرًا ما تقابلنا «وفجأة» هذه في القصص. والكُتَّاب على حق؛ فما أحفل الحياة بالمفاجآت! وفجأة تقلَّص وجهه، وزاغ بصره، واحتبست أنفاسه ... وحوَّل عينيه عن المنظار وانحنى و... أتش! عطس كما ترون.

والعطس ليس محظورًا على أحد في أي مكان؛ إذ يعطس الفلاحون، ورجال الشرطة، بل وحتى أحيانًا المستشارُون السِّرِّيون. الجميع يعطس. ولم يشعر تشرفياكوف بأي حرج، ومسح أنفه بمنديله، وكشخص مهذَّب نظر حوله ليرى ما إذا كان قد أزعج أحدًا بعطسه. وعلى الفور أحسَّ بالحرج؛ فقد رأى العجوز الجالس أمامه في الصف الأول يمسح صلعته ورقبته بقفازه بعناية ويُدمدِم بشيء ما. وعرف تشرفياكوف في شخص العجوز الجنرال جالوف الذي يعمل في مصلحة السكك الحديدية. وقال تشرفياكوف لنفسه: «لقد بللته. إنه ليس رئيسي، بل غريب، ومع ذلك فشيء محرِج. ينبغي أن أعتذر.» وتنحنح تشرفياكوف ومال بجسده إلى الأمام وهمس في أذن الجنرال: عفوًا يا صاحب السعادة، لقد بللتكم ... لم أقصد.

– لا شيء، لا شيء.

– أستحلفكم بالله العفو. إنني ... لم أكن أريد!

– أوه، اسكت من فضلك! دعني أستمع!

وأحرج تشرفياكوف فابتسم ببلاهة، وراح ينظر إلى المسرح. كان ينظر ولكنه لم يعد يحس بالمتعة؛ لقد بدأ القلق يعذبه. وأثناء الاستراحة اقترب من بريز جالوف وتمشَّى قليلًا

بجواره، وبعد أن تغلَّب على وجله دمدم: لقد بللتكم يا صاحب السعادة … اعذروني … إنني لم أكن أقصد أن.

فقال الجنرال: أوه كفاك! أنا قد نسيتُ وأنت ما زلتَ تتحدَّث عن نفس الأمر!

وحرَّك شفته السفلى بنفاد صبر.

وقال تشرفياكوف لنفسه وهو يتطلع إلى الجنرال بشك: «يقول نسيتُ بينما الخبث يطل من عينيه. ولا يريد أن يتحدث. ينبغي أن أوضِّح له أنني لم أكن أرغب على الإطلاق … وأن هذا قانون الطبيعة، وإلا ظن أنني أردتُ أن أبصق عليه. فإذا لم يظن الآن فسيظن فيما بعد!»

وعندما عاد تشرفياكوف إلى المنزل روى لزوجته ما بدَر عنه من سوء تصرُّف. وخُيِّل إليه أن زوجته نظرَت إلى الأمر باستخفاف، فقد جزعَت فقط، ولكنها اطمأنَّت عندما علمَت أن بريز جالوف ليس رئيسه وقالت: ومع ذلك اذهب إليه واعتذر. وإلا ظن أنك لا تعرف كيف تتصرف في المجتمعات!

– تلك هي المسألة! لقد اعتذرتُ له، ولكنه … كان غريبًا … لم يقل كلمة مفهومة واحدة. ثم إنه لم يكن هناك مُتَّسع لحديث.

وفي اليوم التالي ارتدى تشرفياكوف حُلة جديدة، وقص شعره، وذهب إلى بريز جالوف لتوضيح الأمر … وعندما دخل غرفة استقبال الجنرال رأى هناك كثيرًا من الزوار ورأى بينهم الجنرال نفسه الذي بدأ يستقبل الزوار.

وبعد أن سأل عدة أشخاص رفع عينيه إلى تشرفياكوف. فراح الموظَّف يشرح له: بالأمس في «أركاديا» لو تذكرون يا صاحب السعادة عطستُ و… بللتكم من غير قصد … اعذر.

– يا للتفاهات … الله يعلم ما هذا! وتوجَّه الجنرال إلى الزائر التالي: ماذا تريدون؟

وفكَّر تشرفياكوف ووجهه يشحب: «لا يريد أن يتحدَّث، إذن فهو غاضب … كلا، لا يمكن أن أدع الأمر هكذا … سوف أشرح له.»

وبعد أن أنهى الجنرال حديثه مع آخر زائر واتَّجه إلى الغرفة الداخلية خطا تشرفياكوف خلفه ودمدم: يا صاحب السعادة! إذا كنتُ أتجاسر على إزعاج سعادتكم فإنما من واقع الإحساس بالندم! لم أكن أقصد كما تعلمون سعادتكم!

فقال الجنرال وهو يختفي خلف باب: إنك تسخر يا سيدي الكريم!

وفكَّر تشرفياكوف: «أي سخرية يمكن أن تكون؟ ليس هنا أي سخرية على الإطلاق! جنرال ومع ذلك لا يستطيع أن يفهم! إذا كان الأمر كذلك فلن أعتذر بعد لهذا المتغطرس. ليذهب إلى الشيطان! سأكتب له رسالة، ولكن لن آتي إليه. أقسم لن آتي إليه.»

هكذا فكر تشرفياكوف وهو عائد إلى المنزل. ولكنه لم يكتب للجنرال رسالة. فقد فكر وفكر ولم يستطع أن يدبج الرسالة. واضطر في اليوم التالي إلى الذهاب بنفسه لشرح الأمر.

ودمدم عندما رفع إليه الجنرال عينين متسائلتَين.

– جئت بالأمس فأزعجتكم يا صاحب السعادة، لا لكي أسخر منكم كما تفضلتم سعادتكم فقلتم. بل كنتُ أعتذر؛ لأني عطست فبللتكم ... ولكنه لم يَدُر بخاطري أبدًا أن أسخر، وهل أجسر على السخرية؟ فلو رُحنا نسخر فلن يكون هناك احترام للشخصيات إذن.

وفجأة زأَر الجنرال وقد اربدَّ وارتعد: اخرج من هنا!

فسأل تشرفياكوف هامسًا وهو يذوب رعبًا: ماذا؟

فردَّد الجنرال ودق بقدمه: اخرج من هنا!

وتمزَّق ما في بطن تشرفياكوف. وتراجع إلى الباب وهو لا يرى ولا يسمع شيئًا، وخرج إلى الشارع وهو يجرجر ساقيه ... وعندما وصل آليًّا إلى المنزل استلقى على الكنبة دون أن يخلع حلته ... ومات.

البَدين والنَّحيف

في محطة سكة حديد نيقولاي التقى صاحبان: أحدهما بَدين والآخر نحيف. كان البدين قد تغدَّى لِتوِّه في المحطة ولمعَت شفتاه من الدُّهن كما تلمع ثمار الكرز الناضجة، وفاحَت منه رائحة النبيذ والحلويات المعطرَّة. أمَّا النحيل فكان خارجًا لِتوِّه من عربة القطار محمَّلًا بالحقائب والصُّرر وعِلب الكرتون، وفاحت منه رائحة لحم الخنزير والقهوة الرخيصة. ولاحت من وراء ظهره امرأة نحيفة طويلة الذقن ... زوجته، وتلميذ طويل بعين مَزرورة ... ابنه.

وهتف البَدين عندما رأى النحيف: بورفيري! أهو أنت؟ يا عزيزي! كم مَر من أعوام لم أرك!

ودهش النحيف: يا سلام! ميشا! يا صديق الطفولة! من أين جئت؟

وتبادل الصاحبان القُبُلات ثلاثًا، وحدَّق كل منهما في الآخر بعينين مُغرَورِقتَين بالدموع. وكان كلاهما في حالة من الذهول اللذيذ.

وقال النحيف بعد القبلات: يا عزيز! لم أتوقَّع أبدًا! يا لها من مفاجأة! هلَّا نظرتَ إليَّ جيدًا؟ جميل كما كنتَ، حَبُّوب وغندور كما كنت! آه يا إلهي! كيف أحوالك؟ أصبحتَ غنيًّا؟ تزوجت؟ أنا تزوجتُ كما ترى ... وهذه زوجتي، لويزا ... من عائلة فانسنباخ ... بروتستانتية ... أما هذا فابني، نفانائيل، تلميذ بالصف الثالث ... يا نفانيا، هذا صديق طفولتي! درَسنا معًا في المدرسة.

وفكر نفانائيل قليلًا ثم نزع قُبَّعته.

ومضى النحيف يقول: درَسنا معًا في المدرسة! أتذكَّر كيف كانوا يغيظونك، بلقب هيروستراتوس؛ لأنك أحرقت بالسيجارة كتاب عهدة، وكانوا يغيظونني بلقب أفيالتوس؛ لأنني كنتُ أحب النميمة ... ها ... ها ... كم كنا صغارًا! لا تخف يا نفانيا ... اقترب منه ...

وهذه زوجتي، من عائلة فانسنباخ … بروتستانتية. وفكَّر نفانائيل قليلًا، ثم اختبأ خلف ظهر أبيه.

وسأل البدين وهو ينظر بإعجاب إلى صديقه: كيف حالك يا صديقي؟ أين تخدم؟ وماذا بلغتَ في الخدمة؟

– أخدم يا عزيزي! بلغتُ مُحكم هيئة[1] منذ سنة وأحمل وسام ستانسلاف. الراتب سيئ … فليكن! زوجتي تعطي دروسًا في الموسيقى، وأنا أصنع علب سجائر من الخشب. علب ممتازة! أبيعها الواحدة بروبل. ومن يشترِ عشر علب أو أكثر أُقدِّمْ له خصمًا. ندبر أمورنا كيفما كان. أتدري؟ كنت أخدم في الإدارة، وقد نُقلتُ إلى هنا الآن كرئيس قسم تبع نفس الوزارة … سوف أخدم هنا. وأنت، كيف؟ أظنك بلغت مستشار دولة؟ هه؟

فقال البدين: لا يا عزيزي، بل أعلى … لقد بلغتُ المستشار السِّرِّي[2] … أحمل نجمتين.

وفجأة امتقع النحيف، وتجمَّد، ولكن سرعان ما التوى فمه في جميع الاتجاهات ليصنع ابتسامة عريضة للغاية. وبدَا كأن الشرار قد تطاير من وجهه وعينيه.

أما هو فانكمش وتحدَّب وضاق. وانكمشَت حقائبه وصُررُه وعُلَبه وتجعَّدَت … واستطال ذقن زوجته الطويل. وشد نفانائيل قامته وزرَّر جميع أزرار سُترَته.

– إنني يا صاحب السعادة … مسرور جدًّا! صديق الطفولة، يعني، وإذا به يصبح من السادة الأكابر! هئ … هئ.

فامتعض البدين وقال: دَعْك من هذا! ما هذه النبرة؟ إننا أصدقاء الطفولة، فما معنى عبادة الألقاب هذه؟!

فضحك النحيف ضحكة صفراء وازداد انكماشًا: العفو … ماذا تقولون؟ … إن اهتمام سعادتكم الكريم … هو كالبلسم الشافي … هذا هو ابني نفانائيل يا صاحب السعادة … زوجتي لويزا، بروتستانتية إلى درجة ما.

وأراد البدين أن يعارض بشيء ما، ولكن وجه النحيف كان يطفح بالتبجيل والتعبير المعسول والخنوع إلى درجة أثارَت الغثيان في نفس المستشار السِّرِّي. فأشاح بوجهه عن النحيف ومد يده مودِّعًا.

---

[1] رُتبة مدنية من الدَّرجة الثامنة في روسيا القيصرية. (المُعَرِّب)

[2] رتبة مدنية عالية في روسيا القيصرية تُعادل رتبة اللواء. (المُعَرِّب)

وصافح النحيف ثلاث أصابع وانحنى بجسده كله وضحك كالصيني: «هئ ... هئ ... هئ». وابتسمَت الزوجة. ومسح نفانائيل الأرض بقدمه وسقطَت منه القبعة. وكان ثلاثتهم في حالة من الذهول اللذيذ.

الحرباء

عبر ميدان السوق يسير مفتش الشرطة أتشوميلوف في مِعطف جديد ويحمل في يده لفافة. ومن خلفه يسير شرطي أحمر الشعر ومعه غِربال مملوء لحافَّته بثمار عنب الثعلب المصادَرة. والسكون مخيِّم ... ولا أحد في السوق ... وتطل أبواب المتاجر والحانات المفتوحة على العالم بنظرة كابية كالأشداق الجائعة. ولا يوجد بجوارها حتى الشحَّاذون. وفجأة يسمع أتشوميلوف صوتًا يقول: آه، إذن فأنت تعض أيها الملعون ... أمسكوه يا أولاد! العض الآن ممنوع. أمسك ... آه.

ويتردَّد عويل كلب. ويلتفت أتشوميلوف فيرى كلبًا يركض من مخزن الحطب التابع للتاجر بتشوجين وهو يقفز على ثلاث أرجل ويتلفِت ويطارده شخص في قميص من الشيت المنشى وصديري مفتوح. يركض وراء الكلب ثم يسقط على الأرض مادًّا جذعه إلى الأمام ويقبض على ساقي الكلب الخلفيَّتَين. ويتردَّد من جديد عويل الكلب وصيحة: «أمسكوه». وتطل من المتاجر سِحَن ناعسة، وسرعان ما يتجمَّع الناس بالقرب من مخزن الحطب وكأن الأرض انشقَّت عنهم.

ويقول الشرطي: يبدو هنا اضطراب يا صاحب المعالي!

ويستدير أتشوميلوف نصف دورة إلى اليسار متَّجهًا إلى الجمع. ويرى بجوار بوابة المخزن مباشرة الشخص المذكور في الصديري المفتوح وهو يرفع يده اليمنى ليرى الجمع إصبعه المدماة. وكأنما كتب على سحنته الثملة: «سوف أريك أيها الملعون»، وإصبعه نفسها تشبه علامة النصر. ويتعرف أتشوميلوف في هذا الرجل الصائغ خريوكين. وفي وسط الجمع يجلس المتسبِّب في هذه الضجة، جرو صيد أبيض ذو أنف حادٍّ وبقعة صفراء على ظهره، مادًّا ساقيه الأماميَّتَين، وجسده كله يرتعش، وفي عينيه الدامعتين نظرة حزن ورعب.

ويسأل أتشوميلوف وهو يقتحم الحشد: بأيِّ مناسَبة أنتم هنا؟ لماذا هنا؟ وأنت لماذا إصبعك؟ من الذي صاح؟

ويشرع خريوكين في الكلام وهو يتنَحْنَح في قبضته: كنتُ سائرًا يا صاحب المعالي لا أمسُّ أحدًا … بخصوص الحطب مع ميتري ميتريتش … وفجأة إذا بهذا الوغد، ودون أي سبب ينهش إصبعي … أرجو المعذرة، فأنا رجل، يعني، من العامِلين … وعملي دقيق … فليدفعوا لي؛ لأني ربما لا أستطيع أن أحرك هذه الإصبع أسبوعًا … ولا يوجد في القانون يا صاحب المعالي ما ينص على أن يتحمل الإنسان هذه المخلوقات … فلو أن كل واحد أخذ يعض، فالأفضل ألا يعيش الإنسان على ظهر الأرض.

فيقول أتشوميلوف بصرامة وهو يسعل ويحرك حاجبيه: هم! حسنًا … حسنًا … كلب من هذا؟ أنا لن أدع ذلك هكذا! سأريكم كيف تُطلِقون كلابكم! آن أن ننتبه إلى أولئك السادة الذين لا يريدون أن يمتثلوا للقوانين! عندما يدفع الغرامة هذا الوغد سيعرف ما معنى الكلاب وغيرها من الدواب الضالة! سأريه العفاريت الزرق! ويخاطب الشرطي: يلديرين، اعرف كَلْب من هذا واكتب محضرًا! أما الكلب فينبغي إعدامه. فورًا! لا بد أنه مسعور … إنني أسألكم كَلْب من هذا؟

ويقول شخص من الجمع: يبدو أنه كلب الجنرال جيجالوف!

– الجنرال جيجالوف؟ هم! انزع عني المعطف يا يلديرين … أف، يا للحر! يبدو أن المطر سيسقط … شيء واحد لا أفهمه، كيف استطاع أن يعضَّك، يقول مخاطبًا خريوكين: أمن المعقول أنه يطال إصبعك؟

إنه صغير أمَّا أنت فانظر ما طولك! يبدو أنك جرَحت إصبعك بمسمار وخطرَت لك فكرة أن تحصل على تعويض … أنتم هكذا … أعرفكم أيها الشياطين!

– يا صاحب المعالي، كان يلسعه بالسيجارة في بوزه ليضحك عليه، فلم يكذب الكلب خبرًا وعضه … إنه شخص مُشاكِس يا صاحب المعالي!

– كذَّاب يا أحول! أنتَ لم ترَ شيئًا فلماذا تكذب؟ إن معاليه سيد ذكي ويعرف من الكذاب ومن الشريف النقي الضمير أمام الله … وإذا كنتُ أكذب فليحكم القاضي … فلديه مكتوب في القوانين … الجميع الآن سواسية … وأنا لي أخ في الدرك، وإذا أردتَ أن تعلم.

– ممنوع الكلام!

ويقول الشرطي بنبرة تأمل عميق: كلَّا، هذا ليس كلب الجنرال. ليس لدى الجنرال كلاب كهذه … كلابه أكثرها سلوقية.

– هل أنت متأكد؟

– متأكد يا صاحب المعالي.

– أنا نفسي أعرف ذلك. كلاب الجنرال غالية، أصيلة، أما هذا ... فالشيطان يعلم ما هو! لا شعر ولا هيئة ... مجرَّد حقارة لا غير. أهذا كلب يُقتنَى؟ أين عقولكم؟ لو أن كلبًا كهذا ظهر في بطرسبرج أو موسكو، أتعلمون ماذا كان يحدث؟ ما كان أحد ليلتفتَ إلى القانون، بل على الفور ولا كلمة! هس! أنت يا خريوكين قد تضرَّرتَ ولا تدع الأمر يمر هكذا ... ينبغي أن نؤدِّبهم ... آن الأوان!

ويقول الشرطي وهو يفكر بصوت مسموع: وربما كان كلب الجنرال ... فليس مكتوبًا على سحنته ... رأيت من مدة كلبًا في فناء منزله.

ويقول صوت من الحشد: واضح، كلب الجنرال!

– هم! أَلبِسني المعطف يا يلديرين ... يبدو أن النسيم يهب ... لقد بردتُ ... احمله إلى الجنرال واسأل هناك. قل لهم إنني وجدتُه وأرسلتُه ... وقل لهم أيضًا ألا يخرجوه إلى الشارع ... فهو كلب ربما غالٍ، وإذا أخذ كل خنزير يلسعه بالسيجارة في وجهه فمن السهل إتلافه ... الكلب حيوان مُهم ... وأنت أيها الغبي أنزل ذراعك! كفاك إبرازًا لأصبعك الحمقاء! أنت المذنِب!

– ها هو طباخ الجنرال قادم، فلنسأله ... إي، يا برخور ... تعالَ هنا يا عزيزي ... انظر إلى هذا الكلب ... أهو كلبكم؟

– يا سلام! لم يكن لدينا أبدًا كلاب مثله!

فيقول أتشوميلوف: ليس هناك داعٍ للسؤال ... هذا كلب ضال! لا داعي للكلام الكثير ... إذا قلتُ إنه ضال فهو ضال ... ينبغي إعدامه وكفى.

واستطرد الطباخ: ليس كلبَنا، إنه كلب شقيق الجنرال الذي وصل من مدة. جنرالنا لا يحب كلاب الصيد. أما أخوه فيحبها.

ويسأل أتشوميلوف ويفيض وجهه بابتسامة تأثر: أحقًّا وصل شقيق الجنرال؟ فلاديمير إيفانتش! آه يا ربي! وأنا لا أعلم! هل جاء للزيارة؟

– للزيارة.

– آه يا ربي ... أوحشه شقيقه ... وأنا لا أعلم؟ إذن فهذا كلبه؟ سعيد جدًّا ... خذه ... يا له من كلب شقي ... هبش هذا من إصبعه ... ها ... ها ... ها ... ما لك ترتعش؟ أوه إنه غاضب هذا الماكر ... يا لك من صغير.

ويدعو بروخور الكلب ويمضي معه مبتعدًا عن مخزن الحطب ... ويقهقه الجمع سخرية بخريوكين.

ويقول له أتشوميلوف متوعدًا: مهلًا، سوف أفرغ لك!

ويمضي في طريقه عبر ميدان السوق متدثرًا بالمعطف.

حُلة النقيب

عبَست الشمس الصاعدة فوق المدينة الإقليمية، وبدأت الديوك تتمطى لِتوِّها، بينما كان الزبائن جالسِين في حانة العم ريلكين. كانوا ثلاثة: الخياط ميركولوف، والشرطي جراتفا، وساعي الخزينة سميخونوف. وكانوا ثلاثتهم سكارى.

وقال ميركولوف وهو يمسك بأحد أزرار سترة الشرطي: لا تقل ذلك، لا تقل ذلك! المرتبة في المؤسَّسات المدنية، إذا أخذْنَا العليا منها، تَفُوق رتبة الجنرال من ناحية الخياطة. خذ مثلًا وصيف البلاط … من هو هذا الشخص؟ من أي رتبة؟ لكن خذ احسب … أربعة أَذرُع من أعلى أنواع الجوخ، إنتاج فابريقة بروندل وأبنائه، وأزرار، وياقة ذهبية، وسراويل بيضاء بأشرطة ذهبية، والصدر كله بالذهب، القُبَّة والأكمام والعراوي … كله يلمع! لو أنك الآن خيَّطت حللًا لسادة كبار من مدراء المراسم ورجال البلاط ومختلف الوزراء … فكيف تظن؟ أذكر أنَّنَا خيَّطنا لواحد من هؤلاء السادة، الكونت أندريه سيميونيتش فونلياريفسكي، حلة لا تقترب منها! إذا أمسكتَها بين يديك وجدتَ النبض في عروقك ينفض تسيك تسيك!

السادة الحقيقيون عندما تخيط لهم إياك أن تزعجهم. خذ المقاس وخيِّط على طول، أما أن تتردَّد عليهم لعمل بروفات وضبط التفصيل فهذا مستحيل. إن كنتَ خياطًا قديرًا فخيِّط بعد أخذ المقاس على طول … اقفز من أعلى البرج بشرط أن تدخل بقدميك في الحذاء مباشرة، أرأيت؟

وكان بجوارنا يا أخي كما أذكر الآن ثكنة شرطة … فكان رئيسنا أوسيب ياكليتش يختار من رجال الشرطة الرجال الذين تتَّفِق أجسامهم مع أجسام الزبائن لكي نعمل البروفات عليهم. وبعدين، يعني … اخترنا يا أخي شرطيًّا مناسبًا لحلة الكونت. استدعيناه

... هيا البس يا أحمق وتبختر! ولَبس هذه الـ ... الحلة ... ويا له من منظر مضحك! ما إن نظر إلى صدره حتى ارتعش، أتعرف؟ سقط مغشيًّا عليه.

واستفهم سميخونوف: وهل فَصَّلْتم لمأمورِي المراكز؟

– وهل هؤلاء شخصيات؟ في بطرسبرج هؤلاء المأمورون كالكلاب الضالة ... هنا ينزعون أمامهم القبَّعات وينحنون، أما هنالك فيقولون لهم: «أفسح الطريق، لا تزاحم!» كنا نُفصِّل الحُلل للسادة العسكرِيِّين وللشخصيات من المراتِب الأربع الأولى. وكل شخصية تختلف عن الأخرى ... فإذا كنتَ مثلًا من الرتبة الخامسة فأنتَ تافِه ... تعالَ بعد أسبوع وتكون البدلة جاهزة؛ لأنه ليس هناك ما تفعله غير الياقة والأساور ... أما إذا كنتَ من الرتبة الرابعة أو الثالثة، أو مثلًا الثانية، فعندئذٍ يَنهال علينا صاحِب المحل، ونُسرع إلى ثكنة الشرطة. في مرَّة فصَّلنا يا أخي بدلة للقُنصل الفارسي. وطرَّزنَا له على الصدر والظهر قصبًا ذهبيًّا بألف وخمسمائة روبل. وظننَّا أنه لن يدفع، ولكن لا! لقد دفع ... في بطرسبرج حتى التَّتَر تجدهم نبلاء الطباع.

وظل ميركولوف يتحدَّث طويلًا. وفي الساعة التاسعة، وتحت تأثير الذكريات، بكى وراح يشكو بحرقة حظَّه الذي رماه في هذه المدينة الصغيرة المليئة بالتجار والبرجوازِيِّين فقط. وكان الشرطي في هذه الفترة قد ساق اثنين إلى قسم الشرطة، وذهب الساعي مرَّتين إلى البريد والخزينة وعاد بينما كان ميركولوف لا يزال يشكو. وفي الظُّهر وقف أمام الشماس وأخذ يضرب صدره بقبضته ويتذمر: لا أريد أن أُفصِّل للأوغاد! أنا أرفض! في بطرسبرج فَصَّلت بنفسي للبارون شبوتسيل وللسادة الضباط! ابتعِد عني يا قفطان ولائم الموتى، إياك أن تراك عيناي! ابتعِد!

فأكَّد الشماس للخياط: إنك تضع نفسك في مكانة عالية يا تريفون بانتليتش. صحيح أنت فنان في عملك، ولكن لا يجوز أن تنسى الله والدين. آري أيضًا وضع نفسه عاليًا، مثلك، ولكنه مات من الإسهال. أوه، وأنتَ أيضًا ستموت!

– سأموت! الأفضل أن أموت من أن أُفصِّل معاطف فلاحية.

– هل شيطاني هنا؟ تردَّد فجأة صوت نسائي خلف الباب، ودخلَت الحانة أكسينيا زوجة ميركولوف، وهي امرأة كهلة، مُشمِّرة الأكمام، ومحزومة البطن.

– أين هو هذا الصنم؟

وطافت على الرواد بنظرة غاضبة.

– اذهب إلى البيت، إن شاء الله تخطفك مصيبة. هناك ضابط يسأل عنك.

فدهش ميركولوف: أي ضابط؟

– وما أدراني! يقول إنه جاء ليفصِّل بدلة.

حكَّ ميركولوف أنفه الكبير براحته كلها، وهو ما كان يفعله دائمًا عندما يريد أن يعبِّر عن دهشته البالغة، ودمدم: هذه المرأة أصابتها لوثة ... منذ خمسة عشر عامًا لم أرَ وجهًا نبيلًا، وفجأة يأتي الآن، وفي يوم الصيام، ضابط ليفصل بدلة! هم! ... فلأذهب لأرى.

وخرج ميركولوف من الحانة ومضى إلى البيت وهو يترنَّح ... ولم تكذب عليه زوجته. فقد رأى أمام عتبة داره النقيب أورتشايف، سكرتير قائد الحاملة المحلية.

وقال له النقيب: أين كنتَ تتسكع؟ أنتظرك منذ ساعة ... هل تستطيع أن تُفصِّل لي بدلة؟

– يا صاحب المعالي ... يا إلهي! دمدم ميركولوف وهو يتحشرج، ونزع من على رأسه القبَّعة مع خصلة شعر، يا صاحب المعالي! وهل هذا جديد عليَّ؟ آه يا إلهي! فصَّلتُ للبارون شبوتسيل ... إدوارد كارليتش ... والسيد الملازم زيمبولاتوف مَدين لي حتى الآن بعشرة روبلات ... آه! يا امرأة، هاتي لصاحب المعالي كرسيًّا، آه يا ربي ... هل تأمرون بأخذ مقاسكم، أم تسمحون بأن أفصل بمجرد النظر؟

– طيب ... القماش من عندك، وتكون جاهزة بعد أسبوع ... كم تريد؟

– العفو يا صاحب المعالي ... ماذا تقولون؟ وضحك ميركولوف ضحكة ساخرة قصيرة. وهل أنا تاجر؟ إننا نعرف كيف نتعامل مع السادة ... حتى عندما فصَّلنَا للقنصل الفارسي فصَّلنَا بدون كلام.

وبعد أن أخذ ميركولوف مقاييس النقيب وودَّعه، ظل واقفًا ساعة كاملة في وسط الغرفة وهو يُحدِّق في زوجته ببلاهة. لم يكن يصدق.

وأخيرًا تمتم: يا لها من مفاجأة! يا سلام! من أين أحصل على النقود للقماش؟ يا أكسينا، أقرضيني، يا أختي، ذلك المبلغ الذي حصلت عليه من بيع البقرة.

أخرجَت له أكسينيا لسانها ثم بصقَت. وبعد فترة وجيزة بدأَت تتعامل مع زوجها بالبشكور وتكسر على رأسه الصحاف الفخَّارية وتسحبه من لحيته، وتخرج إلى الشارع وتصيح: «انظروا يا عباد الله! قتلني!» ولكن هذه الاحتجاجات لم تأتِ بنتيجة. وفي اليوم التالي رقدَت في الفراش وهي تخفي عن صبيان الخياط الكدمات الزرقاء، بينما كان ميركولوف يطوف بالدكاكين ويتشاجر مع التجار وينتقي الجوخ المناسب.

وحلَّ عهد جديد بالنسبة إلى الخياط. فبعد أن يستيقظ ويطوف بنظراته الغائمة على عالَمِه الصغير لم يَعُد يبصق بحقد ... أما أغرب شيء فهو أنه كفَّ عن الذهاب إلى الحانة

وانهمَك في العمل. وبعد أن يصلي بصوت خافِت يضع النظارة الحديد الكبيرة ويقطب جبينه، ويفرش القماش على الطاولة بخشوع.

وبعد أسبوع كانت الحُلَّة جاهزة. وبعد أن كواها ميركولوف، خرج إلى الشارع وعلَّقها على السياج المجدول من الأغصان وراح ينظفها ... ينزع منها وبرة، ثم يبتعد لمسافة ذراع، ويحدِّق في الحلة طويلًا بعينين مزرُورتَين، ثم يعود فينزع وبرة أخرى، وهكذا لمدة ساعتين.

وكان يقول للمارة: ما أشقَّ العمل مع هؤلاء السادة! لم أَعُد أطيق، خارت قواي! قوم مثقَّفُون، مُهذَّبون، فلتحاول أن تنال رضاهم!

وفي اليوم التالي، وبعد أن نظف ميركولوف الحُلَّة، دهن رأسه بالزيت وصفَّف شعره، ولفَّ البدلة في قطعة من قماش شيت جديد، وتوجَّه إلى النقيب.

وكان يستوقف كل من يقابله قائلًا: لا وقت عندي للكلام معك أيها الأحمق. ألا ترى أنني أحمل البدلة للنقيب؟

وبعد نصف ساعة عاد من عند النقيب.

واستقبلته أكسينيا وهي تبتسم ابتسامة عريضة، وقالت بخجل: مبروك المكسب يا تريفون بنتليفتش.

فأجابها زوجها: يا لك من حمقاء. أتظنين السادة الحقيقِيِّين يدفعون فورًا؟ ليسوا كالتجار الذين ما إن تعطيهم حتى يدفعوا فورًا. يا لك من حمقاء!

رقد ميركولوف يومين على الفرن ولم يشرب أو يأكل واستسلم لمشاعر الرضا عن النفس، تمامًا مثل هرقل بعد أن انتهي من تحقيق كل بطولاته. وفي اليوم الثالث ذهب ليحصل على النقود.

وقال هامسًا لجندي المراسَلة وهو يتسلل زاحفًا إلى المدخل: هل استيقظ صاحب المعالي؟

وعندما تلقى الإجابة بالنفي، وقف كالعمود بجوار الباب وراح ينتظر.

– اطرده من هنا! قل له يوم السبت.

سمع ميركولوف بعد انتظار طويل صوت النقيب الأبح.

وسمع نفس الشيء يوم السبت، وفي السبت الذي تلاه، وفي السبت الثالث ... شهرًا كاملًا قضاه في التردد على النقيب، والانتظار في المدخل ساعات طويلة، وبدلًا من النقود كان يحصل على دعوة بالذهاب إلى الشيطان والمجيء يوم السبت. ولكنه لم ييأس ولم يتذمَّر، بالعكس ... لقد سمن. أعجبه الانتظار الطويل في المدخل وكانت «اطرده من هنا» تنساب في أذنيه كاللحن العذب.

وعندما يعود إلى البيت من عند النقيب كان يقول بإعجاب: هذا هو السيد النبيل! عندنا في بيتر[١] كانوا كلهم كذلك.

وكان ميركولوف مستعدًّا حتى آخر أيام عمره أن يتردَّد على النقيب وينتظر في المدخل، لولا أكسينيا التي كانت تطالبه بإعادة النقود، ثمن البقرة.

كانت تلقاه كل مرة بالسؤال: هل جئت بالنقود؟ كلا. ما الذي تفعله بي أيها الوحش الكاسر؟ هه ... يا ميتكا، أين البشكور؟

وذات مساء كان ميركولوف عائدًا من السوق، حاملًا على ظهره جوال فحم، ومن خلفه سارت أكسينيا بعجلة، كانت تدمدم وهي تفكر في النقود ثمن البقرة: مهلًا! سوف أريك عندما نصل إلى البيت!

وفجأة توقف ميركولوف وتسمر في مكانه وصاح في فرح. فمن حانة «المرح» التي كانا يمران بجوارها، انطلق مندفعًا سيد ما في قبعة أسطوانية، بوجه أحمر وعينين ثملتين. وجرى خلفه النقيب أورتشايف بلا قبعة، مشعث الشعر والثياب وفي يده عصا البلياردو. وكانت حُلَّته الجديدة ملوثة بالطباشير، وإحدى الكتَّافيَّات قد مالت جانبًا.

وصاح النقيب وهو يلوح بجنون بالعصا، ويمسح العرق من جبينه: سأرغمك على اللعب أيها المحتال! سأعلمك أيها الغشاش كيف تلعب مع الشرفاء!

وهمس ميركولوف لزوجته وهو يلكزها في كوعها ويهأهئ: انظري يا حمقاء! هذا هو السيد النبيل. فالتاجر إذا فَصَّل لسحنته الفلاحية بدلة فإنها لا تبلى، يلبسها عشر سنين، أما هذا فانظري كيف جعل البدلة خرقة! ليس غريبًا لو احتاج لواحدة جديدة!

فقالت أكسينيا: اذهب واطلب منه النقود.

– ماذا تقولين يا حمقاء؟ في الشارع؟ لا يمكن أبدًا.

ورغم مقاومة ميركولوف فقد أرغمته زوجته على الذهاب إلى النقيب الهائج ومفاتحته في أمر النقود.

فأجابه النقيب: امشِ من هنا! أضجرتني!

– أنا فاهِم يا صاحب المعالي ... فاهِم ... أنا لا أريد ... لكن زوجتي ... حمقاء لا تفهم ... حضرتكم تعرفون أي عقل يمكن أن يكون في رأس هؤلاء النسوة.

[١] الاسم الدارج لمدينة بطرسبرج. (المُعَرِّب)

فزأر النقيب وهو يحملق فيه بعينين ثملتين زائغتين: قلتُ لك أضجرتني! امشِ من هنا.

– مفهوم يا صاحب المعالي، ولكن بخصوص زوجتي ... لأن النقود، إذا أردتم سيادتكم أن تعرفوا، هي نقود البقرة ... بِعنا البقرة للأب يهوذا.

– آه ... وتَجسُر على الكلام أيها الحشرة!

وطوح النقيب ذراعه و... طراخ! وتساقَط الفحم من على ظهر ميركولوف، ومن عينيه تطاير الشرار، ومن يديه سقطت القبعة ... وتملك الذهول أكسينيا. ووقفَت متصلِّبة حوالي دقيقة، مثل زوجة لوط عندما تحوَّلَت إلى عمود ملح، ثم خطَت إلى الأمام ونظرت بوجل إلى وجه زوجها ... ولدهشتها البالغة كان وجه ميركولوف يتهلَّل بابتسامة غبطة، بينما اغرورَقَت عيناه الضاحكتان بالدموع.

ودمدم: هؤلاء هم السادة الحقيقيون! أناس مُهذَّبون، مُثقَّفون ... بالضبط كما حدث ... وفي نفس المكان ... عندما حملت المعطف إلى البارون شبوتسيل، إدوارد كارليتش ... طوَّح بيده و... طراخ! والسيد الملازم زيمبولاتوف أيضًا ... جئتُ إليه فهَبَّ واقفًا وبكل قوَّته ... أوه راح ذلك الزمن يا زوجتي! أنتِ لا تفهمين شيئًا! راح زَمني! وأشاح ميركولوف بيده، ثم جمَع الفحم، ومضى إلى البيت.

المصيبة

يحمل الخرَّاط جريجوري بتروف، المعروف منذ زمن بعيد كأسطى رائع، وفي الوقت نفسه كواحد من أكثر الرجال ضلالًا في مقاطعة جالتشينسك كلها، زوجته العجوز المريضة إلى المستشفى المحلِّي. كان عليه أن يقطع حوالي ثلاثين فرسخًا، بينما الطريق فظيع لا يقوى عليه حتى حُوذِي البريد الحكومي، لا هذا الكسول، الخَرَّاط جريجوري؛ ففي الوجه مباشرة تضرب ريح حادة باردة، وفي الهواء، حيثما نظرتَ تُدِر سحب كاملة من نُدَف الثلج، حتى إن الناظر لا يعرف هل يسقط الثلج من السماء أم يصعد من الأرض. ومن خلف الضباب الثلجي لا يبين الحقل ولا أعمدة البرق ولا الغابة، وعندما تَهُب على جريجوري دفقة ريح قوية بشكل خاص لا يعود يرى حتى قوس الحصان. والفرس العجوز المتهالكة تجر قوائمها بالكاد. فقد تبدَّدَت كل طاقتها في سحب القوائم من الثلج العميق وفي هز الرأس. كان الخرَّاط مُتعجِّلًا. وراح يقفز فوق مقعده بقلق وينهال بالسوط كثيرًا على ظهر الفرس، وهو يدمدم: لا تبكي يا متريونا ... اصبري قليلًا. إن شاء الله نصل إلى المستشفى، وعلى الفور يذهب منك هذا الـ ... سيعطيك بافل إيفانيش قطرات، أو يأمر بحجمك، أو ربما يتفضَّل فيدلكونك بالكحول، وعندئذ يذهب عن جنبك هذا الـ ... سيبذل بافل إيفانيتش جهده، سيصيح بنا ويضرب الأرض بقدميه، لكنه سيبذل جهده ... إنه سيد عظيم، عطوف، ربنا يعطيه الصحة ... وعندما نصل سيخرج على الفور من مسكنه ويبدأ قبل كل شيء في السباب والصياح: «كيف؟ ما هذا؟ لماذا؟ لماذا لم تأتِ في الوقت المناسب؟ وهل أنا كلب حتى أضيع اليوم كله في مشاكلكم أيها الشياطين؟ لماذا لم تأتِ في الصباح؟ أمشِ من هنا! إياك أن تراك عيناي، تعالَ غدًا.»

فأقول له: «يا حضرة الدكتور! يا بافل إيفانيتش! يا صاحب السعادة!» هَيَّا سِيرِي، سِيرِي عليك اللعنة! هيا!

وينهال الخَرَّاط على الفرس، ودون أن ينظر إلى زوجته العجوز يستطرد وهو يدمدم لنفسه: «يا صاحب السعادة! الله شاهد على ما أقول ... بحق الصليب. لقد خرجتُ مع الفجر ... ولكن كيف تصل في الموعد إذا كان الرب ... قد غضب وأرسل هذه العاصفة؟ هأنتم ترون بأنفسكم ... حتى الفرس الأصيلة لا تقوى على السير، أما أنا فكما ترون ليس ما عندي فرسًا بل مصيبة!» فيعبس بافل إيفانيتش ويصيح: «أنا أعرفكم! دائمًا تجدون لكم مخرجًا! خاصة أنت يا جريشكا! أعرفك من زمان! تراك عرجت على الحانة خمس مرات!» فأقول له: «يا صاحب السعادة! هل تظنونني عربيدًا، أم كافرًا؟ العجوز تلفظ أنفاسها، تموت، وأنا أعرج على الحانات! ماذا تقولون؟ فليحل بها الخراب هذه الحانات!» عندئذ يأمر بافل إيفانيتش بنقلك إلى المستشفى. أما أنا فأرتمي على قدميه ... «يا بافل إيفانيتش! يا صاحب السعادة! نشكركم من صميم القلب! سامحنَا نحن الحمقى الملاعِين، لا تؤاخذْنَا نحن الفلاحين! نستحق منكم الطرد، وبدلًا من ذلك تهتمون بنا وتلوثون أقدامكم في الثلج.» وينظر بافل إيفانيتش إليَّ وكأنه يريد أن يضربني، ويقول: «بدلًا من الارتماء على قدميَّ كان من الأفضل، أيها الأحمق، ألا تشرب الفودكا، وتعطف على عجوزك. إنك تستحق الجلد!» عين الحقيقة يا بافل إيفانيتش، أستحق الجلد، إي والله أستحقه! وكيف لا نرتمي على قدميك إذا كنت راعينَا وأبانَا؟ يا صاحب السعادة! أقولك لكم الحق ... والله شاهد ... ابصقوا في عيني لو كنت أكذب عليكم: «بمجرد أن تشفى زوجتي متريونا، وتقف يعني على قدميها سأفعل كل ما أمرتم، جنابكم، به! لو أردتم صنعتُ لكم علبة سجاير من خشب البتولا الكاريلية ... أو كُرَات للكريكيت، وأستطيع أن أخرط كيلًا مثل الأجنبية بالضبط ... سأصنع من أجلكم أي شيء! ولن آخذ منكم كوبيكا! في موسكو يأخذون أربعة روبلات مقابل مثل هذه العلبة، أما أنا فلن أخذ كوبيكا.»

فيضحك الدكتور ويقول: «طيب، طيب ... مفهوم! إنما من المؤسف أنك سكير.» ... إنني أعرف يا أختي العجوز كيف أتعامل مع السادة، لا يوجد سيد لا أستطيع التفاهم معه، المهم أن يلطف ربنا ولا نضل الطريق، أوه يا للعاصفة! تعمي العيون!

ويمضي الخَرَّاط في دمدمته بلا توقف. يتحرك لسانه آليًّا لكي يُكبَت ولو إلى حد ما إحساسه المرهف. والكلمات على طرف اللسان كثيرة، ولكن الأفكار والتساؤلات في الرأس أكثر. لقد دهمَته المصيبة على غِرَّة، بلا توقُّع أو انتظار، وها هو ذا الآن لا يستطيع أن يفيق ويثوب إلى رشده ويفهم. كان يعيش حتى الآن بلا هموم، عيشة ساكنة، في غيبوبة ثملة، لا يدري ما الحزن وما الفرحة، وفجأة أصبح يحس الآن في صدره بألم رهيب. لقد وجد

هذا الكسول اللامكترث والسِّكِّير نفسه فجأة وبلا مقدِّمات في وضْع رجل مشغول، مهموم، مُتعجِّل، بل رجل يصارع الطبيعة.

ويذكر الخَرَّاط أن مصيبته بدأَت بالأمس مساء. فعندما عاد مساء الأمس إلى البيت، ثمِلًا كالعادة، وراح بحكم العادة القديمة يَسُب ويُلوِّح بقبضته، نظرَت العجوز إلى زوجها الهائج كما لم تنظر إليه أبدًا من قَبْل. كانت نظرة عينيها الهرِمَتين في العادة معذَّبة، مُستَكينة، كنظرة الكلب الذي يضربونه كثيرًا ويُطعمونه قليلًا، أما الآن فكانت نظرتها صارمة وثابتة كنظرة القِدِّيسِين في الأيقونات أو الأموات. ومن هاتين العينين الغريبتين اللتين لا تُبشِّران بخير بدأت المصيبة. وأسرع الخَرَّاط المصعوق إلى جارِه يسأله حصانه، وها هو ذا الآن يحملها إلى المستشفى، على أمل أن يعيد بافل إيفانيتش بمساحيقه ومَراهِمه إلى العجوز نَظْرَتها السابقة. ويدمدم الخراط: اسمعي يا متريونا ... إذا سألَكِ بافل إيفانيتش هل ضربتُك أم لا؟ فقولي: أبدًا ولن أضربك بَعْد.

أُقسِم لكِ بالصليب. وهل كنتُ أضربُكِ عَمدًا؟ أبدًا، هكذا، بلا داعٍ، أنا أعطف عليكِ يا متريونا. ولو كان غيري في مكاني لَما اهتم، أَمَّا أنا فها أنا ذا أَحمِلك ... وأبذُل جهدي. أوه، يا لها من عاصفة! حِكمَتك يا رب! اللهم الْطُف بنا حتى لا نَضلَّ الطريق ... ماذا؟ هل جَنبُك يؤلمك؟ لماذا لا تَردِّين يا متريونا؟ إنني أسألك: هل جَنبُك يؤلمك؟

ويبدو له غريبًا أن الثلج لا يذوب على وجه العجوز، والغريب أيضًا أن وجهها ذاته قد استطال بصورة خاصة واكتسَب لونًا رماديًّا شاحبًا عكرًا كالشمعة، وأصبح صارمًا، جادًّا.

ويدمدم الخراط: يا لكِ من حمقاء! أنا أُحدِّثك من صميم قلبي، يشهد الله، وأنتِ ... هذا ... يا لكِ من حمقاء! اسمعي وإلا فلن أحملك إلى بافل إيفانيتش!

ويُرخِي الخَرَّاط اللجام ويستغرق في التفكير. ولا يجرؤ على النظر إلى العجوز هذا مخيف! ومن المخيف أيضًا أن يوجه إليها سؤالًا فلا يَتلقَّى الجواب. وأخيرًا، ولكي يقطع الشك باليقين، يتلمَّس ذراع العجوز الباردة دون أن يلتفت إليها. وتسقط الذراع المرفوعة كجلدة السوط.

– إذن فقد ماتت! يا للمصيبة!

ويبكي الخراط. لا من الأسى بقدر ما هو من الحنق. ويفكر: ما أسرع ما يجري كل شيء في هذه الدنيا! ما إن بدأت مُصيبَته حتى حلَّت النهاية.

لم يكد يعيش مع عجوزه، ويصارحها بما في قلبه، ويعطف عليها حتى ماتت ... لقد عاش معها أربعين عامًا، ولكن هذه الأعوام الأربعون مرَّت وكأنها مُلفَّعة بالضَّباب. ومن خلف سُحب السُّكْر والعِراك والفَاقَة لم يكن ثَمَّة إحساس بالحياة. وكأنما نكاية به ماتت العجوز في تلك اللحظة التي أَحس فيها أنه يعطف عليها، ولا يقوى على العيش بدونها، ومخطئ في حقها بصورة رهيبة.

ويتذكر الخراط: لقد كانت تَتسوَّل! أنا الذي أرسلتُها تسأل الناس خبزًا، ياللمصيبة. هذه الحمقاء كان ينبغي أن تعيش عشر سنوات أخرى، وإلا فربما تظن أنني هكذا بالفعل. يا إلهي، إلى أي شيطان أمضي الآن؟ ينبغي الآن دَفنُها لا علاجها. هيا، دُورِي!

ويدير الخَرَّاط الزحَّافة عائدًا بها، وينهال بكل قُوَّته على الفرس بالسَّوط. ومع كل لحظة يزداد الطريق سوءًا. الآن لم يَعُد قوس الحصان مرئيًّا على الإطلاق. وأحيانًا تدوس الزَّحَّافة على شجرة شوح صغيرة، فيخدش هذا الشيء المظلم أيدي الخراط، ويمرق أمام عينيه، ثم يُصبح مَجال الرؤية من جديد أبيض مدوَّمًا.

ويفكر الخراط: «آه لو تبدأ الحياة من جديد!»

ويتذكَّر أن متريونا كانت منذ أربعين عامًا شابَّة جميلة مَرِحة، من بيت غني. وقد زوَّجُوها منه؛ إذ أغرَتْهُم مهارته كأسطى، وكانت كل المقوِّمات متوفِّرة لحياة طيبة، ولكن المصيبة أنه منذ أن شرب حتى ثَمِل بعد حفلة العُرس، وتمدَّد فوق الفرن، كأنما لم يستيقظ حتى الآن. إنه يذكر حفلة العُرس، أما ما حدَث بعد العُرس فلا يذكر منه شيئًا على الإطلاق، اللهم إلا أنه كان يشرب ويرقد ويتعارك. وهكذا ضاعت الأعوام الأربعون.

وتبدأ السُّحب الثلجية البيضاء في التحوُّل شيئًا فشيئًا إلى اللون الرمادي. ويحل الغسق.

وفجأة يستدرك الخراط: إلى أين أنا ذاهب؟ ينبغي دَفنُها بينما أذهب بها إلى المستشفى ... كأنما جُنِنتُ!

ويدير الخَرَّاط الزَّحَّافة مرة أخرى، وينهال من جديد على الفرس، وتستجمع الفرس كل قواها، وتَركُض بخَبَب قصير وهي تشخر. ويضربها الخَرَّاط بالسوط على ظهرها المرة تلو المرة ... ومن خلفه تَتردَّد دقَّات ما، ورغم أنه لا يَتلفَّت إلا أنه يعرف أن ذلك صوت ارتطام رأس المرحومة بالزَّحَّافة. بينما الجو يزداد ظلامًا، وتصبح الريح أكثر حِدَّة وبرودة.

ويفكر الخراط: «لو تبدأ الحياة من جديد ... لحصلتُ على عِدَّة جديدة، ولتَلقَّيت الطلبات ... ولأعطيت النقود للعجوز ... نعم!»

وها هو يفلت اللجام من يديه. ويبحث عنه، ويريد أن يرفعه، ولكنه لا يستطيع؛ يداه لا تستجيبان له.

ويفكر: «سِيَّان ... ستمضي الفرس بنفسها، فهي تعرف الطريق ... فلأنم قليلًا ... فإلى أن تحين الجنازة والقدَّاس، فلأنم قليلًا».

ويغمض الخَرَّاط عينيه وينعس. وبعد قليل يسمع أن الفرس توقَّفَت. ويفتح عينيه فيرى شيئًا مظلمًا يشبه المنزل أو كوم الدريس.

ومن المفروض أن ينزل من الزَّحَّافة ليعرف ما الأمر، ولكن خدرًا شديدًا يستولي على جسده كله، حتى إنه يفضل أن يتجمَّد على أن يتحرك من مكانه ... ويغيب في سُبات قرير.

ويستيقظ في غرفة كبيرة، بجدران مُطلِيَّة. من النوافذ ينساب ضوء الشمس الساطع. ويرى الخَرَّاط أمامه أناسًا، وأول ما يفكر فيها أن يبدو أمامهم رجلًا رزينًا، حصيفًا، فيقول: ينبغي إقامة قُدَّاس العجوز يا إخوان! فلتخبروا أبانا.

ولكن صوتًا ما يقاطعه: طيب طيب! ارقد.

فيدهش الخَرَّاط حين يرى الدكتور أمامه: يا مولانا! بافل إيفانيتش! يا صاحب السعادة! يا راعينا!

ويود أن يقفز ويرتمي على قَدمي الطبيب، ولكنه يشعر أن ساقيه ويديه لا تستجيب له.

– يا صاحب السعادة! أين ساقاي؟ أين يداي؟

– ودِّع يديك وساقيك ... تجمَّدت! مهلًا مهلًا ... لِمَ تبكي؟ عشت حياتك فاحمد الله، تراك عشت ستين سنة ... يكفيك هذا!

– مصيبة! ... مصيبة يا صاحب السعادة! أرجوك المعذرة والسماح! لو خمس أو ست سنوات أخرى.

– لماذا؟

– الفرس ليست لي، يجب أن أَردَّها ... وأدفن العجوز ... ما أسرع ما يجري كل شيء في هذه الدنيا! يا صاحب السعادة! بافل إيفانيتش! علبة سجاير ممتازة من خشب البتولا الكاريلية! كُرة كريكيت أخرطها ... ويشيح الدكتور ويخرج من الغرفة ... وعلى الخَرَّاط السلام!

جهاز العروس

رأيت في حياتي بيوتًا كثيرة، كبيرة وصغيرة، حجرية وخشبية، قديمة وجديدة، ولكنَّ واحدًا منها هو الذي انطبع في ذاكرتي بصفة خاصة. كان منزلًا صغيرًا، من طابق صغير واحد وثلاث نوافذ، يشبه إلى حدٍّ كبير عجوزًا حدباء صغيرة بقلنسوة. كان مطليًّا بالجير الأبيض، بسطح قرميدي ومِدخَنة متساقِطة الطِّلاء، وكان غارقًا كله في خضرة أشجار التوت والأكاسيا والحور التي غرسَها أسلاف وأجداد أصحابه الحاليين.

لم يكن يُرَى من وراء الخضرة. وعمومًا فلم تمنعه وَفْرَة الخضرة هذه من أن يكون بيتًا حضَريًّا. ويقف فِناؤه الواسع في صَف واحد مع الأفنية الأخرى، الواسعة والخضراء أيضًا، ويدخل في نطاق شارع موسكو فسكايا. وفي هذا الشارع لا تَمرُّ العربات أبدًا، ومن النادر أن يسير به أحد.

وشيش النوافذ في هذا البيت مُغلَق دائمًا؛ فسُكَّانه لا يحتاجون إلى الضوء، إنهم في غنى عنه. والنوافذ لا تفتح أبدًا؛ لأن سُكَّان البيت لا يُحبُّون الهواء المنعِش. فالناس المقيمون دائمًا وسط أشجار التوت والأكاسيا وأحراش الأرقطيون لا مبالون تجاه الطبيعة؛ المُصطافون وَحدَهم هم الذين حَبَاهم الله القدرة على فَهْم جمال الطبيعة، أما بَقيَّة البشرية فَتغُط في جهل عميق فيما يخص هذا الجمال. لا يُقدِّر الناس ما لديهم من ثروة. ما نملكه لا نحافظ عليه، بل والأكثر من ذلك أن ما تملكه اليد تزهَد فيه النفس. وحول المنزل جنة دنيوية: خضرة، وطيور مُغرِّدة، أما في المنزل فيا للأسف! في الصيف يكون الجو فيه قائظًا خانقًا، وفي الشتاء حارًّا كما في الحمام، مكتومًا، ومملًّا، مملًّا.

زرتُ هذا المنزل أول مرة منذ زمن بعيد، زيارة واجب … فقد جئت حاملًا التحية من صاحب البيت العقيد تشيكماسوف إلى زوجته وابنته، وأذكر جيدًا تلك الزيارة الأولى؛ إذ يستحيل أن أنساها.

تَصوَّروا امرأة صغيرة رخوة، في حوالي الأربعين، تنظر إليك برعب ودهشة وأنت تدلف من المدخل إلى الصالة؛ فأنت «غريب»، ضيف، «شاب» ... وفي هذا الكفاية لكي تثير الدهشة والرعب. وليس في يدك هراوة أو فأس أو مسدس بل تبتسم بوُدٍّ، ولكنهم يلقونك بارتياب.

وتسألك بصوت مُتهَدِّج امرأة كهلة، فتعرف صاحبة البيت تشيكماسوفا: من الذي يُشرِّفُني ويسرُّني أن أراه؟

فتقول مَن أنتَ، وتشرح سبَب مجيئك، فتحل صيحة «آه» الفرحة المدوية واتساع العيون مَحل الرعب والدهشة. وتنتقل هذه الـ«آه» كالصَّدى من المدخل إلى الصالة، ومن الصالة إلى غرفة الجلوس، ومن غرفة الجلوس إلى المطبخ ... وهكذا حتى القبو نفسه. وسرعان ما يمتلئ البيت الصغير «بالآهات» الفَرِحة المتعدِّدة النبرات. وبعد حوالي خمس دقائق تجد نفسك جالسًا في غرفة الجلوس، على كنبة كبيرة وثيرة ساخنة، وتسمع شارع موسكوفسكايا وقد راح يَتأوَّه كله.

فاحت رائحة مسحوق العثَّة وحذاء جديد من جلد العنز كان ملفوفًا في مِنديل وموضوعًا على مقعد بجواري. وعلى النوافذ نبات الجيرانيوم وستائر حقيرة من قماش الموسلين، وعليها ذباب شبعان، وعلى الحائط صورة مطران مرسومة بالزيت ومُغطَّاة بزجاج إحدى زواياه مكسورة. ومن المطران يَمتدُّ عدد من الأجداد بوجوه غَجرِيَّة صفراء ليمونية. وعلى الطاولة كستبان وبكرة خيط وجورب حريمي لم تكتمل حِياكته، وعلى الأرض بترونات تفصيل وبلوزة سوداء بخيوط تسريج. وفي الغرفة المجاوِرة امرأتان عجوزان بدَا عليهما الاضطراب والذُّهول وهما تلتقطان من الأرض البترونات وقِطع الأقمشة القُطنية.

وقالت تشيكماسوفا: عفوًا عندَنا فوضى فظيعة!

كانت تشيكماسوفا تتحدَّث معي وهي تَتطلَّع شزرًا وبحرج إلى الباب الذي كانوا لا يزالون خلفه يرفعون البترونات. وكان الباب أيضًا تارة ينفرج بِحرَج مقدار شبر، وتارة يوصد.

وقالت تشيكماسوفا مخاطبة الباب: حسنًا، وماذا تريدين؟

فسأل صوت نسائي من وراء الباب:

– Ou est mon cravatte, lequel mon père m’avait envoyé de koursk?[١]

---

[١] أين رابطة عنقي التي أرسلها لي أبي من كورسك؟ «بالفرنسية في الأصل». (المُعَرِّب)

– Ah, est ce que, Marie, que.[٢]

– آه، هل يمكن؟

– nous avons donc chez nous un homme très peu connu parnous.[٣]

اسألي لوكيريا.

وقرأت في عيني تشيكماسوفا المتضرجتين من المتعة: «انظر كيف نتحدَّث الفرنسية جيدًا».

وسرعان ما فُتِح الباب فرأيتُ فتاة طويلة نحيلة، في حوالي التاسعة عشرة، في فستان طويل من الموسلين وحزام مُذهَّب، أذكر أنه كانت تتدلَّى منه مروحة صدَفِيَّة. دخلت الغرفة، وجلست وتضرجت. في البداية تضرج أنفها الطويل المجدور قليلًا، ومن أنفها انتقلت الحمرة إلى عَينَيها، ومن عَينَيها إلى صُدغيها.

وقالت تشيكماسوفا بصوت مُنغَّم: ابنتي! وهذا يا مانيتشكا هو الشَّاب الذي.

وتعرَّفتُ بها وأعربتُ عن دهشتي بصدد البترونات الكثيرة. وخفضَت الأم وابنتها بَصرَهما.

وقالت الأم: في عيد الصعود أُقيمَت هنا سوق. ونحن دائمًا نشتري من السوق قماشًا، ونقضي السنة كلها في خياطته حتى السوق التالية. إننا لا نخيط عند أحد أبدًا. فزوجي بيوتر سيميونتش لا يكسب كثيرًا؛ لذلك لا نسمح لأنفسنا بالبذَخ، نضطر إلى الخياطة بأنفسنا.

– ولكن من لديكم يلبس كل هذه الثياب؟ ألستما اثنتين فقط؟

– آه ... وهل هذا يمكن لبسه؟ هذا ليس للبس! إنه جهاز العروس!

فقالت الابنة وهي تتضرج: آه يا maman ماذا تقولين؟ حضرتُه قد يظن بالفعل ... لن أتزوَّج أبدًا! أبدًا!

قالت ذلك، بينما توقَّدت عيناها وهي تنطق كلمة «أتزوج».

ثم جاءوا بالشاي والخبز المُقدَّد والمُربَّى والزبد، وبعد ذلك أطعموني تُوت العليق بالقشدة. وفي الساعة التاسعة مساءً قدَّموا العشاء من ستة أطباق. وفي أثناء العشاء

---

[٢] آه، هل يا ماريا ... «بالفرنسية في الأصل». (المُعَرِّب)

[٣] عندنا شخص لا نعرفه إلا قليلًا جدًّا جدًّا ... «بالفرنسية في الأصل». (المُعَرِّب)

سمعت تثاؤبًا عاليًا ... ففي الغرفة المجاوِرة تثاءَب أحد ما بصوت عالٍ، ونظرت إلى الباب بدهشة، إذ لا يمكن أن يتثاءب هكذا إلا رجل.

وأوضحت تشيكماسوفا وقد لاحظَت دهشتي: هذا أخو بيوتر سيميونتش ... يجور سميونتش ... إنه يعيش معنا من العام الماضي. اعذره، فهو لا يستطيع الخروج لِمقابلتِك ... إنه خجول يتجنَّب الغرباء ... ينوي الاعتزال في دير ... أساءوا إليه في الخدمة ... ولهذا قرر من الأسى.

وبعد العشاء أَرَتنِي تشيكماسوفا وِشاحًا طرَّزه يجور سيميونتش بنفسه؛ لكي يتبرع به للكنيسة. وطرحت مانيتشكا عنها الخجل لحظة وأَرَتنِي كيس تبغ طرَّزَته لأبيها. وعندما تظاهرت بأنني مبهور بمهارتها تضرجت وهمست في أذن أمها بشيء ما. فتهلَّلَت أسارير الأم وعرضَت عليَّ أن أذهب معها إلى غرفة المخزن. وهناك رأيت حوالي خمسة صناديق كبيرة وكثرة من الصناديق الصغيرة والعُلب.

وهمست لي الأم: إنه ... جهاز العروس! خيَّطنَاه بأنفسنا.

وبعد أن تفرَّجتُ على هذه الصناديق الجهمة رحتُ أُودِّع أصحاب الدار الكرماء وأخذوا عليَّ عهدًا بأن أزورهم مرة أخرى في وقت ما.

وقد وفَّيتُ بعهدي هذا بعد حوالي سبع سنوات من زيارتي الأولى، عندما أُرسِلت إلى هذه المدينة كخبير قانوني في إحدى القضايا. وعندما دَلفتُ إلى البيت المألوف سمعتُ نفس الآهات ... وعَرفُوني ... وكيف لا؟ لقد كانت زيارتي الأولى حدثًا كبيرًا في حياتهم؛ وحيث تكون الأحداث قليلة تبقى في الذاكرة طويلًا. وعندما دخلتُ قاعة الجلوس رأيتُ الأم، لقد أصبحَت أكثر بدانة وابيضَّ شعرها، تزحَف على الأرض وهي تفصِّل قماشًا أزرق، وكانت الابنة جالسة على الكنبة تطرِّز. نفس البترونات، ونفس رائحة مسحوق العثَّة، ونفس اللوحة بزاويتها المكسورة. ومع ذلك كان هناك بعض التغيير، فَبِجوار صورة المطران عُلِّقت صورة بيوتر سيميونتش، وارتدت السيدات ثياب الحِدَاد؛ لقد مات بيوتر سيميونتش بعد أسبوع من ترقيتِه إلى رتبة جنرال.

وبدأت الذكريات ... وأجهشَت زوجة الجنرال وهي تقول: حلَّت بنا فاجعة كبيرة! بيوتر سيميونتش: هل تعلم؟ لم يَعُد على قيد الحياة. أصبَحْنَا أنا وهي يتيمتيْن، وعلينا أن نُعنَى بشئوننا بأنفسنا. أما يجور سيميونتش فلا نستطيع أن نقول عنه أي شيء طيب؛ لم يَقبَلوه في الدير بسبب ... مشروباته القوية، والآن أصبح يشرب أكثر من جَرَّاء الحُزن، إنني أنوي الذهاب إلى رئيس النبلاء للشكوى، تصور! إنه فتح الصناديق عِدَّة مرات و... استولى

على جهاز مانيتشكا وتبرَّع به للسائِلين، بدَّد محتويات صندوقَين! وإذا استمرَّ الحال هكذا فستبقى ابنتي مانيتشكا بدون جهاز على الإطلاق.

فقالت مانيتشكا وهي تشعر بالخجل: ماذا تقولين يا maman؟ حضرَتُه قد يتصوَّر، الله يعلم ماذا ... أنا لن أتزوَّج أبدًا، أبدًا!

وتطلَّعَت مانيتشكا إلى السَّقف بإلهام وأمل، ويبدو أنها لم تكن تؤمن بما تقوله.

وفي المدخل مَرَق ظِل لرجل صغير بصلعة كبيرة وفي سُترة بُنِّية، يَنتعِل خُفًّا بدلًا من الحذاء، وخشخش هناك كالفأر.

وقلت لنفسي: «لا بد أنه يجور سيميونتش».

ونظرتُ إلى الأم وابنتها معًا ... لقد هَرِمَتا كلتاهما بشدة وهَزلتا. وتمَّوج رأس الأم بلون فِضِّي، أما ابنتها فانطفأ لونها وذبلت، وبدا وكأن الأم لا تكبرها إلا بخمس سنوات لا أكثر.

– إنني أنوي الذهاب إلى رئيس النبلاء، قالت العجوز وقد نسيت أنها تحدثت عن ذلك من قبل؛ أريد أن أشتكي له! يجور سيميونتش يستولي منها على كل ما نخيطه، ويتبرَّع به في مكان ما للتكفير عن ذنوبه، ابنتي مانيتشكا أصبحَت بدون جهاز!

وتضرَّجَت مانيتشكا ولكنها لم تَنْبِس بكلمة.

– نضطر إلى خياطة كل شيء من جديد، ونحن والله يعلم لسنا أغنياء. أنا وهي يتيمتان!

ورددت مانيتشكا: نحن يتامى!

في العام الماضي ألْقَت بي المقادير مرة أخرى إلى البيت المعهود وعندما دلفتُ إلى غرفة الجلوس رأيتُ العجوز تشيكماسوفا، كانت جالسة على الكنبة تخيط شيئًا ما، وكانت ترتدي فستانًا أسود بحواشي الحِداد، وجلس بجوارها رجل عجوز في سُترة بُنِّية وخُف بدلًا من الحذاء، وعندما رآني قفز واقفًا وركض خارجًا من الغرفة.

وابتسمَت العجوز ردًّا على تحيتي وقالت:

– je suis charmée de vous revoir, monsieur.[٤]

وسألتُها بعد قليل: ماذا تخيطين؟

[٤] سعيدة جدًّا برؤيتكم ثانية يا سيدي «بالفرنسية في الأصل». (المُعَرِّب)

فقالت هامسة: هذا قميص. سأخيطه وأحمله إلى أبينا لأخبئه عنده، وإلا أخذه يجور سيميونتش. أصبحت الآن أخبئ كل شيء عند أبينا.

ثم نظرَت إلى صورة ابنتها الموضوعة أمامها على الطاولة، وتنهَّدَت ثم قالت: إننا يتامى!

ولكن، أين ابنتها؟ أين مانيتشكا؟ لم أسألها. لم أشأ أن أسأل هذه العجوز المجلَّلة بسواد الحِداد. وطوال مكوثي في البيت وفي أثناء انصرافي لم تخرج مانيتشكا للقائي، ولم أسمع صوتها ولا خطواتها الخافتة الوجلة ... كان كل شيء واضحًا، وتملكني انقباض شديد.

دموع لا يراها العالِم

– آه يا سادة يا كرام لو نتعشَّى الآن.

قال القائد العسكري المُقدَّم ريبروتيوسوف، وهو رجل طويل نحيف كعمود البرق، وكان خارجًا من النادي مع جماعة من أصحابه ذات ليلة مُظلِمة من شهر أغسطس. ومضى يقول: في المدن المحترَمة، مثل ساراتوف، يمكنك دائمًا أن تتعشى في النادي، أما هنا، في مدينتنا العفنة تشيرفيانسك، فبخلاف الفودكا والشاي بالذُّباب لا تحصل على شيء. ليس هناك ما هو أسوأ من أن تشرب ولا تجد ما تَمُز به!

– نعم، لا بأس الآن بشيء ما، هكذا يعني — أمَّن مُفتِّش المعهد الديني إيفان أيفانيتش دفويتوتشيف وهو يلتَفُّ بمعطفه الأصفر اتقاءً للريح — الساعة الآن الثانية، والحانات مُغلَقة، آه لو يَعني فسيخة مُملَّحة ... أو فُطر مُخلَّل ... أو يعني شيئًا ما هكذا.

وحَرَّك المفتِّش أصابعه في الهواء ورسم على وجهه أكلة، يبدو أنها شهية جدًّا؛ لأن كل من نظروا إلى وجهه لَعقوا شفاهم. وتوقَّفَت الجماعة عن السَّير وأخذت تُفكِّر، وفكَّرَت طويلًا، ولكن تفكيرها لم يَتفتَّق عن شيء يُؤكَل. واضطُرَّت إلى الاكتفاء بالأحلام فقط.

وتنهد نائب مأمور المركز بروجينا-بروجينسكي وقال: يا لَه مِن ديك رومي عظيم ذلك الذي أكلتُه بالأمس عند جولوبيسوف ... بالمناسبة يا سادة، ألَم يزُرْ أحد منكم وارسو؟ هناك يفعلون هكذا ... يأخذون سمك الشَّبُّوط العادي، وهو حي ... يَتلوَّى، ويُلقُون به في اللبن ... ويَظل هذا الوغد يَعوم في اللبن يومًا، وبعد ذلك يَغمِسونه في القِشدَة ويَقلُونه في مقلاة تُطشطِش ... وعند ذلك لا حاجة يا أخي لأناناسك! إي والله ... خاصة إذا شربت كأسًا أو كأسين ... تأكل ولا تحس، كأنك في غيبوبة ... الرائحة وَحدَها تجنن!

فأردف ريبروتيوسوف بنبرة مشاركة قلبية: فإذا أضفت إليه خيارًا مملَّحًا ... عندما كنَّا مُعسكرِين في بولندا كان يحدث أن تحشر في جوفك حوالي المائتين من البيلميني مرة واحدة ... تملأ بها طبقًا كاملًا وترُش عليها الفُلفل والشَّبَت والبَقدونس و... لا أستطيع أن أُعبِّر لكم!

وتوقف ريبروتيوسوف فجأة واستغرق في التفكير؛ تَذكَّر حساء السمك الذي أكله عام ١٨٥٦م في دير الثالوث الأقدس، وكانت ذكرى هذا الحساء لذيذة إلى درجة أن القائد العسكري شَم فجأة رائحة السمك وحرَّك فكَّيه لا إراديًّا ولم يلحظ تَسرُّب الوحل إلى خلف حذائه.

وقال: كلا، لا أستطيع، لا أستطيع أن أصبر أكثر!

سأذهب إلى البيت وأُمتِّع نفسي، اسمعوا يا سادة، فلتأتوا معي! إي والله! لنشرب كأسًا، ونمُز بما رزقَنا به الله؛ خيار، مرتدلة ... ونشعل السماور ... هه؟ لِنَمُز، ونتحدث عن الكوليرا، ونتذكر ما مضى ... زوجتي نائمة الآن، لن نوقِظها ... سنجلس في هدوء ... هيا بنا!

ولا حاجة لوصف الإعجاب الذي قُوبل به هذا العرض. يكفي فقط أن أقول إنه لم يكن لدى ريبروتيوسوف في أي وقت مضى مثل هذه الكثرة من الخيِّرِين كما كان لديه في هذه الليلة.

– سأقطع أذنيك.

قال القائد العسكري لجندي المراسلة وهو يدخل بالضيوف إلى غرفة الجلوس المظلمة: قلتُ لك ألف مرة يا حيوان أن تُشعل البخور عندما تنام في المدخل، اذهب يا غبي وأشعل السماور، وقُل لإيرينا أن تحضر الـ ... أن تحضر من القبو خيارًا وفِجلًا ... ونظِّف بعض الفسيخ ... وقطِّع البطاطس دوائر ... والبنجر أيضًا ... وكُلُّ هذا صُبَّ عليه الخل والزيت، يعني، والمسطردة أيضًا ... ورُشَّ الفلفل فوقه ... باختصار طَبَق مَزَّة ... مفهوم؟

وحرَّك ريبروتيوسوف أصابعه مصوِّرًا الخلطة، وأضاف إلى المَزَّة بتعابير وجهه ما لم يستطع أن يضيفه بالكلمات ... وخلَع الضيوف أخفافهم ودَلفوا إلى القاعة المظلِمة. وأشعل صاحب البيت عود ثقاب ففاحت رائحة الكبريت، وأضاء الجدران المزيَّنة بهدايا مجلة «نيفا» ومناظر البندقية وصورتَين للكاتب لاجيتشنيكوف وجنرالٍ ما بعينين مدهوشتين للغاية.

– حالًا، حالًا، همس ربُّ الدار وهو يوسع المنضدة بهدوء، سأَعُد المائدة ثم نجلس ... ماشا زوجتي مريضة اليوم ... أرجو المعذرة إذن ... عندها مرض نسائي ما ... الدكتور

جوسين يقول إن ذلك بسبب أكل الصيام ... جائز جدًّا! ولكني أقول لها: «يا روحي، ليست المسألة في الأكل! ليست المسألة فيما يدخل الفم بل فيما يخرج من الفم ... فأنت تأكلين أكل الصيام ولكنك عصبية كما كنت ... وبدلًا من أن تتعبي جسدك، الأفضل ألا تغضبي، وألا تتفوهي بكلمات ...»، ولكنها لا تريد حتى أن تسمع! تقول: «لقد تعودنا على ذلك منذ الصغر.»

ودخل جندي المراسلة، ومَدَّ عنقه وأسرَّ بشيء ما في أذن رب الدار ... ولعَّب ريبروتيوسوف حاجبيه.

ودمدم بصوت كالخوار: هم ... نعم ... هم ... هكذا ... عمومًا بسيطة ... حالًا سأعود ... دقيقة واحدة ... ماشا أوصدت القبو والخزائن في وجه الخدم وأخذت المفاتيح. ينبغي أن أذهب لإحضارها.

وصعد ريبروتيوسوف على أطراف أصابعه، وفتح الباب بهدوء، ودخل على زوجته ... كانت نائمة.

وقال وهو يقترب بحذر من السرير: يا ماشا! استيقِظي دقيقة واحدة يا ماشا!

– من؟ أهو أنت؟ ماذا تريد؟

– أنا ياماشنكا بخصوص الـ ... أعطني يا مَلاكي المفاتيح ولا تقلقي ... نامي مطمئِنَّة ... سأهتم أنا بهم ... سأعطي كلًّا منهم خيارة، ولن أُبدِّد أكثر من ذلك شيئًا ... أقسم لك ... هناك دفويتوتشيف، أتدرين، وبروجينا-بروجينسكي ... وآخرون ... كلهم أشخاص رائعون ... مُحترَمون في المجتمع ... أتدرين أن بروجينسكي يحمل وسام فلاديمير من الطبقة الرابعة؟ أوه، كم يحترمك!

– أين سكرت إلى هذا الحد؟

– ها أنت ذي تغضبين ... يا سلام عليك ... سأعطي كلًّا منهم خيارة، وهذا كل شيء ... وسينصرفون ... أنا سأهتم بهم ولن نزعجك أبدًا ... نامي يا لعبتي ... هه، وكيف صحتك؟ هل جاء جوسين في غيابي؟ انظري، ها أنا ذا أُقبِّل يدك ... والضيوف كلهم يحترمونك ... دفويتوتشيف رجل مُتديِّن، أتدرين ... وبروجينا، والصرَّاف أيضًا ... كلهم يُكنُّون لك أطيب المشاعر ... يقولون: «ماريا بتروفنا ليست امرأة، بل شيء عسير على الفهم ... إنها كوكب إقليمنا.»

– ارقد! كفاك هذرًا! يَسكر هناك في النادي مع صعاليكه ثم يروح يغلي طول الليل! ألا تخجل؟ عندك أولاد!

– أنا ... عندي أولاد، ولكن أرجوك ألا تغضبي يا ماشا ... لا تحزني ... إنني أقدرك وأحبك ... والأولاد إن شاء الله سأدبر أمورهم؛ ميتيا سأدخله المدرسة ... لا أستطيع أن أطردهم ... لا يليق ... جاءوا ورائي وطلبوا أن يتعشوا، قالوا: «نريد أن نأكل، أطعمنا» ... دفويتوتشيف، وبروجينا-بروجينسكي ... ناس ظرفاء جدًّا ... كم يُقدِّرونك ويعطفون عليك ... فلنعطِ كلًّا منهم خيارة وكأسًا، وليمضوا في سبيلهم أنا سأتكفَّل بهم.

– اللعنة! ماذا؟ هل جننتَ؟ أي ضيوف في هذه الساعة؟ ألا يخجلون، هؤلاء الشياطين المتسولون، يزعجون الناس في الليالي؟ مَن سمع بضيوف يأتون في الليل؟ هل يظنون بيتنا حانة؟ سأكون حمقاء لو أعطيتك المفاتيح! فليفيقوا وليعودوا غدًا!

– هم ... هلا قلت هذا من البداية؟ إذن لما تذللتُ أمامك ... إذن فأنتِ لست بشريكة العمر، لستِ سلوى زوجك كما جاء في الكتاب، بل ... من العيب أن أقول ... كنتِ أفعى وظللتِ أفعى.

– آه ... وتشتم أيضًا يا وغد؟!

ونهضتِ الزوجة و... حكَّ القائد العسكري خده، ومضى يقول: ميرسي ... صحيح ما قرأتُه في إحدى المجلات: «بين الناس قديس، ومع زوجها إبليس.» ... عين الحقيقة ... كنتِ إبليس، وظللتِ إبليس.

– خذ، خذ!

– اضربي، اضربي ... اضربي زوجك الوحيد! ولكني أرجوك، أتوسَّل إليك يا ماشا ... سامحيني! أعطِني المفاتيح! ماشا يا مَلاكي! يا مُعذِّبَتي الشريرة، لا تفضحيني أمام الناس! أيتها المتوحِّشة، إلى متى ستعذبينني؟ اضربي ... اضربي ... أرجوك ... بل أتوسَّل إليك!

واستمر حديث الزوجين بهذه الصورة طويلًا ... ركع ريبروتيوسوف على ركبتيه، وبكى مرتين، وسب وهو يحك خده بين الحين والحين ... وانتهى الأمر بأن نهضَت زوجته وبصقت وقالت: يبدو لن تكون نهاية لعذابي! أعطني فستاني من على المقعد أيها الكافر!

وقدَّم لها ريبروتيوسوف الفستان بحرص، وسوَّى شعره، وذهب إلى ضيوفه. كان الضيوف واقفِين أمام صورة الجنرال يتطلعون إلى عينيه المندهشتين وهم يُقرِّرون مسألة: مَن الأكبر؛ الجنرال، أم الكاتب لاجيتشنيكوف؟ وكان دفويتوتشيف في صف لاجيتشنيكوف، مشددًا على الخلود، أما بروجينسكي فقد قال: بالطبع هو كاتِب جيد، لا شك في هذا ... ويكتب فيثير الضحك والشفقة، ولكن لو أرسلتَه إلى الجبهة فلن يستطيع قيادة حتى سَرية، أما الجنرال فلتعطه ولو فيلقًا كاملًا، لن يهمه.

وقال رب الدار وهو يدخل مقاطعًا: زوجتي ماشا ستأتي الآن ... حالًا.

– لقد أزعجناكم حقًّا ... يا فيودر أكيميتش، ماذا حدث لخدِّك؟ يا إلهي، وتحت عينك كدمة! أين حصلت على هذا؟

فقال رب الدار محرَجًا: خَدِّي؟ أين خدي؟ آه، نعم ... لقد ذهبتُ الآن إلى ماشا متسللًا، أردتُ أن أخيفها، وإذا بي أصطدم في الظلام بالسرير! ها ... ها ... ها هي ذي ماشا ... أوه كم أنت مُشعثة يا عزيزتي! مثل لويزا ميشيل تمامًا!

دخلت ماريا بتروفنا إلى القاعة، مشعثة الشعر، ناعسة، ولكنها متهلِّلة ومرحة. وقالت: هذا لطيف منكم إذ جئتم إلينا! إذا كنتم لا تأتون إلينا في النهار فشكرًا لزوجي الذي جاء بكم ولو ليلًا. كنت نائمة، وإذا بي أسمع أصواتًا ... فقلتُ لنفسي: «يا ترى من هؤلاء؟» ... لقد أمرني فيديا أن أرقد وألا أخرج، ولكني لم أُطِق.

وهرولت الزوجة إلى المطبخ وبدأ العشاء.

وعندما خرجوا بعد ساعة من دار القائد العسكري قال بروجينا-بروجينسكي وهو يَتنهَّد: ما أطيب أن تكون متزوجًا! تأكل عندما تريد، وتشرب وقتما تشاء ... وتعلم أن هناك مخلوقًا يُحبُّك ... ويلعبُ لك على البيانو شيئًا ما، هكذا ... ما أسعد ريبروتيوسوف!

أما دفويتوتشيف فلَزِم الصمَت. كان يَتنهَّد ويفكر، وعندما وصل إلى البيت وراح يخلع ملابسه، تَنهَّد بصوت عالٍ حتى إنه أيقظ زوجته.

– لا تَدقَّ بحذائك أيها الرحى! قالت زوجته: تمنعني من النوم. يشرب حتى السكر في النادي ثم يثير الضجة، هذا المَسخ!

فتنهد المفتِّش قائلًا: لا تعرفين سوى السُّباب! لو أنك رأيتِ كيف يعيش آل ريبروتيوسوف! ما أروع حياتهم! عندما ينظر المرء إليهم يود لو يبكي من التأثُّر، أنا وحدي التعيس؛ إذ بُلِيت بشمطاء مثلك، أفسحي!

وتَغطَّى المفتِّش بالبطانية، ونام وهو يشكو في سره حظه البائس.

مع سَبْق الإصرار

أمام المحقِّق يقف فلاح صغير، نحيف للغاية، في قميص مُخطَّط وسِروال مُرقَّع. ويبدو على وجهه الذي غطَّاه الشَّعر وأكله النَّمَش، وعينَيه اللتين لا تكادان تَظهرَان من تحت حاجبيه الكثيفين المتهدِّلَين؛ تعبير صرامة عابسة. وعلى رأسه كَومَة من الشَّعر المَلبَّد الذي لم يُمشط منذ زمن طويل؛ مما يُضفِي عليه مزيدًا من الصرامة العنكبوتية. وهو حافي القدمَين. ويبدأ المحقق: دينيس جريجوريف! اقترِب وأَجِب عن أسئلَتِي. في السابع من يوليو الجارِي كان حارس السِّكَّة الحديدية إيفان سيميونوف أكينفوف يقوم بالتفتيش صباحًا على الخط، فوجدك عند الكيلو ١٤١ مُتلبِّسًا بفكِّ صامولة من الصواميل التي تُثبَّت بها القُضبان على الفَلنْكَات. وها هي ذي الصامولة! وقد قبَض عليك ومعك هذه الصامولة، هل هذا هو ما حدث؟

– آه؟

– هل حدث هذا كما ذكر أكينفوف؟

– معلوم حصل.

– طيب ولأي غرض فَككتَ الصامولة؟

– آه؟

– دعك من «آهك» هذه، وأَجِب عن السؤال: لأي غرض فككتَ الصامولة؟

يقول دينيس بصوت أبحَّ وهو يتطلع إلى السقف: لو لم أكن في حاجة إليها ما فككتُها.

– وما حاجَتُك إلى الصامولة؟

– الصامولة؟ نحن نصنع منها ثقالات السنانير.

– ومن هؤلاء «نحن»؟

– نحن الناس ... فلاحو الناحية يعني.

– اسمع يا أخانا، لا تَتظاهر بالغباء وتكلَّم بصراحة. كفاك كذبًا بخصوص الثقالات!

فيدمدم دينيس وهو يطرف بعينيه: أنا عمري ما كذبتُ، فلماذا أكذبُ الآن؟ وهل يمكن يا صاحب السعادة أن تَصيد بدون ثقالة؟ لو وضعت حشرة أو دودة في السنارة، فهل يمكن أن تغوص إلى القاع بدون ثقالة؟ ويضحك دينيس ضحكة قصيرة، أكذب قال ... وأيُّ فائدة من الطُّعم إذا بقيَ طافيًا على سطح الماء؟ الفرخ والكراكي والبربوط دائمًا تعوم قُرب القاع، وإذا عام شيء عند السطح فليس إلا الشيليشبيور وحتى هذا نادر ... الشيليشبيور لا يعيش في نَهرِنا ... هذه السمكة تحب الوسع.

– ولماذا تُحدِّثْني عن الشيليشبيور؟

– آه؟ طيب، حضرتك سألتني! السادة أيضًا عندنا يصطادون بهذه الطريقة حتى أصغر عيل لن يصطاد بدون ثقالة. طبعًا الذي لا يفهم هو الذي سيصطاد بدون ثقالة. العبيط لا عتب عليه.

– إذن أنتَ تعترف بأنك فككتَ هذه الصامولة لكي تصنع منها ثقالة؟

– مضبوط! وهل لألعب بها؟

– ولكنك تستطيع أن تستخدم للثقالة الرصاص، أو الرش ... أو أي مسمار.

– الرصاص لن تجده مُلقًى على الطريق، لازم تشتريه، والمسمار لا ينفع، ليس هناك أحسن من الصامولة ... فهي ثقيلة وبها خرم.

– كيف يَتظاهَر بالغباء كأنه وُلِد بالأمس أو هبط من السماء؟ ألا تفهم أيها الأحمق إلى أي شيء يؤدِّي فكُّ الصواميل؟ لو لم يَكتشِف الحارس ذلك لكان من الممكن أن يخرج القطار عن القُضبان ولَمات الناس! كنتَ ستتسبَّبُ في قتْل الناس!

– أعوذ بالله يا صاحب السعادة! لماذا أَقتلهم؟ وهل نحن لا نعرف ربنا، أم أننا أشرار؟ الحمد لله يا صاحب السعادة، أنا عشتُ حياتي ولم أقتل أحدًا ولم أفكر حتى في ذلك ... يا ساتر يا رب ارحمنا ... كيف تقول ذلك؟

– وما رأيك؟ لماذا تقع حوادثُ انقلاب القطارات؟ إذا فككتَ صامولتين أو ثلاثًا وقع الحادث!

ويضحك دينيس ضحكة سخرية قصيرة، ويزر عينيه مُحدِّقًا في المحقِّق بارتياب.

لا! من سنين وكل أهل القرية يَفكُّون الصواميل، وربنا سترها، وحضرتك تقول: انقلاب القطار! ... قتل الناس ... لو أني خلَعتُ القضيب، أو وضعتُ مثلًا جذع شجرة بعرض القضبان يمكن ساعتها ينقلب القطار ... ولكن هذه مجرد صامولة! شيء بسيط!

– ألا تفهم أن الصواميل تُثبَّت بها القُضبان في الفلنكات؟

– نحن نفهم هذا ... إننا لا نفكُّ كل الصواميل ... نأخذ البعض ونترك الباقي ... عندنا نظر ... فاهِمِين طبعًا ... ويتثاءب دينيس ويرسم علامة الصليب على فمه.

ويقول المحقق: في العام الماضي خرج قطار عن القُضبان هنا ... مفهوم الآن لماذا.

– ماذا تقول حضرتك؟

– أقول مفهوم الآن لماذا خرج قطار عن القضبان في العام الماضي؟ ... الآن فهمتُ أنا السبب!

– سعادتكم من أهل العلم؛ ولذلك تفهمون ... ربُّنا أعلم لمن يعطي المفهومية ... حضرتك عرفت وقدَّرْت، لكن الحارس مثله مثل الفلاح ليس عنده أي مفهومية، يمسك الواحد من قفاه ويشده ... طيب الأول اعرف وبعدين شد! الفلاح فلاح، ومُخُّه فلاحي ... اكتب أيضًا يا صاحب السعادة، أنه ضربني مرتين في وجهي وفي صدري.

– عند إجراء التفتيش وُجِد عندك صامولة أخرى ... فأين ومتى فككتَ هذه الصامولة؟

– حضرتك تقصد الصامولة التي كانت تحت الصندوق الأحمر؟

– لا أعرف أين كانت هذه الصامولة، لكنهم وجدوها لديك. متى فككتها؟

– أنا لم أفككها، أعطاني إياها إيجناشكا؛ ابن سيميون الأعور، أنا أقصد الصامولة التي تحت الصندوق، أما تلك في الزَّحَّافة في الحوش، فككتُها أنا ومتروفان.

– أي متروفان؟

– متروفان بتروف ... ألم تسمع عنه؟ إنه يصنع الشباك ويبيعها للسادة. وهو يحتاج إلى صواميل كثيرة مثل هذه. كل شبكة تحتاج إلى حوالي عشر صواميل.

– اسمع ... المادة ١٨٠١ من قانون العقوبات تنص على أن كل تخريب مُتعمَّد للسكك يكون من شأنه تعريض سلامة وسيلة النقل المارَّة بها للخطر، وفي حالة معرفة الجاني بالعواقب الوخيمة التي سيؤدِّي إليها فِعلُه ... فاهم؟ ولا بد أنك تعرف إلى أي شيء يؤدي فكُّ الصواميل ... يُعاقَب مرتكِبُه بالنفي والأشغال الشاقة.

– طبعًا حضرتك أَدرَى ... نحن ناس جهَلَة ... وهل نحن نفهم؟

– أنتَ فاهِم كل شيء! لكنك تكذب، وتتظاهر بالغباء!

– ولماذا أَكذبُ؟ اسأل أهل القرية إن كنت لا تصدقني ... بدون الثقالة لا يصطاد إلا السمك الأبيض، وهل هناك أسوأ من القوبيون، ومع ذلك فلا يمكن صيده بدون الثقالة.

فيبتسم المحقق قائلًا: أَظنُّك ستحدثني الآن عن الشيليشبيور.

– الشيليشبيور لا يعيش في نواحينا ... نرمي الخيط بدون الثقالة على سطح الماء والطُّعم فراشة، ونصطاد الشبوط، وحتى هذا نادر.

– طيب، اسكت.

ويسود الصمت. يقف دينيس مُتململًا، ويُحدِّق في الطاولة ذات المفرش من الجوخ الأخضر ويطرف بشدة وكأنه لا يرى أمامه جوخًا، بل شمسًا. والمحقِّق يُدوِّن بسرعة.

وبعد فترة صَمْت يسأل دينيس: هل أنصرف؟

– لا، ينبغي أن أُرسلكَ تحت الحراسة إلى السجن.

يكف دينيس عن الطرف، ويرفع حاجبيه الكثيفين، وينظر إلى المحقِّق متسائلًا: كيف إلى السجن؟ يا صاحبَ السعادة! أنا مستعجل، لازم أروح للسوق. ولي عند يجور ثلاثة روبلات ثمن الشحم لازم أستلمها.

– اسكت، لا تُشوِّش عليَّ.

– إلى السجن! ... لو كنتُ فعلتُ ما يستحقُّ السجن لذهبتُ، ولكن هكذا ... بدون ذنب ... ماذا فعلت؟ لم أسرق، وأظن لم أَتعارَك ... أما إذا كنتَ تشك فيَّ بخصوص الدَّين، فلا تُصدِّق العمدة يا صاحب السعادة ... أرجوك اسأل السيد عضو اللجنة ... العمدة لا يعرف ربنا.

– اسكت!

فيدمدم دينيس: أنا ساكت ... طيب أنا مُستعِد أحلف اليمين إن العمدة يغالط في الحساب ... نحن ثلاثة إخوة: كوزما جريجورييف، وبعدين يجور جريجورييف، وأنا دينيس جريجورييف.

– أنت تُشوِّش عليَّ ... ويَصيح المحقِّق: يا سيميون! خُذْه.

ويدمدم دينيس بينما يقتاده جنديان قويان خارج غرفة التحقيق: نحن ثلاثة إخوة ... والأخ لا يُحاسَب على ذنْب أخيه ... كوزما لا يدفع وأنا المسئول؟! يا لكم من قضاة! مات السيد الجنرال، عليه الرحمة، وإلَّا لأراكم الويل، أيها القضاة ... إذا حكمتُم فلتحكُموا بالعدل، بالمفهومية ... وليس هكذا بلا ذنْب ... حتى لو حكمتُم بالجَلْد فليكن المهم بالحق، بالأمانة.

الكبش والآنسة

(مشهد قصير من حياة «السادة المحترمين»)

كانت سحنة السيد المحترم الشبعانة اللامعة تنطق بالمَلل القاتل؛ كان قد غادر لِتوِّه أحضان مورفيوس[1] بعد الظهر ولا يدري ماذا يفعل. لم تكن به رغبة في التفكير أو التثاؤب ... أما القراءة فمَلَّها منذ عهد سحيق، وكان الوقت لا يزال مبكِّرًا للذهاب إلى المسرح، ومنَعَه الكسل من الذهاب للتزحلق. فما العمل؟ بمَ يُسلِّي نفسه؟

وأبلغه الخادم يجور: هناك آنسة جاءت تسأل عنكم.

– آنسة؟ هم ... ترى مَن هي؟ على العموم سِيان، ادعُها.

ودخلَت غرفة المكتب بهدوء فتاة وسيمة، سوداء الشعر، ترتدي ملابس بسيطة ... بل وبسيطة جدًّا. وعندما دخلَت حيَّت بانحناءة، وأخذت تقول بصوت مرتعش: أرجو المعذرة. أنا ... قالوا لي إن حضرتكم ... إنه من الممكن أن أجدكم في الساعة السادسة فقط.

أنا ... أنا ... ابنة مستشار القصر[2] بَالتسيف.

– تَشرَّفنَا ... تَفضَّلي اجلسي! أي خدمة؟ اجلسي لا تخجلي!

– لقد جئتكم في طلب.

---

[1] إله الأحلام عند الإغريق القدماء. (المُعَرِّب)

[2] رُتبة مَدنِيَّة من في الدرجة السابعة في روسيا القيصرية تُعادِل رتبة المقدَّم العسكرية. (المُعَرِّب)

مضَتِ الآنسة تقول وهي تجلس في ارتباك وتعبَث بأزرارها بيدين مرتعشتين: لقد جئتُ ... لكي أطلب منكم بطاقة سفر مجانية إلى موطني. سمعت أنكم تعطون وأنا أريد أن أسافر، وليس معي ... أنا لستُ غَنِية ... بطاقة من بطرسبرج إلى كورسك.

– هم ... هكذا ... ولماذا تريدين السفر إلى كورسك؟ ألا يعجبك الحال هنا؟

– لا، هنا يعجبني، ولكن ... أهلي، أريد أن أسافر إلى أهلي؛ لم أرهم منذ مدة طويلة ... كتبوا لي أن ماما مريضة.

– هم ... وأنت هنا مُوظَّفة، أم طالبة؟

وأخبرَته الآنسة بالمكان الذي كانت تعمل فيه وعند مَن، وكم كانت تتقاضى، وبحجم العمل الذي كانت تؤديه.

– هكذا ... كنتِ تَعمَلين ... نعم، لا يمكن القول إن مُرتَّبك كان كبيرًا ... لا يمكن القول ... ليس من الإنسانية ألَّا تُصرَف لك بطاقة مجانية ... هم ... إذن فأنت مسافرة إلى أهلك ... حسنًا، وربما كان لديك في كورسك حبيب، هه؟ حبُّوب، هئ، هئ، هؤ ... خطيب؟ آه، تَخجلِين؟ أوه، لا داعي! هذا شيء محمود فَلتسافري ... حان الوقت لكي تتزوَّجي ... ومن هو؟

– موظف.

– شيء محمود ... سافِري إلى كورسك ... يقال إنه على بعد مائة فرسخ من كورسك تنتشر رائحة حساء الكرنب وتزحف الصراصير ... هئ، هئ، هؤ ... لا بد أن الحياة مُملَّة في كورسك هذه؟ لا تخجلي، انزعي القبعة! نعم، هكذا! يا يجور، هات شايًا. لا بد أن الحياة مملة في هذه الـ ... أم ... ما اسمها ... كورسك؟

لم تكن الآنسة تتوقَّع مثل هذا الاستقبال الرقيق فَشعَّ وجهُها بالسرور، ووصفَت للسيد المحترم كل ما في كورسك من ألوان التَّسلية ... وأخبرَته أن لديها أخًا موظفًا، وعمها مدرس وأبناء أخيها تلاميذ ... وقدَّم يجور الشاي ... وتناولَت الآنسة الكوب بِوجَل، وراحَت ترشفه دون صوت وهي تخشى أن تَصدر عنها مَصمصة ... وكان السيد المحترم يَتطلَّع إليها وهو يبتسم بسخرية ... لم يَعُد يشعر بالمَلل.

وسألها: هل خَطيبك وسيم؟ وكيف تعرَّفتُما ببعض؟

وأجابت الآنسة بخجل على هذين السؤالين. واقتربت بمجلسها من السيد المحترم في ثقة، ورَوت له وهي تبتسم كيف تقدَّم الخُطَّاب هنا في بطرسبرج فرفضَتهم ... تحدَّثَت طويلًا. وأنهَت حديثها بأن أخرجَت من جيبها رسالة من والديها وقرأَتها على السيد المحترم.

ودقت الساعة الثامنة.

– والدك خطُّه لا بأس به ... بأي زخارف ينمق الحروف؟ هئ، هئ ... حسنًا، لقد حان وقت انصرافي ... لا بد أن المسرح بدأ عَرضُه ... وداعًا يا ماريا يفيموفنا.

فسألت الآنسة وهي تنهض: إذن أستطيع أن آمل؟

– بماذا؟

– بأن تعطوني بطاقة مجانية.

– بطاقة؟ هم ... ليستْ لديَّ بطاقات. يبدو أنك أخطأتِ يا سيدتي ... هئ ... هئ، هئ ... أخطأتِ العنوان، دخلتِ غير المدخل ... بالقرب مني يسكن، حقًّا، أحد العاملين في السِّكك الحديدية. أما أنا فأعمل في بنك! يا ياجور، مُرهم أن يَعُدُّوا العربة! وداعًا يا ma chére[٣] ماريا سيميونوفنا! سعيد جدًّا سعيد جدًّا.

ارتدَت الآنسة مِعطفها وخرجَت ... وعند المدخل الآخر قيل لها إنه سافر إلى موسكو في السابعة والنصف.

---

[٣] يا عزيزي (بالفرنسية في الأصل). (المُعَرِّب)

ابنة ألبيون[١]

اقتربَتْ من دار الإقطاعي جريابوف عربة رائعة ذات عجلات من المَطَّاط وحُوذِي سمين ومقعد من المخمل. وقفز من العربة رئيس نبلاء الناحية فيودور أندريتش أتسوف. وفي المدخل استقبله خادم نعسان.

وسأل رئيس النبلاء: السادة في البيت؟

– لا يا سيدي، السيدة ذهبتء مع الأولاد في زيارة، أما السيد فذهب مع المزموزيل المُربِّية لصيد السمك، منذ الصباح.

وقف أتسوف قليلًا وفكَّر، ثم توجَّه إلى النهر ليبحث عن جريابوف. ووجده على بُعد فرسخَين من البيت حين اقترب من النهر. وعندما تَطلَّع أتسوف من الشاطئ المرتفع إلى أسفل ورأى جريابوف نَدت منه ضحكة ... فقد كان جريابوف، وهو رجل ضخم، ذو رأس كبير جدًّا، جالسًا على الرمل متربعًا على الطريقة التركية، يصطاد السمك.

وكانت قُبعته منزَلِقة على قفاه، ومالت رابطة عنقه جانبًا. وبجواره وقفت إنجليزية طويلة نحيفة بعينين جاحظتين كعيني سرطان البحر وأنف كبير كمنقار الطيور، يبدو أشبه بالشِّص منه بالأنف. وكانت ترتدي فستانًا أبيض من الموسلين بدت من خلال نسيجه الشَّفَّاف بوضوح كتفاها الصفراوان النحيلتان. ومن حزامها الذهبي تدلَّت ساعة ذهبية. وكانت هي أيضًا تصطاد. ومن حولهما خَيَّم صمت كصمت القبور، كانا كلاهما ساكنين كالنهر الذي طفَت عليه عَوَّامتا سنارتيهما.

---

[١] ألبيون: اسم قديم لإنجلترا. (المُعَرِّب)

وضحك أتسوف قائلًا: الرغبة كبيرة والنتيجة مريرة ... مرحبًا يا إيفان كوزمتش. فقال جريابوف دون أن يحول عينيه عن الماء: آه ... أهو أنت؟ وصلتَ؟

– كما ترى ... وأنت ما زلتَ تزاول التفاهات! لم تَتخلَّ عنها بَعد.

– يا للشيطان ... طول النهار أصيد، منذ الصباح. الصيد اليوم سيِّئ لا أدري لماذا. لم أصطد شيئًا لا أنا ولا هذه البعبع. نجلس ونجلس ولا نمسك حتى بشيطان واحد ... كارثة!

– ابصق على ذلك، هيا نشرب فودكا!

– انتظِر ... ربما اصطدنا شيئًا، قُربَ المساء يتحسن الصيد ... إنني جالس هنا يا أخي منذ الصباح! مَلل فظيع لا أستطيع أن أصفه لك، يا للشيطان الذي جعلني أتعلَّق بهذا الصيد! إنني أعرف أنه هُراء، ومع ذلك أجلس! أجلس مثل أحد الأوغاد، مثل المحكوم بالأشغال الشاقَّة، وأُحدِّق في الماء كالأحمق! ينبغي أن أذهب للمحصد ولكني أصيد السمك. بالأمس في خابونيفو أقام البطريرك قدَّاسًا ولم أذهب، بل جلستُ هنا مع هذه الحفشة ... مع هذه الشيطانة.

– ما هذا؟ هل جننتَ؟ قال أتسوف بخجل وهو ينظر ناحية الإنجليزية: تسبُّ في حضرة سيدة؟ ... بل تسبها هي؟!

– فلتذهب إلى الشيطان! سِيان، فهي لا تفقه حرفًا بالروسية. سواء بالنسبة إليها أن تمدحها، أم تسبها! انظر إلى أنفها! إنه وَحدَه يجعلك تسقط فاقد الوعي! نجلس أيامًا طويلة معًا فلا تتفوَّه بكلمة! تقف كفزاعة الطيور، وتبحلق في الماء بعيونها الجاحظة.

تثاءبَت الإنجليزية وغيَّرت الطُّعم، ثم ألقَت بالسِّنَّارة في الماء.

ومضى جريابوف يقول: إنني أدهش كثيرًا يا أخي. تعيش في روسيا منذ عشر سنوات ولا تعرف كلمة واحدة بالروسية! ... بينما يذهب أي إقطاعي صغير من عندنا إليهم وعلى الفور يبدأ يرطن بلغتهم ... أما هي فالشيطان يدري ما هذا! انظر إلى أنفها! إلى أنفها انظر!

– حسنًا، كفاك ... هذا مُحرِج ... ماذا فعلَت هذه المرأة حتى تنهال عليها؟

– إنها ليست امرأة بل آنسة ... لا بد أنها تحلم بالعرسان هذه الدمية الملعونة ... وتفوح منها رائحة عطن ... كم أمقتها يا أخي! لا أستطيع أن أنظر إليها دون انفعال! ما إن تُحدِّق فيَّ بعينيها الكبيرتين حتى ينتفض بدني كله كأن مرفقي ارتطم بالدرابزين. إنها أيضًا تحب صيد السمك. انظر: إنها تصطاد وتَتعبَّد! وتنظر إلى كل شيء باحتقار ...

تقف هذه الماكرة وتحس نفسها إنسانًا، أي سيد الطبيعة. فهل تدري ما اسمها؟ ويلكا تشارلزوفنا تفايس! تفو ... لا يمكن نطقه!

وعندما سمعت الإنجليزية اسمها حوَّلت أَنفَها ببطء صوب جريابوف وقاسَته بنظرة احتقار. ورفعَت عينيها عن جريابوف إلى أتسوف وغمَرَته بالاحتقار أيضًا. وجرى كل ذلك في صمت وعظمة وبطء.

فقال جريابوف وهو يقهقه: هل رأيتَ؟ كأنها تقول: هاكم! آه أيتها البعبع! إنني لا أُبقي على هذه الدودة إلا من أجل الأطفال. ولولاهم لما سمحتُ لها بالاقتراب من ضيعتي لعشرة فراسخ ... أنفها بالضبط كمنقار الصقر ... وخصرها؟ هذه الدمية تُذكِّرني بمسمار طويل. أود لو أمسكتها ودققتها في الأرض. مهلًا ... يبدو أن سنارتي تغمز.

وقفز جريابوف وشد السنارة. وتوتَّر الخيط ... وشدَّها جريابوف مرة أخرى فلم يخرج الشص.

فقال وهو يتأفف: يا للشيطان! اشتبكَت! يبدو اشتبكَت بحجر ... وارتسمَت المعاناة على وجه جريابوف. وراح يزفر ويتحرك بقلق وهو يدمدم باللعنات ويشد الخيط. ولكن الشد لم يَعُد بنتيجة. وامتقع جريابوف، وقال: يا للأسف! ينبغي أن أنزل إلى الماء.

– دَعكَ من هذا!

– لا يمكن ... قرب المساء يتحسَّن الصيد ... يا لها من مهزلة، فليسامحني الله. سأضطر إلى نزول الماء، سأضطر! وآه لو تعلم كم أنني لا أود نزع ثيابي! يجب أن نطرد الإنجليزية ... من المُحرِج أن أخلع ملابسي أمامها فهي مع ذلك سيدة!

ونزع جريابوف القبعة ورابطة العنق. وقال مخاطبًا الإنجليزية: يا ميس، إ – إ – إ – يا ميس تفايس ... جو فو بري[٢] ... كيف أُوضِّح لها؟ كيف أقول لك لكي تفهمي؟ اسمعي ... إلى هناك! اذهبي إلى هناك! أتسمعين؟

وغمَرت ميس تفايس جريابوف بالاحتقار، وصدَر عنها صوت أنفي.

– ماذا؟ لا تفهمين؟ أقول لك امشي من هنا! أريد أن أخلع ملابسي أيتها المصيبة! امشي إلى هناك إلى هناك!

[٢] من الفرنسية: je vous pris – أرجوك. (المُعَرِّب)

وشد جريابوف الميس من ذراعها وأشار لها إلى الخمائل وجلس، يريد بذلك أن يقول لها: اذهبي إلى الخمائل واختبِئي هناك ... ولعَّبت الإنجليزية حاجبيها بحيوية وقالت بسرعة جملة إنجليزية طويلة. وانفجر الإقطاعيان ضاحكَين.

– هذه أول مرة في حياتي أسمع صوتها ... يا له من صوت! إنها لا تفهم! ماذا أفعل معها؟

– دعك منها! هيا بنا نشرب فودكا!

– لا يمكن ... الصيد الآن سيكون أحسن ... في المساء ... ولكن، ما العمل؟ يا لها من مهزلة! سأضطر أن أخلع ملابسي في حضورها.

وألقى جريابوف بالسُّترة والصديري، وجلس على الرمل ليخلع حذاءه.

فقال رئيس النبلاء وهو يكتم ضحكة في قبضته: اسمع يا إيفان كوزميتش، إن هذا يا صديقي تهكُّم، امتهان.

– لم يطلب منها أحد ألا تفهم. فليكن درسًا لهم، لهؤلاء الأجانب!

نزع جريابوف حذاءه، وتجرَّد من ملابسه الداخلية وأصبح كما ولدته أمه. وأمسك أتسوف ببطنه واحمر من الضحك والخجل. ولعَّبت الإنجليزية حاجبيها وطرفت عيناها ... وعلى وجهها الأصفر طافَت ابتسامة احتقار مُتعالِية.

وقال جريابوف وهو يُربِّت على فخذيه: ينبغي أن أبرد جسمي قليلًا. قل لي يا فيودور أندريتش من فضلك، لماذا يظهر الطفح على صدري كل صيف؟

– أسرِع بالنزول يا حيوان، أو استر نفسك بشيء.

فقال جريابوف وهو ينزل إلى الماء راسمًا علامة الصليب: لو أنها تخجل هذه الفاجرة! برر ... الماء بارد ... انظر كيف تلعِّب حاجبيها! ولا تبتعد ... تتعالى على الغوغاء! هئ ... هئ ... هئ ... ولا تعتبرنا بشرًا!

وعندما غاص في الماء إلى ركبتيه، شد قامته الهائلة وغمز بعينه قائلًا: دعها تَعلم يا أخي أننا لسنا في إنجلترا!

وغيرت ميس تفايس الطُّعم ببرود، وتثاءبت، وألقَت بالسنارة. وحوَّل أتسوف نظره. وفك جريابوف الشِّص المشتبك وغطس في الماء، ثم خرج وهو يشهق، وبعد دقيقتين كان جالسًا على الرمل يصطاد من جديد.

المغفلة

منذ أيام دعوتُ إلى غرفة مكتبي مُربِّية أطفالي يوليا فاسيليفنا لكي أدفع لها حسابها.

قلت لها:

– اجلسي يا يوليا فاسيليفنا، هيا نتحاسب، أنتِ في الغالب بحاجة إلى النقود، ولكنك خجولة إلى درجة أنك لن تطلبيها بنفسك ... حسنًا ... لقد اتفقْنا على أن أدفع لك ثلاثين روبلًا في الشهر.

– أربعين.

– كلا، ثلاثين، هذا مسجَّل عندي ... كنتُ دائمًا أدفع للمربِّيات ثلاثين روبلًا ... حسنًا، لقد عملتِ لدينا شهرين.

– شهرين وخمسة أيام.

– شهرين بالضبط ... هكذا مسجَّل عندي ... إذن تستحقين ستين روبلًا ... نخصم منها تسعة أيام آحاد ... فأنتِ لم تُعلِّمي كوليا في أيام الآحاد، بل كنتِ تتنزهين معه فقط ... ثم ثلاثة أيام أعياد.

تَضرَّج وجه يوليا فياسيليفنا، وعبثَت أصابعها بأهداب الفستان ولكن ... لم تَنبِس بكلمة!

– نخصم ثلاثة أعياد، إذن المجموع اثنا عشر روبلًا ... وكان كوليا مريضًا أربعة أيام ولم تكن دروسٌ ... كنتِ تُدرِّسين لفاريا فقط ... وثلاثة أيام كانت أسنانك تُؤلمك فسمحَت لك زوجتي بعدم التدريس بعد الغداء ... إذن اثنا عشر زائد سبعة، تسعة عشر ... نخصم، الباقي ... هم ... واحد وأربعون روبلًا ... مضبوط؟

احمرَّت عين يوليا فاسيليفنا اليسرى وامتلأت بالدَّمع، وارتعش ذقنها وسَعَلت بعصبية وتمخَّطَت، ولكن ... لم تَنبِس بكلمة!

– قُبَيل رأس السنة كَسرتِ فنجانًا وطبقًا. نخصم روبلين ... الفنجان أغلى من ذلك، فهو موروث ولكن فليسامحك الله! علينا العوض ... نعم، وبسببِ تقصيرك تسلَّق كوليا الشجرة ومزَّق سترته ... نخصم عشرة ... وبسبب تقصيرك أيضًا سَرقتِ الخادمة من فاريا حذاء. ومن واجبك أن ترعي كل شيء، فأنتِ تتقاضين مرتبًا، وهكذا نخصم أيضًا خمسة ... وفي ١٠ يناير أخذتِ مني عشرة روبلات.

فهمسَت يوليا فاسيليفنا: لم آخذ!

– ولكن ذلك مسجَّل عندي!

– طيب، ليكن.

– من واحد وأربعين نخصم سبعة وعشرين ... الباقي أربعة عشر.

امتلأَت عيناها الاثنتان بالدموع ... وطفرت حبَّات العرَق على أنفها الطويل الجميل. يا للفتاة المسكينة!

وقالت بصوت متهدِّج:

– أخذتُ مرة واحدة ... أخذتُ من حرمكم ثلاث روبلات ... لم آخذ غيرها.

– حقًّا؟ انظر، وأنا لم أسجِّل ذلك! نخصم من الأربعة عشر ثلاثة، الباقي أحد عشر ... ها هي ذي نقودك يا عزيزتي! ثلاثة ... ثلاثة ... ثلاثة ... واحد، واحد ... تفضلي!

ومدَدتُ لها أحد عشر روبلًا ... فتناولَتْها ووضعَتها في جيبها بأصابع مرتعشة وهمَست: Merci[1]

فانتفضْت واقفًا وأخذْت أروح وأجيء في الغرفة. واستولى عليَّ الغضب.

سألتُها:

– Merci على ماذا؟

– على النقود.

– يا للشيطان، ولكنِّي نهبتُك، سلبتُك! لقد سرقتُ منك! فعلامَ تقولين Merci؟

– في أماكن أخرى لم يعطوني شيئًا.

– لم يعطوك؟ ليس هذا غريبًا! لقد مزحتُ معك، لقَّنتُك درسًا قاسيًا ... سأعطيك نقودَك، الثمانين روبلًا كلها! ها هي ذي في المظروف جهزَّتُها لك! ولكن هل يمكن أن تكوني

---

[1] ميرسي: شكرًا. (المُعَرِّب)

عاجزة إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تَحتجِّين؟ لماذا تسكتين؟ هل يمكن في هذه الدنيا ألا تكوني حادَّة الأنياب؟ هل يمكن أن تكوني مُغفَّلَة إلى هذه الدرجة؟

ابتَسَمَت بعجز فقرأتُ على وجهها: «يمكن!»

سألتُها الصَّفح عن هذا الدرس القاسي وسلَّمتُها، ولدهشتها البالغة، الثمانين روبلًا كلها. فشكرتني بخجل وخرجَت ... وتطلعت في إثرها وفكَّرت: ما أسهل أن تكون قويًّا في هذه الدنيا!

القناع

أقيم في نادي «س» الاجتماعي حفل تَنكُّري لغرض خيري.

كانت الساعة الثانية عشرة ليلًا. وجلس المثقَّفون غير الراقصين — وكانوا خمسة — في قاعة المطالَعة إلى طاولة كبيرة ودسُّوا أنوفهم ولِحاهم في الجرائد وراحوا يقرءون وينعسون، و«يفكرون» على حد تعبير المراسِل المحلِّي لجرائد العاصمة وهو سيد ليبرالي جدًّا.

وتناهَت من الصالة العامَّة أنغام رقصة «فيوشكي» ومن حين لآخر كان الخدَم يُهروِلون بجوار الباب وهم يدقُّون عاليًا بأقدامهم ويثيرون رنين الأواني. بينما كان الصمت العميق يسود قاعة المطالَعة.

وفجأة تردَّد صوت غليظ مكتوم بدَا وكأنه صادِر من المدفأة.

– يبدو أن المكان هنا سيكون مناسِبًا، تعالوا هنا يا أولاد! تعالوا، تعالوا!

وفتح الباب، ودخل قاعة المطالَعة رجل عريض، رَبعَة، يرتدي حُلَّة حُوذي وقبعة بِريش طاووس وقناعًا. وتبعته سيدتان مُقنَّعتان وخادم يحمل صينية وكان على الصينية زجاجة ليكير منبعجة وثلاث زجاجات نبيذ أحمر وبضعة أكواب.

وقال الرجل: تعالوا الجوُّ هنا أبرَد ... ضع الصينية على الطاولة ... اجلسن يا موزمزيلات! جي فو بري[1]، أما أنتم يا سادة فَلتُفسِحوا ... هيا مِن هنا! وتَمايَل الرجل وأزاح بيده عدة مجلات من على الطاولة.

---

[1] جو فو بري (je vous pris) – أرجوكم، من فضلكم بالفرنسية. (المُعَرِّب)

– ضع هنا! أما أنتم أيها السادة القرَّاء فلتُفسِحوا؛ لا وقت هنا لقراءة الجرائد والسياسة ... دعوا عنكم هذا!

فقال أحد المثقَّفِين وهو ينظر إلى صاحب القناع من خلال نظارته: الزم الهدوء من فضلك، هذه قاعة مطالَعة وليس بوفيه. ليس هذا مكانًا للشرب.

– ولماذا ليس مكانًا؟ هل الطاولة تتأرجح، أم ربما السقف يتساقط؟ شيء عجيب! حسنًا ... لا وقت عندي للحديث، اتركوا الجرائد ... يكفيكم ما قرأتُم ... أنتم هكذا أذكياء أكثر من اللازم، كما أنكم تُتلِفُون أبصاركم. وأهم ما في الأمر أنني لا أريد ... انتهينا.

ووضع الخادم الصينية على الطاولة، وطوى الفوطة على ذراعه ووقف بجوار الباب. وشرعت السيدتان فورًا في تناول النبيذ الأحمر.

وقال الرجل ذو ريش الطاووس وهو يصبُّ لنفسه ليكيرا: كيف يُوجَد أناس أذكياء يعتبرون الجرائد أفضل من هذه المشروبات؟ أما أنا فأرى أيها السادة المحترمون أنكم تُحبُّون الجرائد؛ لأنكم لا تملكون ما تشربون به، أليس كذلك؟ ها ... ها! إنهم يقرءون! حسنًا وما هو المكتوب هناك؟ أيها السيد ذو النظارة، أي وقائع تقرأ؟ ها ... ها! دعك من ذلك! كفاك تَمنُّعًا. اشرب أفضل.

ونهض الرجل ذو ريش الطاووس وانتزع الجريدة من يدي السيد ذي النظارة، فامتقع هذا، ثم تضرج ونظر بدهشة إلى بقية المثقَّفِين، ونظر هؤلاء إليه، وانفجر قائلًا: إنك تتجاوَز حدودك يا سيدي المحترم. إنك تحول قاعة المطالعة إلى حانة ... إنك تسمح لنفسك بالعربَدة واختطاف الجرائد من الأيدي! لن أسمح لك! أنت لا تعرف مع مَن تتحدث يا حضرة المحترم! أنا جيستياكوف، مدير البنك!

– طظ، فلتكن جيستياكوف! أما جريدتك فها هي ذي قيمتها.

ورفع الرجل الجريدة ومزَّقها قطعًا.

ودمدم جيستياكوف مصعوقًا: ما هذا يا سادة؟ هذا شيء غريب ... هذا شيء غير معقول.

فضحك الرجل قائلًا: سيادته زعلان! آي آي، أخفتَني، أقدامي ترتعش، اسمعوا أيها السادة المحترمون! كفى مزاحًا.

أنا لا أرغب في الحديث معكم ... ولما كنتُ أريد أن أبقى هنا مع المزموزيلات على انفراد وأريد أن أُمتِّع نفسي؛ لذلك أرجوكم ألا تَحزنوا ولتخرجوا ... تَفضَّلوا من هنا! يا سيد بيليبوخين اخرُج من هنا في ألف داهية! ما لك تقلب سحنتك؟ أقول لك: اخرج يعني تخرج! هيا عجِّل وإلا أهويتُ على قفاك!

فتساءل بيليبوخين صرَّاف المحكمة وهو يحمر ويهز كتفيه: كيف؟ ما معنى هذا؟ أنا حتى لا أفهم ... شخص وقِح يقتحم علينا المكان ... وفجأة يتفوه بهذه الأشياء!

فصاح الرجل ذو ريش الطاووس غاضبًا، ودق بقبضته على المائدة حتى تراقصت الأكواب على الصينية: ماذا تقول؟ وقِح؟ لمن تقولها؟ أتظن أنني ما دمتُ في القناع فبوسعك أن توجِّه لي مختلف الكلمات؟ يا لك من مشاغب! اخرج من هنا أقول لك! يا مدير البنك، انكشح من هنا بالمعروف! اخرجوا جميعًا. إياكم أن يبقى منكم لئيم هنا! غوروا في ألف داهية!

فقال جيستياكوف الذي غامَت نظَّارته من شدة الانفعال: حسنًا، سنرى الآن! سأريك! إيه، استدعِ الشاويش المناوِب!

وبعد دقيقة دخل شاويش صغير أحمر الشعر بشريط أزرق على ياقة سترته وهو يلهث من الرقص، وقال: تفضَّلوا بالخروج، ليس هذا مكانًا للشرب! تفضَّلوا في البوفيه.

وسأل الرجل ذو القناع: من أين جئتَ أنت؟ هل أنا دعوتُك؟

– أرجو أن تخاطبني باحترام، وتفضَّل بالخروج!

– اسمع يا عزيزي ... سأُمهلك دقيقة ... وطالما أنت شاويش وشخصية مهمة، فلتسحب هؤلاء المُمثِّلِين من أيديهم. مزموزيلاتي لا يعجبهن وجود غرباء هنا ... يَشعُرن بالخجل، وأنا أريد مقابل نقودي أن يَكُنَّ في حالتهن الطبيعية.

وصاح جيستياكوف: يبدو أن هذا المأفون لا يفهم أنه ليس في حظيرة، استدعوا يفسترات سبيريدونتش!

وتردَّدَت في النادي:

– يفسترات سبيريدونتش! أين يفسترات سبيريدونتش؟

وسرعان ما ظهر يفسترات سبيريدونتش، وهو عجوز يرتدي حُلَّة شرطة. وصاح بصوت مبحوح وهو يبحلق بعينيه المرعِبَتين ويحرك شواربه المصبوغة: تفضَّل بالخروج من هنا!

فقال الرجل وهو يقهقه من المتعة: آه، لقد أرعبتَني! إي والله أرعبتَنِي! أقسم لكم أنني لم أرَ شيئًا رهيبًا كهذا! شواربه كشوارب القط، وعيناه جاحظتان ... ها ... ها ... ها! ... ها ... ها ... ها!

فصاح يفسترات سبيريدونتش بكل قوته واهتز بدنه: ممنوع الكلام! اخرج من هنا! سآمر بطردك!

وارتفع في قاعة المطالَعة صخب لا مثيل له. كان يفسترات سبيريدوننتش يصرخ ويدق بقدميه وقد احمرَّ وجهه كسرطان البحر. وكان جيستياكوف يصرخ. وكان بيليبوخين يصرخ، كان جميع المثقفين يصرخون، ولكن غطى على أصواتهم جميعًا صوت الرجل ذي القناع الغليظ الأجش. وبسبب الهرج العام توقَّف الرقص، وتقاطَر الناس من الصالة إلى قاعة المطالَعة.

ولكي يظهر يفسترات سبيريدوننتش هيبته استدعى جميع رجال الشرطة الموجودين في النادي، وجلس ليكتب محضرًا.

فقال ذو القناع وهو يَدسُّ إصبعه تحت القلم: اكتب، اكتب. يا لي من مسكين، ترى ماذا سيحدث لي الآن؟ يا لحظي البائس! حرام عليكم ما تفعلونه بيتيم مثلي! ... ها ... ها ... ها! حسنًا، ماذا؟ هل محضرك جاهز؟ هل وقَّع الجميع، فلتنظروا الآن إذن! واحد ... اثنان ... ثلاثة!

ونهض الرجل ومد قامته بطولها ونزع القناع عن وجهه. وبعد أن كشف وجهه الثمل وطاف بنظره على الجميع مستمتعًا بما أحدثه من تأثير، تهاوى على الكرسي وقهقه بفرح. وبالفعل كان التأثير الذي أحدثه غير عادي. تبادَل المثقفون النظرات في ارتباك وامتقعَت وجوههم، وحك بعضهم قفاه. وتَحشرَج يفسترات سبيريدوننتش كالشخص الذي ارتكب عفوًا حماقة كبيرة.

لقد عرف الجميع في هذا الرجل الهائج المليونير المحلي صاحب المصانع والمواطن العريق المحترم بيتيجوروف، المعروف بفضائحه وبأعماله الخيرية، وكما ذكرَت الجريدة المحلية غير مرة، بحبه للمعروف. وبعد دقيقة من الصمت سأل بيتيجوروف: حسنًا هل ستنصرفون، أم لا؟

وخرج المثقَّفون من غرفة المطالَعة على أطراف أصابعهم في صمت، دون أن يتفوَّهوا بكلمة، فأوصد بيتيجوروف الباب خلفهم.

وبعد دقيقة كان يفسترات سبيرويدوننتش يفح هامسًا وهو يهز كتف الخادم الذي حمل الخمر إلى قاعة المطالعة:

– لقد كنت تعلم أنه بيتيجوروف، لماذا سكتَّ؟

– أمرني ألا أقول!

– أمره ألا يقول ... سأسجنك أيها الملعون شهرًا وعندئذ ستعرف ما معنى «أمرني ألا أقول»، اخرج!

وقال مخاطبًا المثقَّفين: وأنتم أيضًا يا سادة ما أحلاكم ... أعلِنوا العصيان! لم يكن في استطاعتكم أن تخرجوا من قاعة المطالعة لعشر دقائق! حسنًا، تَحمَّلوا إذن مسئولية ما صنعتم! آه يا سادة، يا سادة ... هذا لا يجوز.

وسار المثقَّفون في النادي مقهورِين، ضائعِين، مُذنبِين يتهامسون ويتوقعون شرًّا ... وعندما عرفَت زوجاتهم وبناتهم بالحادث أخلَدْن إلى السكون وتفرَّقْن عائدات إلى بيوتهن. وتوقَّف الرقص.

وفي الساعة الثانية خرج بيتيجوروف من قاعة المطالعة؛ كان ثَملًا يترنَّح. وعندما دخل الصالة جلس بقرب الأوركسترا ونعس على أنغام الموسيقى. ثم مال رأسه بحزن وعلا شخيره.

وأشاح الشاويشية بأيديهم للعازفِين: لا تَعزِفوا! هس! ... يجور نيليتش نائم.

وسأل بيليبوخين وهو ينحني على أذن المليونير: هل تأمرون بتوصيلكم إلى البيت يا يجور نيليتش؟

وندَّت عن شفتي بيتيجوروف حركة وكأنه يريد أن ينفخ ذبابة عن خده.

وعاد بيليبوخين يسأل: هل تأمرون بتوصيلكم إلى البيت، أم باستدعاء العربة؟

– هه؟ من؟ أنت ... ماذا تريد؟

– أريد أن أوصلكم ... حان وقت النوم.

– أريد أن أذهب ... أوصلني!

وتهلَّل بيليبوخين من الرضا وشرع يُنهِض بيتيجوروف. وأسرع إليه بقية المثقَّفِين، وأَنهَضوا المواطن الأصيل المحترم وهم يبتسمون بسرور، وساروا به بحذر إلى العربة.

وقال جيستياكوف بمرح وهو يُجلِسه: لا يستطيع أن يضحك على جماعة كاملة إلا ممثل موهوب. أنا مأخوذ حقًّا يا يجور نيليتش! حتى الآن ما زلتُ أضحك ... ها ... ها ... كنا نغلي ونَتلمَّظ! ها ... ها! هل تصدقون؟ لم أضحك أبدًا في المسرح مثلما ضحكتُ اليوم. فكاهة بلا حدود! سأظل طول عمري أذكر هذه الأمسية التي لا تنسى.

وبعد أن أوصل المثقَّفون بيتيجوروف عاوَدهم المرح والاطمئنان. وقال جيستياكوف وهو سعيد جدًّا: لقد مدَّ لي يده عند الوداع. إذن فليس غاضبًا.

فتنهَّد يفسترات سبيرويدونتش: يِسمع منك ربنا! إنه رجل وغد، حقير، ولكنه محسن! لا يصح!

الصول بريشيبييف

الصول بريشيبييف! أنت مُتَّهم بأنك في الثالث من سبتمبر الجاري أهنتَ بالقول والفعل الدركي جيغين، وشيخ الناحية أليابوف، وشيخ الخفراء بفيموف، والشاهدَين إيفانوف وجافريلوف، وستة آخرِين من الفلاحين، علمًا بأنك اعتدَيت على الثلاثة الأُوَل أثناء قيامهم بأداء مهامِّهم الرسمية. مُذنب أم غير مذنب؟

يقف الصول بريشيبييف، وهو رجل مكرمش، بوجه شائك، شادًّا يديه إلى جنبيه في وقفة انتباه، ويجيب بصوت أبح مخنوق، مشددًا على كل كلمة وكأنما يصدر الأوامر: يا صاحب السعادة، يا سيادة قاضي الناحية! معلوم أن القانون في جميع موادِّه ينظر في تكييفه للحوادث انطلاقًا من حُجج الطرفَين. لستُ أنا المذنب، بل هم جميعًا. وكل ذلك حدث بسبب تلك الجثة الميتة، عليها الرحمة. كنت سائرًا في الثالث من الشهر مع زوجتي أنفيسا في هدوء ووقار، وإذا بي أرى مجموعة من مختلف الناس مُتجمهِرة على الشاطئ، فتساءلتُ: بأي حق اجتمع الناس هنا؟ لأي غرض؟ وهل ينص القانون على أن يسير الناس كالقطيع؟ وصِحت: تفرَّقوا! وأخذتُ أدفع الناس لكي ينصرفوا إلى بيوتهم، وأمرتُ شيخ الخفراء أن يفرقهم بالقوة.

– عفوًا، ولكنكَ لستَ الدركي ولا العمدة ... فهل من شأنك تفريق الناس؟

وتردَّدت أصوات من شتى أنحاء القاعة:

– ليس شأنه! ليس شأنه! سمَّم علينا حياتنا يا صاحب السعادة! خمس عشرة سنة ونحن نتَحمَّله! من يوم أن جاء من الخدمة والحياة لا تطاق! عذَّب الجميع.

ويقول الشاهد العمدة: صحيح يا صاحب السعادة، كل الناس يشكون منه. الحياة معه مستحيلة! سواء في الأعياد الدينية، أم في الأعراس، أم عندما يحدث حادث ما، تجده دائمًا يصيح ويزمجر ويفرض علينا نظامه. ويشد الأولاد من آذانهم، ويتلَصَّص على النساء

خشية أن يحدث شيء وكأنه حمو كل زوجة … منذ فترة قريبة طاف بالبيوت وأمرَنا بألا نغني الأغاني أو نشغل الضوء. ويقول إنه لا يوجد قانون ينص على غناء الأغاني.

فيقول قاضي الناحية: انتظر، سيأتي دورك في الشهادة، أما الآن فليكمل بريشيبييف. أكمِل يا بريشيبييف!

فيقول الصول بصوته الأبح: حاضر يا فندم! حضرتك تقول إنه ليس من شأني تفريق الناس … طيب وإذا حدث اضطراب؟ هل من المعقول أن نسمح للناس بالعبث؟ أين هو القانون الذي ينص على إطلاق أيدي الناس؟ أنا لا أستطيع أن أسمح بذلك. وإذا لم أقم أنا بتفريقهم وتغريمهم فمن الذي سيفعل ذلك؟ لا أحد يعرف النظام المضبوط. أنا وحدي في القرية كلها يا صاحب السعادة الذي يعرف كيف يتعامل مع الناس البسطاء، أنا وحدي أستطيع أن أفهم كل الأمور يا صاحب السعادة. أنا لستُ فلاحًا، أنا صف ضابط، صول متقاعد، كنتُ أخدم في وارسو، في هيئة الأركان، وبعد ذلك، لما أحالوني إلى التقاعد، عملتُ في المطافئ، ثم عملتُ بوابًا لمدة سنتين في مدرسة ثانوية للبنين … أنا أعرف كل النُّظم. أما الفلاح فشخص بسيط، لا يفهم شيئًا وينبغي أن يطيعني؛ لأن ذلك من مصلحته. خذ مثلًا هذه القضية … كنت أُفرِّق الناس، وعلى الشاطئ، على الرمال، جثة غريق ميت. إني أتساءل: بأي حق ترقد هذه الجثة هنا؟ وهل هذا يتفق والنظام؟ لماذا لم يتحرك الدركي؟ قلت له: لماذا لم تُخطِر الرؤساء؟ ربما كان المرحوم الغريق غريقًا، وربما تفوح في الجو رائحة سيبيريا. ربما كانت هذه جريمة قَتْل … ولكن الدركي جيغين لا يبالي أبدًا، بل يدخن فقط. ويقول: «مَنْ هذا الآمر عندكم؟ من أين جئتم به، أم أننا بدونه لا نعرف كيف نؤدي عملنا؟»

فقلت له: إذن فأنتَ لا تعرف أيها الأحمق طالما تقف هكذا ولا تبالي.

فقال: «منذ أمس أخطرتُ رئيس الشرطة المحلية». فسألته: ولماذا أخطرت رئيس الشرطة المحلية؟ حسب أي مادة في القوانين؟ ألا تعرف أنه في مثل هذه الأحوال، في حالة الغرق أو الخنق وغيرها من الأحوال لا يستطيع رئيس الشرطة المحلية أن يَتصرَّف؟ القضية هنا جريمة … قانون مدني … القضية هنا تستدعي إخطار السيد وكيل النيابة والقضاة. وقبل كل شيء عليكَ أن تكتب محضرًا، وترسله إلى السيد قاضي الناحية. ولكنه أخذ يسمع ويضحك، والفلاحون أيضًا. كلهم ضحكوا يا صاحب السعادة. أقسم على ذلك. هذا ضحك أيضًا، وذلك الواقف هناك، وجيغين ضحك. فقلت لهم: ما لكم تسخرون؟ فقال الدركي: «قاضي الناحية لا يفصل في هذه القضايا». هذه الكلمات جعلتني أرتعش كالمحموم، وقال الصول مخاطبًا الدركي: ألم تقل ذلك؟

– قلتُ.

– الجميع سمعك وأنت تقول أمام العامة: «قاضي الناحية لا يفصل في هذه القضايا». سمعك الجميع وأنت تقولها ... ارتعشتُ كالمحموم يا صاحب السعادة، بل إني تجمدتُ رعبًا. قلت له: أعد أيها الوغد ما قلت! فأعاد هذه الكلمات نفسها ... فاقتربت منه وقلت له: كيف تجرؤ على قول هذا عن حضرة قاضي الناحية؟ أنت دركي شرطة وتقف ضد السلطة؟ هه؟ ألا تعرف أن سيادة قاضي الناحية إذا شاء يستطيع أن يحيلك إلى إدارة شرطة المحافظة جزاء على هذه الكلمات وبسبب عدم ولائك؟ ألا تعرف إلى أين يستطيع سيادة قاضي الناحية أن يرسل بك جزاءً على مثل هذا الكلام السياسي؟ فإذا العمدة يقول: «قاضي الناحية لا يستطيع أن يتجاوز حدوده. هو يفصل في القضايا الصغيرة فقط». هكذا قال، وقد سمعه الجميع ... فقلت له: كيف تجرؤ على تحقير السلطة؟ إياك أن تمزح معي وإلا كانت عاقبتك سيئة. فأيام كنتُ أخدم في وارسو، وأيضًا عندما كنت بوابًا في مدرسة البنين الثانوية، كنتُ ما إن أسمع كلمات غير مناسبة حتى أتطلع إلى الشارع بحثًا عن شرطي ثم أدعوه: «تعالَ هنا يا فارس.» وأخبره بكل شيء، أما هنا في القرية فمن الذي تقول له؟ استبدَّ بي الغضب. أحنقني أن ناس هذه الأيام تمادَوا في التصرُّف على هواهم والخروج عن الطاعة فرفعتُ قبضتي و... ضربته طبعًا ليس بقوة، بل هكذا، على خفيف؛ حتى لا يجرؤ على التفوُّه بهذه الكلمات عن معاليكم ... ودخل الدركي دفاعًا عن العمدة. وطبعًا ضربتُ الدركي ... ثم تطورَت الأمور ... لم أضبط أعصابي يا صاحب السعادة ... ولكن كيف يمكن للمرء ألا يضرب؟ إذا لم تضرب الشخص الغبي فأنت ترتكب ذنبًا، خاصة إذا كان يستحق ... إذا كان هناك اضطراب.

– عفوًا، هناك أشخاص مسئولون عن منع الاضطرابات. هناك الدركي والعمدة وشيخ الخفراء.

– الدركي لا يستطيع أن يحيط بكل شيء، كما أنه لا يفهم ما أفهمه أنا.

– فلتفهم أن هذا ليس من شأنك!

– ماذا؟ كيف ليس من شأني؟ غريب!

الناس يثيرون الفوضى وهذا ليس من شأني! حسنًا، هل أمتدحهم على ذلك؟ ها هم يشكون لكم من أنني منعتُ الغناء ... أي فائدة من هذه الأغاني؟ بدلًا من القيام بعمل مفيد يغنون الأغاني ... ثم هذه الموضة التي ساروا عليها: الجلوس في المساء وإشعال الضوء. ينبغي أن يناموا ولكنهم يجلسون وهم يتحدثون ويتضاحكون. لقد سجلتُ عندي!

– ماذا سجلتَ عندك؟

– أسماء الذين يجلسون مُشعلِين الضوء.

ويخرج بريشيبييف من جيبه ورقة مجعدة، ويضع النظارة على عينيه ويقرأ:

– الفلاحون الذين يجلسون مُشعلِين الضوء: إيفان بروخروف، سافا ميكيفوروف، بيوتر بتروف. زوجة الجندي شوستروفا، أرملة، تعاشر في الحرام سيميون كيسلوف. أجنات سفيرتشوك يزاول السحر، وزوجته مافرا ساحرة، تحلب في الليل أبقار الجيران.

– كفى!

يقول القاضي ويشرع في استجواب الشهود.

فيرفع الصول بريشيبييف نظارته إلى جبينه ويتطلع بدهشة إلى قاضي الناحية، الذي يبدو واضحًا أنه لا يقف في صفِّه. وتبرق عينَا الصول الجاحظتان، ويصطبغ أنفه بلون أحمر قانٍ. يتطلع إلى قاضي الناحية، وإلى الشهود ولا يستطيع أبدًا أن يفهم لماذا يبدو القاضي منفعلًا إلى هذا الحد، ولماذا تتردَّد من كل زوايا القاعة الهمهمات تارة، والضحك المكتوم تارة أخرى. والحكم أيضًا يبدو له غير مفهوم: الحبس شهرًا. فيقول مشيحًا بذراعيه في استغراب: لماذا؟ بأي قانون؟

ويبدو له واضحًا أن الدنيا تغيَّرت، وأن الحياة فيها أصبحت مستحيلة. وتنتابه أفكار سوداء مقبضة. ولكن عندما يخرج من القاعة ويرى الفلاحين المتجمهرِين يتحدثون عن شيء ما، يشد يديه إلى جنبيه في وضع انتباه بحكم العادة المتسلِّطة عليه، ويصرخ بصوت أبح غاضب: تفرَّقوا جميعًا! ممنوع التجمهر! انصراف!

الصبي الشرير

هبط إيفان إيفانيتش لابكين، الشاب اللطيف الهيئة، وآنا سيميونوفنا زامبليتسكايا، الشابة ذات الأنف الصغير المقعي، على الشاطئ المنحدر، وجلسَا على أريكة. وكانت هذه الأريكة تقوم قرب الماء تمامًا وسط خمائل الصفصاف اليافعة الكثيفة، مكان ساحر! ما إن تجلس هنا حتى تختفي عن العالم، فلا تراك إلا الأسماك والعناكب المائية الراكضة كالبرق فوق صفحة المياه. وكان الشاب والشابة مزوَّدَين بالسنانير والشِّباك وعُلب ديدان الطُّعم وغيرها من أدوات الصيد. وما إن جلسَا حتى شرعَا على الفور في صيد السمك.

وبدأ لابكين يقول وهو يلتفت: كم أنا سعيد بأننا أخيرًا أصبحنا وحدنا. أريد أن أقول لك الكثير يا آنا سيميونوفنا ... الكثير جدًّا ... عندما رأيتُك أول مرة ... سِنَّارتك تغمز ... أدركتُ عندها لأي غرض أحيا، أدركت أين معبودي الذي ينبغي أن أُكرِّس له كل حياتي الكادحة الشريفة ... يبدو أنها سمكة كبيرة تغمز ... ما إن رأيتك حتى أحببتك، لأول مرة، أحببتُ حبًّا جارفًا! انتظري لا تجذبي، دعيها تغمز ... خبريني يا عزيزتي، أستحلفك، هل أستطيع أن آمل لا بأن تبادليني الحب، كلا؛ فأنا لا أستحق، أنا حتى لا أجرؤ على التفكير في ذلك ... هل أستطيع أن أطمع في ... اسحبي!

رفعَت آنا سيميونوفنا يدَها عاليًا بالسنارة وشدَّتها وصرخَت. ولمعَت في الهواء سمكة فضية خضراء.

يا إلهي، فرخ، آي، آه ... أسرع! أفلتَت! أفلتَت السمكة من السِّنَّارة، وتلوَّت على العشب قافزة نحو محيطها و... غاصَت في الماء!

وبينما كان لابكين يطارد السمكة أمسك عفوًا بذراع آنا سيميونوفنا بدلًا من السمكة، وعفوًا ضمَّها إلى شفتيه ... وشدَّت هي ذراعها، ولكن بعد فوات الأوان: فقد أطبقَت الشفتان عفوًا في قبلة. حدَث ذلك عفوًا. وتلَت القبلة قبلة أخرى، ثم الأيمان والتأكيدات ... يا لها

من لحظات سعيدة! ولكن ليس هناك شيء سعيد بصورة مطلقة في هذه الحياة الدنيوية. فالشيء السعيد عادة يحمل في طياته السُّم، أو يُسمِّمه شيء ما خارجي. وهذا ما كان في هذه المرة أيضًا. فبينما كان الشاب والشابة يتبادلان القُبلات سمِعَا فجأة ضحكًا. نظرَا إلى النهر وأصابهما الذهول؛ فقد كان هناك صبي يقف في الماء عاريًا مغمورًا حتى وسطه. كان ذاك هو التلميذ كوليا؛ شقيق آنا سيميونوفنا. كان واقفًا في الماء ينظر إلى الشاب والشابة وهو يبتسم بخبث.

وقال: آه … تتبادلان القُبَل؟ طيب! سأقول لماما.

فدمَدم لابكين وهو يتضرج بالحمرة: آمل بأنك كإنسان شريف … إن التلصُّص شيء وضيع، والوشاية شيء مُنحطٌّ، حقير، كَريه … أعتقد أنك كإنسان شريف ونبيل.

فقال الإنسان النبيل: هاتِ روبلًا وعندئذ لن أقول! وإلا فسأقول.

وأخرج لابكين من جيبه روبلًا وأعطاه لكوليا، وضم هذا قبضته المبللة على الروبل وصفَّر، ثم سبح مبتعدًا. ولم يعد العاشقان الشابان إلى تبادُل القُبل بعد ذلك في هذا اليوم.

وفي اليوم التالي جلب لابكين أصباغًا وكُرة من المدينة لكوليا، وأهدَته أخته كل علب الأدوية الفارغة التي كانت تملكها. ثم اضطرَّا إلى إهدائه أزرار أكمام قميص بسحن كلاب. ويبدو أن هذا كله أعجب الصبي الشرير، ولكي يحصل على المزيد مضى يراقبهما. وأينما ذهب لابكين وآنا سيميونوفنا كان يذهب. ولم يتركهما دقيقة واحدة.

وصرَّ لابكين على أسنانه وقال: وغْد! ما أصغره، ومع ذلك فيا له من وغد كبير! ترى كيف سيصبح فيما بعد؟

وطوال شهر يونيو نغص كوليا على العاشقَين المسكينَين حياتهما. كان يهددهما بالوشاية، ويراقبهما ويطالب بالهدايا. ولم يكن يكفيه ما يحصل عليه، وفي آخر الأمر بدأ يتحدث عن ساعة جيب، فماذا؟ اضطرا أن يعداه بساعة.

وذات مرة، أثناء الغداء، عندما قدموا البسكوت المحشو بالحلوى، قهقه كوليا فجأة، وغمز بعينه وسأل لابكين؟

– أقول؟ هه؟

واحمر لابكين بشدة، وبدلًا من البسكوت راح يمضغ الفوطة. وهبت آنا سيميونوفنا واقفة من أمام المائدة وركضَت إلى غرفة أخرى.

وظل العاشقان في هذا الوضع حتى آخر أغسطس، حتى ذلك اليوم الذي طلب فيه لابكين أخيرًا يد آنا سيميونوفنا. أوه، كم كان يومًا سعيدًا! فبعد أن تحدث لابكين مع وَالِدَي

العروس وحصل على موافقتهما كان أول ما فعلَه أن انطلق إلى الحديقة ومضى يبحث عن كوليا. وعندما وجدَه كاد يعول من الفرحة وأمسك بهذا الولد الشرير من أذنه. وجاءت آنا سيميونوفنا ركضًا، فقد كانت هي الأخرى تبحث عن كوليا، وأمسكَت بأذنه الثانية. كان ينبغي أن ترى أي متعة ارتسمت على وجهَي العاشقَين عندما راح كوليا يبكي ويضرع إليهما: يا أحبَّائي، يا أعزَّائي، لن أعود إلى ذلك. آي، آي، سامحاني!

وبعد ذلك اعترفَا بأنهما لم يشعرا أبدًا طوال فترة حبهما بمثل هذه السعادة، بمثل هذه المتعة الغامرة، التي أحسَّا بها عندما كانَا يشدَّان أُذنَي هذا الولد الشرير.

وحشة

لمن أشكو حزني؟

غسق المساء. نُدَف الثلج الكبيرة الرطبة تدور بكسل حول مصابيح الشارع التي أُضِيئَت لِتوِّها، وتترسب طبقة رقيقة ليِّنة على أسطح المنازل وظهور الخيل، وعلى الأكتاف والقبعات. والحوذي أيونا بوتابوف أبيض تمامًا كالشبح. انحنى متقوسًا بقدر ما يستطيع الجسد الحي أن يتقوَّس وهو جالس على المقعد بلا حراك. ويبدو أنه لو سقط عليه كوم كامل من الثلج فلربما ما وجد ضرورة لنفضه ... وفرسه أيضًا بيضاء، تقف بلا حراك. وتبدو بوقفتها الجامدة، وعدم تناسق بدنها، وقوائمها المستقيمة كالعصيِّ حتى عن قرب أشبه بحصان الحلوى الرخيص. وهي على الأرجح مستغرِقة في التفكير. فمن انتزع من المحراث، من المشاهد الريفية المألوفة وألقى به هنا في هذه الدوامة المليئة بالأضواء الخرافية، والصَّخَب المتواصل والناس الراكِضِين، لا يمكن إلا أن يفكر.

لم يتحرَّك أيونا وفرسه من مكانهما منذ وقت طويل. كانا قد خرجَا من الدار قبل الغداء ولكنهما لم يستفتِحَا حتى الآن. وها هو ظلام السماء يهبط على المدينة. ويتراجع شحوب أضواء المصابيح مُفسحًا مكانه للألوان الحية، وتعلو ضوضاء الشارع.

ويسمع أيونا:

– يا حوذي! إلى فيبورجسكايا! يا حوذي!

ينتفض أيونا، ويرى من خلال رموشه المكلَّلة بالثلج رجلًا عسكريًّا في معطف بقلنسوة.

ويردد العسكري: إلى فيبورجسكايا، ماذا؟ هل أنت نائم؟ إلى فيبورجسكايا!

ويشد أيونا اللجام علامة الموافَقة، فتتساقَط إثر ذلك طبقات الثلج من على ظهر الفرس ومن على كتفيه ... ويجلس العسكري في الزحافة، ويطقطق الحوذي بشفتيه، ويمد

عنقه كالبجعة، وينهض قليلًا، ويلوح بالسوط بحكم العادة أكثر مما هو بدافع الحاجة. وتمد الفرس أيضًا عنقها، وتعوج قوائمها العصوية وتتحرك من مكانها بتردُّد.

وما إن يمضي أيونا بالزَّحَّافة حتى يسمع صيحات من الحشد المظلم المتحرك جيئة وذهابًا:

– إلى أين تندفع أيها الأحمق؟ أي شيطان ألقى بك؟ الزم يمينك!

ويقول العسكري بانزعاج: أنت لا تعرف كيف تسوق! الزم يمينك!

ويسبُّ حوذي عربة حنطور، ويُحدِّق بغضب أحد المارة، وكان يعبُر الطريق فاصطدَمَت كتفه بعنق الفرس، وينفض الثلج عن كمه، ويتمَلمَل أيونا فوق المقعد وكأنه جالِس على جمر، ويضرب بمرفقيه في كلا الجانبين، ويدور بنظراته كالممسوس، وكأنما لا يفهم أين هو ولماذا هو هنا.

ويسخر العسكري: يا لهم جميعًا من أوغاد! كلهم يسعون إلى الاصطدام بك أو الوقوع تحت أرجل الفرس. إنهم متآمرون ضدَّك.

يتطلع أيونا إلى الراكب ويحرك شفتيه ... يبدو أنه يريد أن يقول شيئًا ما، ولكن لا يخرج من حلقه سوى الفحيح.

فيسأله العسكري: ماذا؟

يلوي أيونا فمه بابتسامة ويوتِّر حنجرته ويفح: أنا يا سيدي ... هذا الأسبوع يعني ... ابني مات.

– إم! ومِمَ مات إذن؟

يستدير أيونا بجسده كله نحو الراكب ويقول: ومَن يدري؟ الظاهر من الحمى ... رقد في المستشفى ثلاثة أيام ومات ... مشيئة الله.

ويتردد في الظلام: حاسِب يا ملعون! هل عميتَ أيها الكلب العجوز؟ افتح عينيك!

ويقول الراكب: هيا، هيا سِر ... بهذه الطريقة لن نصل ولا غدًا. عجِّل!

ويمد الحوذي عنقه من جديد، وينهض قليلًا ويلوح بالسوط بحركة رشيقة متثاقلة. ويلتفت إلى الراكب عدة مرات، ولكن الأخير كان قد أغمض عينيه ويبدو غير راغب في الإنصات. وبعد أن ينزله في فيبورجسكايا يتوقَّف عند إحدى الحانات، وينحني متقوِّسًا وهو جالس على مقعد الحوذي، ويجمد بلا حراك مرة أخرى ... ومن جديد يصبغه الثلج الرطب هو وفرسه باللون الأبيض. وتمر ساعة أخرى، وأخرى.

على الرصيف يسير ثلاثة شبان وهم يقرقعون بأحذيتهم في صخب ويتبادلون السباب. اثنان منهم طويلان نحيفان، والثالث قصير أحدب. ويصيح الأحدب بصوت مرتعش: يا حوذي، إلى جسر الشرطة! ثلاثة ركاب ... بعشرين كوبيكا!

يشد أيونا اللجام ويطقطق بشفتيه. ليست العشرون كوبيكا بسعر مناسب، ولكنه في شغل عن السعر ... فسواء لديه روبل أم خمسة كوبيكات ... المهم أن يكون هناك ركاب ... يقترب الشبان من الزحافة وهم يتدافعون بألفاظ نابية، ويرتمي ثلاثتهم على المقعد دفعة واحدة. وتبدأ مناقشة قضية: من الاثنان اللذان سيجلسان، ومن الثالث الذي سيقف؟ وبعد سباب طويل ونزق وعتاب يصلون إلى حل: الأحدَب هو الذي ينبغي أن يقف باعتباره الأصغر.

فيقول الأحدب بصوته المرتعش وهو يثبت أقدامه ويتنفس في قفا أيونا: هيا عجِّل! اضرِبَها بالسوط! يا لها من قبعة لديك يا أخي! لن تجد في بطرسبرج كلها أسوأ منها.

فيقهقه أيونا: هئ ... هئ ... هئ ... هئ، هذا هو الموجود.

– اسمع أنت، أيها الموجود، عجِّل! هل ستسير هكذا طول الطريق؟ نعم؟ ألا تريد صفعة على قفاك؟

ويقول أحد الطويلين: رأسي يكاد ينفجر ... بالأمس شربتُ أنا وفاسكا عند آل دوكماسوف أربع زجاجات كونياك نحن الاثنان.

ويقول الطويل الآخر بغضب: لا أدري ما الداعي للكذب! يكذب كالحيوان.

– عليَّ اللعنة إن لم يكن حقيقة.

– إنها حقيقة مثلما أن القملة تسعل.

فيضحك أيونا: هئ ... هئ ... سادة ظرفاء!

ويقول الأحدب بسخط: فلتخطفك الشياطين! هل سَتعجِّل أيها الوباء العجوز، أم لا؟ هل هذا سير؟ ناولها بالسوط! هيا أيها الشيطان! هيا! ناولها جيدًا!

ويحس أيونا خلف ظهره بجسد الأحدب المتمَلمِل ورعشة صوته. ويسمع السباب الموجَّه إليه ويرى الناس فيبدأ الشعور بالوحدة ينزاح عن صدره شيئًا فشيئًا. ويظل الأحدب يسُبُّ حتى يغَص بسباب مُنتقًى فاحش وينفجِر في السعال. ويشرع الطويلان في الحديث عمن تُدعَى ناديجدا بتروفنا. ويتطلع أيونا نحوهم، وينتهز فرصة الصمت فيتطلع نحوهم ثانية ويدمدم: أصل أنا ... هذا الأسبوع يعني ... ابني مات!

فيتنهد الأحدب وهو يمسح شفتيه بعد السعال: كلنا سنموت ... هيا عجِّل، عجِّل! يا سادة، أنا لا يمكن أن أمضي بهذه الطريقة! متى سيوصلنا؟

– حسنًا فلتشجعه قليلًا ... في قفاه!

– هل سمعتَ أيها الوباء العجوز؟ سأكسر لك عنقك! التلطُّف مع جماعتكم معناه السير على الأقدام ... هل تسمع أيها الثعبان الشرير، أم تبصق على كلماتنا؟

ويسمع أيونا أكثر مما يحس بصوت الصفعة على قفاه. فيضحك:

– هئ ... هئ ... سادة ظرفاء ... ربنا يعطيكم الصحة!

ويسأل أحد الطويلين: يا حوذي، هل أنت متزوج؟

– أنا؟ هئ ... هئ ... سادة ظرفاء! لم يعد لديَّ الآن إلا زوجة واحدة: الأرض الرطبة ... هئ ... هوء ... هوء ... القبر يعني! ها هو ذا ابني قد مات وأنا أعيش ... حاجة غريبة، الموت غلط في الباب ... بدلًا من أن يأتيني ذهب إلى ابني.

ويلتفِت أيونا لكي يروي كيف مات ابنه، ولكن الأحدَب يتنهَّد بارتياح ويعلن أنهم أخير، والحمد لله، وصلوا. ويحصل أيونا على العشرين كوبيكا ويظل ينظر طويلًا في أثر العابثين وهم يختفون في ظلام المدخَل. وها هو ذا وحيد ثانية، ومن جديد يشمله السكون ... والوحشة التي هدأت قليلًا تعود تطبق على صدره بأقوى مما كان. وتدور عينا أيونا بقلق وعذاب على الجموع المهرولة على جانبي الشارع: ألن يجد في هذه الآلاف واحدًا يصغي إليه؟ ولكن الجموع تسرع دون أن تلاحظه أو تلاحظ وحشته ... وحشة هائلة، لا حدود لها. لو أن صدر أيونا انفجر، وسالت منه الوحشة فربما أغرقت الدنيا كلها، ومع ذلك لا أحد يراها. لقد استطاعت أن تختبئ في صَدَفة ضئيلة فلن تُرى حتى في وضوح النهار.

ويلمح أيونا بوابًا يحمل قرطاسًا فينوي أن يتحدث إليه، ويسأله: كم الساعة الآن يا ولدي؟

– التاسعة ... لماذا تقف هنا؟ امشِ!

يتحرك أيونا عدة أمتار، ثم ينحني مُتقوِّسًا، ويستسلم للوحشة ... ويرى أنه لا فائدة بعد من مخاطبة الناس. ولكن ما إن تمر بضع دقائق حتى يعتدل، وينفض رأسه كأنما أحس بوخزة ألم حادة، ويشد اللجام ... لم يَعُد قادرًا على التحمل.

ويقول لنفسه: «إلى البيت! إلى البيت!»

وكأنما فهمَتِ الفرس أفكاره فتبدأ في الركض بخبَب. وبعد حوالي ساعة ونصف يكون أيونا جالسًا بجوار فرن كبير قذر. وفوق الفرن، وعلى الأرض، وعلى الأرائك يتمدَّد أناس يشخرون. والجو مكتوم خانق.

يتطلع أيونا إلى النائمين ويحُك جِلده ويأسف لعودته المبكِّرة إلى البيت. ويقول لنفسه: «لم أكسب حتى حق الشعير ... ولهذا أشعر بالوحشة. الرجل الذي يعرف عمله ... الذي هو نفسه شبعان وفرسه شبعى، وهو دائمًا مطمئن البال».

في إحدى الزوايا ينهض حوذي شاب، ويزحر بصوت ناعس، ويمد يده إلى الدلو.

فيسأله أيونا: أردت أن تشرب؟

– كما ترى!

– طيب ... بالهنا والشفا ... أما أنا يا أخي فقد مات ابني ... هل سمعت؟ هذا الأسبوع، في المستشفى ... حكاية!

ويتطلع أيونا ليرى أي تأثير تركَته كلماته، ولكنه لا يرى شيئًا. فقد تغطَّى الحوذي الشاب حتى رأسه وغطَّ في النوم. ويتنهَّد العجوز ويحك جلده ... فمثلما رغب الحوذي الشاب في الشرب يرغب هو في الحديث. عما قريب يمر أسبوع منذ أن مات ابنه، بينما لم يتمكن حتى الآن من الحديث عن ذلك مع أحد كما يجب ... ضروري أن يتحدث بوضوح، على مهل ... ينبغي أن يروي كيف مرض ابنه، وكيف تعذب، وماذا قال قبل وفاته، وكيف مات ... ينبغي أن يصف جنازته وذهابه إلى المستشفى ليتسلم ثياب المرحوم. وفي القرية بقيت ابنته أينيسيا ... ينبغي أن يتحدث عنها أيضًا ... وعمومًا، فما أكثر ما يستطيع أن يرويه الآن! ولا بد أن يَتأوَّه السامع ويتنهَّد، ويرثي ... والأفضل أن يتحدث مع النساء. فهؤلاء وإن كنَّ حمقاوات، يعولن من كلمتين.

ويقول أيونا لنفسه: «فلأذهب لأتفقد الفرس ... أما النوم فبعدين ... سأشبع نومًا.»

يرتدي ملابسه ويذهب إلى الإصطبل حيث تقف فرسه. ويفكر في الشعير، والدريس والجو ... فعندما يكون وحده لا يستطيع أن يفكر في ابنه ... يستطيع أن يتحدث عنه مع أحد ما، أما أن يفكر فيه ويرسم لنفسه صورته فشيء رهيب لا يطاق.

ويسأل أيونا فرسه عندما يرى عينيها البراقتين: تمضغين؟ حسنًا، امضغي، امضغي ... ما دمنا لم نكسب حق الشعير فسنأكل الدريس ... نعم ... أنا كبِرت على السواقة ... كان المفروض أن يسوق ابني لا أنا ... كان حوذيًّا أصيلًا ... لو أنه فقط عاش.

ويصمُت أيونا بعض الوقت ثم يواصل: هكذا يا أختي الفرس ... لم يَعُد كوزما أيونيتش موجودًا ... رحَل عنَّا ... فجأة مات، خسارة ... فلنفرض مثلًا أن عندك مُهرًا، وأنت أم لهذا المُهر ... ولنفرض أن هذا المهر رحل فجأة ... أليس مؤسفًا؟

وتمضغ الفرس وتُنصِت وتزفر على يدي صاحبها ... ويندمج أيونا فيحكي لها كل شيء.

مزحة

ساعة الظهر في يوم شتائي صحو ... الصقيع شديد قارس، وحبات الجليد الفضية تكسو خصلات فودي «نادنكا»[١] والزغب فوق شفتها العليا. إنها تتأبَّط ذراعي، ونحن واقفان فوق تل مرتَفع. ويمتد من أقدامنا حتى الأرض شريط مُنحدِر تشرق عليه الشمس كأنما تطل في مرآة. وبجوارنا زحَّافة صغيرة مكسوَّة بالجوخ الأحمر القاني.

وأتوسل إليها: فلنتزحلق إلى أسفل يا ناديجدا بتروفنا! مرة واحدة أرجوك! أؤكد لك أننا سنصل سالِمين دون أذًى!

ولكن نادنكا خائفة. وتبدو لها المسافة من قدميها الصغيرتين حتى نهاية التل الجليدي هوةً مُرعِبة لا قرار لها. وتحبس أنفاسها وتلهث بمجرد أن تنظر إلى أسفل، بمجرد أن أعرض عليها الجلوس في الزحافة، فماذا سيحدث إذن لو أنها غامرت بالقفز إلى الهوة؟ ستموت فورًا أو تُجن.

وأقول لها: أتوسل إليكِ لا داعي للخوف! فلتفهمي، إن هذا ضعف، جبن!

وأخيرًا ترضخ نادنكا، فأرى في وجهها أنها ترضخ مخاطِرةً بحياتها.

وأجلسها في الزَّحَّافة وهي شاحبة مرتجفة، وأُطوِّقها بذراعي، وأرتمي معها في الهوة.

تطير الزَّحَّافة كالرصاصة. ونشق الهواء فيلفَحنا في وجهَيْنا، ويعول، ويصفر في آذاننا ويعربد، ويخزنا بألم من شدة الغضب، ويريد أن ينتزع رأسَيْنَا من أكتافنا. ومن شدة ضغط الريح لا نقوى على التنفس. يبدو وكأن الشيطان نفسه قد طوَّقَنا بيديه، وأخذ

---

[١] «نادنكا» و«ناديا» تدليل من الاسم الكامل «ناديجدا». (المُعَرِّب)

يشدُّنا إلى الجحيم وهو يزأر. وتندمج الأشياء المحيطة بنا في شريط طويل سريع راكض … ويُخيَّل إلينا أننا الآن، بعد لحظة، سنلقى حَتفَنا! وأقول بصوت خافت: أحبك يا ناديا!

وتَقِل سرعة الزَّحَّافة شيئًا فشيئًا، ولا يعود زئير الريح وأزيز قضبان الزَّحَّافة يبدوان مخيفين، وتكف الأنفاس عن الاحتباس، وأخيرًا نجد أنفسنا عند أسفل التل. أما نادنكا فبين الحياة والموت. إنها شاحبة، لا تكاد تتنفس … وأساعدها على النهوض.

– لن أتزحلق مرة أخرى أبدًا — تقول وهي تتطلع إليَّ بعينين واسعتَين مِلؤُهما الرعب — أبدًا، أبدًا! كدتُ أموت!

وبعد قليل تعود إلى حالتها الطبيعية، وترمُقني بنظرات متسائلة: أهو أنا الذي أنا قلت تلك الكلمات الثلاث، أم خُيِّل إليها أنها سمعَتها في صخب الإعصار؟ أما أنا فأقف بجوارها أدخن، وأتفحص قفازي باهتمام.

وتتأبط ذراعي، ونَتنزَّه طويلًا بجوار التل. يبدو أن اللغز يُحيِّرها. هل قيلت تلك الكلمات، أم لا؟ نعم، أم لا؟ نعم، أم لا؟ إنها قضية كرامة، شرف، حياة، سعادة، قضية مهمة جدًّا، أهم قضية في الدنيا. وتتطلع نادنكا إلى وجهي بلهفة، وحزن، بنظرة ثاقبة، وترد بغير ما أسأل، وتنتظر هل سأبدأ أنا الحديث؟ أو، يا له من صراع يرتسم على هذا الوجه الرقيق، يا له من صراع! وأرى كيف تُغالب نفسها، تريد أن تقول شيئًا ما، تريد أن تسأل عن شيء ما، لكنها لا تجد الكلمات المناسبة، وتشعر بالحرج، والرهبة، وتعوقها الفرحة … وتقول دون أن تنظر إليَّ:

– أتدري؟

فأسألها:

– ماذا؟

– هيا مرة أخرى … نتزحلق.

نصعد سُلَّمًا إلى التل. ومن جديد أُجلِس نادنكا الشاحبة المرتجِفَة في الزحَّافة، ومن جديد نطير إلى الهُوَّة الرهيبة، ومن جديد تزأر الريح وتؤز القضبان، ومن جديد، وفي قمة طيران الزحافة وصخبها، أقول بصوت خافت: أحبك يا نادنكا!

وحينما تتوقف الزَّحَّافة تُلقي نادنكا نظرة على التل الذي انحدرنا من فوقه لتونا، ثم تتفحص وجهي طويلًا، وتصغي إلى صوتي اللا مبالي المحايد، وتنطق كلها، حتى موفتها وقلنسوتها، وهيأتها كلها، بالدهشة البالغة. وعلى وجهها قد كتب:

«ما الأمر؟ من الذي تفوَّه بتلك الكلمات؟ هو، أم أن ذلك خُيِّل إليَّ؟»

ويقلقها هذا المجهول ويخرجها عن صبرها. ولا ترد الفتاة المسكينة على أسئلتي، وتعبس وهي توشك على البكاء. وأسألها: هلَّا عُدْنا إلى البيت؟

فتقول وهي تتضرج: ولكني ... أنا يعجبني هذا التزحلق. ألا نتزحلق مرة أخرى؟

«يعجبها» هذا التزحلق، بينما يشحب وجهها وترتعش، وتحتبس أنفاسها خوفًا كما في المرتين السابقتين عندما تجلس في الزحافة.

نهبط للمرة الثالثة، وأراها تحدق في وجهي وتراقب شفتيَّ. فأضع منديلًا على فمي وأسعل، وعندما نبلغ منتصف التل أتمكن من الهمس: أحبك يا ناديا!

ويظل اللغز لغزًا! وتصمت نادنكا وهي تفكر في شيء ما ... وأمضي لأوصلها من ميدان التزحلق إلى بيتها، فتتعمد هي أن تسير على مهل، وتبطئ من خطواتها، وطوال الوقت تنتظر أن أقول لها تلك الكلمات. وأرى كيف تتعذب روحها، وكيف تغالب نفسها لكي لا تقول:

«لا يمكن أن تكون الريح هي التي قالتها! كما أنني لا أريد أن تكون الريح هي التي قالتها!»

وفي صباح اليوم التالي أتلقى رسالة قصيرة: «إذا كنت تنوي الذهاب اليوم إلى ميدان التزحلق، مر عليَّ – ن.» ومنذ ذلك اليوم وأنا أذهب مع نادنكا يوميًّا إلى ميدان التزحلق، وعندما نهوي بالزحافة إلى أسفل، أقول في كل مرة بصوت خافت نفس الكلمات: أحبك يا ناديا!

وسرعان ما تتعود نادنكا هذه الجملة، كما يتعود المرء الخمر أو المورفين. ولا تستطيع أن تحيا بدونها. صحيح أنها ظلت تخاف الهبوط من التل، ولكن الخوف والخطر أصبحا يضفيان سحرًا خاصًّا على كلمات الحب، هذه الكلمات التي بقيت كما كانت لغزًا يثير الأشجان. والشك ما زال محصورًا في اثنين: أنا والريح ... من منا الذي يبوح لها بحبه؟ إنها لا تعرف، ولكن يبدو أن الأمر أصبح بالنسبة إليها سيان. لا يهم من أي وعاء تشرب، المهم أن تصبح ثملًا.

وذات مرة، ذهبت في الظهر إلى ميدان التزحلق وحدي. وعندما اختلطت بالحشد، رأيت نادنكا تقترب من التل وهي تبحث عني بعينيها ... ثم ارتقت السلم في وجل ... كم هو مرعب أن تتزحلق وحدها، أوه كم هو مرعِب! إنها شاحبة بلون الثلج، وترتجف، تمضي وكأنما تساق إلى ساحة الإعدام، ولكنها تمضي، بإقدام وحزم. يبدو أنها قررت أخيرًا أن تجرب: ترى هل ستسمع تلك الكلمات الحلوة المدهشة وأنا غير موجود؟ وأراها وهي

تركب الزحافة، شاحبة، مفغورة الفم من الرعب، وتغمض عينيها، وتودع الأرض إلى الأبد، وتنطلق من مكانها ... وتَؤز قضبان الزحافة: «ز ... ز ... ز». ترى هل تسمع نادنكا تلك الكلمات؟ لست أدري ... أرى فقط أنها تنهض من الزَّحَّافة منهكة، خائرة. ويبدو من وجهها أنها هي نفسها لا تدري هل سمعت شيئًا، أم لا. فقد سلبها الخوف وهي تهوي إلى أسفل القدرة على السمع وتمييز الأصوات والفهم.

وها هو ذا شهر مارس، شهر الربيع، يأتي ... وتصبح الشمس أكثر رقة. ويميل لون تلنا الجليدي إلى القتامة، ويفقد بريقه، وأخيرًا يذوب. ونكف عن التزحلق. ولا يعود لدى نادنكا المسكينة مكان تسمع فيه تلك الكلمات، بل وليس هناك من يقولها؛ لأن الريح لم تعد تسمع، أما أنا فأستعد للسفر إلى بطرسبرج لمدة طويلة، وربما إلى الأبد.

وذات مرة، قبل سفري بحوالي يومين، كنت جالسًا في الحديقة ساعة الغسق. وكان هناك سور مرتفع بمسامير يفصل هذه الحديقة عن الفناء الذي يقع فيه بيت نادنكا ... كان الجو لا يزال باردًا، والثلج لم يذب كله تحت السماد، والأشجار ميتة، ولكن روائح الربيع انتشرت في الجو، والغربان تصيح بصخب وهي تأوي إلى النوم. اقتربت من السور وأخذت أنظر طويلًا في الشق. ورأيت نادنكا تخرج إلى درج المدخل، وتتطلع إلى السماء بنظرة حزينة ملتاعة ... وتلفح رياح الربيع وجهها الشاحب المكتئب ... وتذكرها بتلك الريح التي كانت تزأر آنذاك في وجهينا فوق التل حينما سمعت تلك الكلمات الثلاث، فيصبح وجهها حزينًا حزينًا، وتتدحرج على خدها دمعة ... وتمد الفتاة المسكينة ذراعيها، كأنما تسأل هذه الريح أن تحمل إليها مرة خرى تلك الكلمات. فأنتظر دفقة ريح وأقول بصوت خافت: أحبك يا ناديا!

يا إلهي، ماذا جرى لنادنكا! إنها تصرخ وتبتسم بوجهها كله، وتمد ذراعيها لملاقاة الريح، متهللة، سعيدة، في غاية الجمال.

وأنصرف لأرتب حقائبي.

كان ذلك منذ زمن بعيد. أما الآن فنادنكا متزوِّجة. زوجها أو تزوَّجت — هذا سيان — من سكرتير مجلس وصاية النبلاء، ولديها ثلاثة أطفال. ولكنها لم تنسَ كيف كنا نذهب في الماضي إلى ميدان التزحلق، وكيف حملت الريح إليها كلمات «أحبك يا ناديا». أصبح هذا بالنسبة إليها الآن أسعد وأرق وأروع ذكرى في الحياة.

أما أنا الآن، وبعد أن صرت أكبر، فلا أفهم لماذا قلت تلك الكلمات، ولأي غرض كنت أمزح.

فانكا

في ليلة عيد الميلاد لم يَنم الصبي فانكا جوكوف ابن الأعوام التسعة والذي أَعطَوه منذ ثلاثة أشهر للإسكافي ألياخين ليعمل صبيًّا لديه، وانتظر حتى انصرف أصحاب البيت والأسطوات إلى الصلاة فأخرج من صوان الإسكافي محبرة وقلمًا بسن صدئ، وفَرَش أمامه ورقة مُجعَّدة وراح يكتب. وقبل أن يخُط أول حرف نظر إلى الباب والنوافذ بحذر، وتطلَّع بطرف عينه إلى الأيقونة الداكنة التي امتدَّت على جانبيها أرفف مُحمَّلة بالنعال، وزفر زفيرًا متقطِّعًا. كانت الورقة مبسوطة على الأريكة، أما هو فقد جَثا على ركبتيه أمامها. وكتب:

«جدي العزيز قسطنطين مكاريتش! أنا أكتب إليك خطابًا. أهنئكم بعيد الميلاد وأرجو لك من الله كل خير. أنا ليس لديَّ أب ولا أم، ولم يبقَ لي غيرك وحدك.»

وحوَّل فانكا بصره إلى النافذة المظلِمة التي عكست ضوء شمعته المتذبذِب، وتخيَّل بوضوح جَدَّه قسطنطين مكارتش الذي يعمل حارسًا ليليًّا لدى السادة آل جيفارف. هو عجوز صغير نحيل إلا أنه خفيف الحركة بصورة غير عادية، وفي حوالي الخامسة والستين، ذو وجه بَاسِم دائمًا وعينَين ثَملتَين. كان نهارًا ينام في مطبخ الخدم أو يُثرثر مع الطاهيات، أما في الليل فيطوف حول بيت السادة متدثرًا بمعطف فضفاض من جلد الحمل ويدق على صفيحة، ومن خلفه يسير مطأطِئَي الرأسين الكلبة العجوز «كاشتانكا»، والكلب «فيون» الذي سُميَ هكذا للونه الأسود وجسده الطويل كالنمس. كان هذا الـ«فيون» مهذبًا ورقيقًا بصورة غير عادية، وكان ينظر بنفس الدرجة من التأثر سواء لأصحابه أم للغرباء، ولكنه لم يكن يحظى بالثقة. كان يخفي تحت تهذيبه واستكانته خبثًا غادرًا إلى أقصى حد؛ فلم يكن هناك من هو أحسن منه في التلصُّص في الوقت المناسب ليعض الساق، أو التسلل إلى المخزن، أو سرقة دجاجة من بيت فلاح. وقد حطَّموا له ساقيه الخلفيتين غير مرة، وعلَّقوه مرتين، وكانوا يضربونه كل أسبوع حتى الموت، ولكنه كان يُبعَث من جديد.

وربما يقف الجَد الآن أمام البوابة ويَزِر عينيه وهو يتطلَّع إلى نوافذ كنيسة القرية الساطعة الحمرة، ويثرثر مع الخدَم وهو يدُق الأرض بحذائه اللبَّاد. والصفيحة التي يدق عليها مُعلَّقة إلى خصره. ويشيح بيديه ثم يتململ من البرد، ويضحك ضحكة عجوز ويقرص الخادم تارة والطاهية تارة أخرى.

ويقول وهو يقدِّم للفلَّاحات كيس تبغه: ألا ترغَبْن في استنشاق التبغ؟

وتستنشق الفلَّاحات ويعطسْنَ، ويستولي على الجَد إعجاب لا يوصف ويقهقه بمرح ويصيح: بِقوَّة وإلا لزقَت!

ويقدِّمون التبغ للكلاب لتشمه. وتعطس «كاشتانكا»، وتلوي بوزها، وتبتَعِد مغضبة. أما «فيون» فلا يعطس تأدبًا، بل يهز ذيله. والجو رائع؛ الهواء هادئ وشفاف ومنعش، والليل حالِك ومع ذلك تلوح القرية كلها بأسقف منازلها البيضاء وأعمدة الدخان المنبعِثة من المداخن، والأشجار وقد كساها الثلج ثوبًا فضيًّا، وأكوام الثلج، والسماء كلها مرصَّعة بنجوم تتراقص بمرح، ويبدو درب التبَّانة واضحًا كأنما غسلوه قبل العيد ودعكوه بالثلج.

وتنهَّسد فانكا، وغمس الريشة في الحبر ومضى يكتب:

«بالأمس ضربوني علقة، شدَّني المعلم من شعري إلى الحوش وضربني بقالب الأحذية؛ لأني كنتُ أهز ابنه في المهد فنعستُ غصبًا عني. وفي هذا الأسبوع أمرتني المعلمة أن أقشر فسيخة، فبدأتُ أقشرها من ذيلها فشدَّت مني الفسيخة وأخذَت تحك رأسها في وجهي. والأسطوات يسخرون من بيت المعلم، والمعلم يضربني بكل ما يقع في يده، وليس هناك أي طعام. في الصباح يعطونني خبزًا، وفي الغداء عصيدة، وفي المساء أيضًا خبزًا، أما الشاي أو الحساء فالسادة وحدَهم يشربونه. ويأمرونني أن أنام في المدخل، وعندما يبكي ابنُهم لا أنام أبدًا وأهزُّ المهد. يا جدي العزيز، اعمل معروفًا لله وخُذني من هنا إلى البيت في القرية لم أَعُد أحتمل أبدًا … أتوسل إليك وسوف أُصلِّي لله دائمًا، خذني من هنا وإلا سأموت …»

وقلص فانكا شفتيه ومسح عينيه بقبضته السوداء وأجهش.

ومضى يكتب: «سأطحَن لك التبغ، وأُصلِّي لله، وإذا بَدَر مني شيء فاضربني كما يُضرَب الكلب. وإذا كنتَ تظن أنه ليس لي عمل فسأرجو الخولي بحق المسيح أن يأخذني ولو لتنظيف حذائه، أو أعمل راعيًا بدلًا من فيدكا. يا جدي العزيز، لم أعد أحتمل أبدًا، لا شيء سوى الموت. أردتُ أن أهرب إلى القرية ماشيًا ولكن ليس لديَّ حذاء وأخشى الصقيع. وعندما أصبح كبيرًا سوف أطعمك مقابل هذا ولن أسمح لأحد أن يمسَّك، وإذا مُتَّ يا جدي فسأصلي من أجل روحك كما أصلي من أجل أمي بلاجيا. وموسكو مدينة كبيرة، والبيوت

كلها بيوت أكابر، والخيول كثيرة، وليس هناك غنم، والكلاب ليست شريرة، والأولاد في العيد لا يطوفون بالبيوت مُنشدِين ولا يُسمَح لأحد بالذهاب للترتيل في الكنيسة. ومرة رأيت في أحد الدكاكين، في الشباك، صنانير تُباع بخيوطها لصيد كل أنواع السمك، عظيمة جدًّا، بل وتوجد صنارة تتحمَّل قرموطًا وزنه بود.[١] ورأيت دكاكين فيها مختلف أنواع البنادق التي تشبه بنادق السادة، ويمكن الواحدة منها أن تساوي مائة روبل ... وفي دكاكين اللحوم يوجد دجاج الغابة وأرانب، ولكن الباعة لا يقولون أين يصطادونها.

يا جدي العزيز، عندما يقيم السادة شجرة عيد الميلاد خُذ لي جوزة مُذهَّبة وخبِّئها في الصندوق. قل للآنسة أولجا أجناتيفنا إنها من أجل فانكا.»

وتنهَّد فانكا وسَمَّر عينيه في النافذة من جديد، وتذكر أن جده كان دائمًا يذهب للغابة لإحضار شجرة عيد الميلاد ويصحب معه حفيده، يا له من عهد سعيد! كان الجد يتنحنح والثلج يتنحنح وفانكا يتنحنح مثلهما، وكان يحدث أن الجد، قبل أن يقطع الشجرة، يجلس ليدخن الغليون، ويشم التبغ طويلًا وهو يضحك من فانكا المقرُور ... وشجيرات عيد الميلاد الشابَّة تقف ملفعة بالثلج وساكنة وهي تنظر أَيُّها التي ستموت؟ وفجأة يمرق أرنب كالسهم عَبر أكوام الثلج ... ولا يستطيع الجد أن يمسك نفسه عن الصياح: أَمسِك، أَمسِك ... أَمسِك! آه، يا شيطان يا ملعون!

ثم يسحب الجد الشجرة المقطوعة إلى منزل السادة؛ حيث يَشرعون في تزيينها ... وكانت الآنسة أولجا أجناتيفنا التي يُحبُّها فانكا، هي التي تنشغل أكثر الجميع. وعندما كانت أم فانكا بيلاجيا على قيد الحياة وتعمل خادمًا لدى السادة، كانت أولجا أجناتيفنا تُعطي لفانكا الحلوى، ولَمَّا لم يكن لديها ما تعمله فقد علَّمَته القراءة والكتابة والعَد حتى مائة، بل وحتى رقصة الكادريل. ولما ماتت بيلاجيا، أرسلوا فانكا اليتيم إلى جده في المطبخ مع الخدَم، ومن المطبخ إلى موسكو عند الإسكافي ألياخين.

ومضى فانكا يكتب: «احضر يا جدي العزيز. أستحلِفك بالمسيح الرب أن تأخذني من هنا، أَشفِق عليَّ أنا اليتيم المسكين؛ لأن الجميع يضربونني، وأنا جوعان جدًّا، ولا أستطيع أن أَصِف لك وحشتي، وأبكي طوال الوقت. ومن مدة ضربني المعلم بالنعل على رأسي حتى وقعتُ ولم أفِق إلا بصعوبة. ما أضيَعَ حياتي! أسوأ من حياة أي كلب ... تحياتي لأليونا ويجوركا الأحول، والحوذي، ولا تعطِ الهارمونيكا لأحد.

---

[١] البود: وحدة وزن روسية تساوي ١٦٫٣٨ كيلوجرامًا. (المُعَرِّب)

حفيدك دائمًا إيفان جوكوف، احضر يا جدي العزيز.»

وطوى فانكا الورقة المكتوبة أربع مرات ووضَعها في مُظروف كان قد اشتراه من قبل بكوبيك ... وفكَّر قليلًا ثم غمس الريشة وكتب العنوان:

إلى قرية جدي ...

وحكَّ رأسه وفكَّر، ثم أضاف: «قسطنطين مكاريتش».

وارتدى غطاء الرأس وهو سعيد؛ لأن أحدًا لم يُعِقه عن الكتابة، ولم يضع المعطف على كتفيه، بل انطلق إلى الخارج بالقميص فقط.

كان الباعة في دكان الجزار الذي سألهم من قبل قد أخبروه أن الرسائل تُلقَى في صندوق البريد، ومن الصناديق تُنقَل إلى جميع أنحاء الأرض على عربات بريد بحوذية سكارى وأجراس رنانة. وركض فانكا إلى أول صندوق بريد صادفه، ودس الرسالة الغالية في فتحة الصندوق.

وبعد ساعة كان يغط في نوم عميق وقد هَدْهَدت الآمال الحلوة روحه ... وحلم بالفرن. كان جده جالسًا على الفرن مُدلِّيًا ساقيه العاريتين وهو يقرأ الرسالة للطاهيات ... وبجوار الفرن يسير «فيون» ويهز ذيله.

هرج

ما إن عادت ماشنكا بافليتسكايا، الفتاة الشابة، التي أنهت دورة المعهد النسائي مؤخرًا، من نزهتها إلى دار آل كوشكين؛ حيث كانت تَقطُن وتعمل مُربِّية، حتى رأت هرجًا لم يسبق له مثيل. وكان البوَّاب ميخايلو الذي فتح لها الباب مُنفعِلًا وأحمر الوجه كسرطان البحر.

ومن أعلى تناهى ضجيج.

وفكَّرت ماشا: «لا بد أن السيدة أصيبت بنوبة ... أو أنها تشاجرت مع زوجها ...»

والتقَت في المدخل ثم في الطرقة بالخادمات، وكانت إحداهن تبكي، ثم رأت ماشنكا كيف خرج من باب غرفتها هي ربُّ الدار نفسه نيقولا سيرجييتش، وهو رجل صغير، لم يهرم بعد، ذو وجه مُتقزِّز وصلعة كبيرة. كان محمرًّا، يرتعد ... ومر بجوار المربِّية دون أن يلحظها، وصاح هاتفًا وهو يرفع يديه إلى أعلى: أوه، ما أفظعَ هذا! يا للنعدام اللباقة! ما أغبَى هذا! ما أشنعَه! ما أَحطَّه!

دخلَت ماشنكا غرفتها، وهنا كابدَت لأول مرة في حياتها وبكل حِدَّة، ذلك الإحساس المعروف جيدًا لمن هم في وضع التبعية، لغير القادرِين على الرد، لمن يعيشون في كَنَف الأغنياء الأكابر. كانت غرفتُها تتعرَّض للتفتيش وكانت ربة الدار فيدوسيا فاسيليفنا، وهي امرأة بدينة، عريضة الكتفين، ذات حاجبين أسودين كثيفين وشعرٍ مُسترسِل، حادَّة التقاطيع، بشارب خفيف لا يكاد يُلحَظ، وذراعين حمراوين، تشبه بوجهها وحركاتها طاهية من عامة الناس، كانت تقف إلى جوار مكتب ماشنكا وتعيد إلى حقيبة يدها لَفائف صوف وقطع قماش، وأوراقًا ما ... ويبدو أن مجيء المربِّية كان مفاجأة لها؛ لأنها عندما التفتَت ورأت

وجهها الشاحب المندَهِش، ارتبكَت قليلًا وغمغمت: Pardon،[1] أنا … أنا … سقطَت مِني عفوًا … اشتبكَت بكُمِّي.

وبعد أن دمدمَت مدام كوشكينا بكلمات ما، هفهفَت بذيل فستانها وخرجَت. وطافَت ماشنكا بنظرات مندهِشة على غرفتها، وهزَّت كتفيها وهي لا تفهم شيئًا ولا تدري، ماذا تظن، وتثلَّجَت أطرافها خوفًا … عمَّ كانت فيدوسيا فاسيليفنا تُفتِّش في حقيبة يدها؟ لو كان صحيحًا ما قالت بأن كُمَّها اشتبك عفوًا بالحقيبة فتبعثَرت محتوياتها، فلماذا إذن انفلَت نيقولاي سرجيييتش من الغرفة مُحمرًّا ومنفعِلًا بتلك الصورة؟ ولماذا يَبرُز قليلًا أحد أدراج المكتب؟ والحصالة التي كانت المُربِّية تخبئ فيها قطع النقود والطوابع القديمة كانت مفتوحة. لقد فتحوها ولكنهم لم يتمكَّنوا من إغلاقها رغم أنهم مَلئوا القُفل بالخدوش. وكان رَفُّ الكُتب وسطح المكتب والفراش … كل ذلك كان يحمل آثار التفتيش القريب. وكذلك سلة الملابس. كانت الملابس مُرتَّبة بعناية، ولكن ليس بنفس الترتيب الذي وضعَته بها ماشنكا قبل أن تُغادر المنزل. إذن فقد جرى تفتيش حقيقي، وتفتيش بمعنى الكلمة، ولكن ما الداعي له؟ ولماذا؟ ماذا حدَث؟ وتذكَّرت ماشنكا اضطراب البواب، والهرج الذي ما زال مستمرًّا، والخادم الباكية … أليس لكل ذلك علاقة بالتفتيش الذي جرى في غرفتها منذ قليل؟ أتكون متورِّطة في قضية رهيبة؟ امتقعَت ماشنكا وتهالكَت فوق سلة الملابس باردة الجسم تمامًا.

ودخلَت الخادم الغرفة، فسألتها المُربِّية: ليزا، ألا تعرفين لماذا … فتشوني؟

فقالت ليزا: ضاع من السيدة بروش ثَمنُه ألفا روبل.

– طيب، ولكن لماذا يُفتشونني؟

– فتشوا الجميع يا آنسة. وأنا فَتَّشوني كلي … جرَّدُونا من ملابسنا تمامًا وفَتَّشونا … إنني يا آنسة … يشهد الله … لم أَلَمس بروش السيدة، بل لم أقترب حتى من تسريحتها … ومُستعِدَّة أن أقول ذلك حتى للشرطة.

ومضت المربية تقول بدهشة: ولكن … لماذا يفتشونني؟

– قلتُ لك إن البروش قد سُرِق … السيدة نفسها فُتَّشت بيدها كل شيء … حتى البواب ميخايلو فتَّشَته بنفسها. يا للعار! ونيقولاي سجرييتش لا يستطيع أن يفعل إلا أن

[1] عفوًا «بالفرنسية في الأصل». (المُعَرِّب)

ينظر ويقوقئ كالدجاجة. أما أنتِ يا آنسة فعَبثًا ترتعدين. لم يَجدوا شيئًا لديك! ما دمتِ لم تأخذي البروش فليس هناك ما تَخشَيْنَه.

فقالت ماشنكا وهي تَختنق من الغضب: ولكن هذا يا ليزا وَضيع ... مُهين! إنها خِسَّة، وَضاعة! بأي حق تَشك فيَّ وتفتِّش أغراضي؟

فتنهَّدَت ليزا قائلة: أنت تعيشين عند الغير يا آنسة ... ورغم أنك آنسة ... فمع ذلك ... أنت كالخادم ... ليس هذا مثل العيش عند بابا وماما.

ارتَمت ماشنكا على السرير وانتحَبَت بحُرقة. لم يحدُث أبدًا من قبل أن تعرَّضَت لمثل هذا القهر، ولم يحدُث أبدًا من قبل أن أُهينَت بهذه الصورة كما حدث الآن ... هي الفتاة الحسَّاسة، المؤدَّبة، ابنة مدرِّس، يرتابون فيها كسارقة، ويفتشونها كامرأة من الشارع! لا يمكن، فيما يبدو، أن تكون هناك إهانة أكبر من هذه. واقترن بهذا الإحساس بالإهانة خوف ثقيل: تُرى ماذا سيحدث؟! وطافت برأسها شتَّى الخواطر الخرقاء، فإذا كانوا قد ارتابوا في أنها سارقة، فهذا يعني أنه من الممكن أن يعتقلوها، ويُجرِّدوها من ملابسها ويفتشوها، ثم يسوقوها في الشارع تحت الحراسة، ويضعوها في زنزانة مُظلِمة باردة مع الفئران والصراصير، زنزانة تشبه بالضبط تلك التي وُضِعَت فيها الأميرة تراكانوفا.[٢] فمن ذا الذي سيدافع عنها؟ أهلها يعيشون بعيدًا في الأرياف، وليس لديهم نقود ليأتوا إليها. وهي وحيدة في العاصمة، كأنما في حقل خاوٍ، بلا أهل ولا معارف. يستطيعون أن يفعلوا بها كل ما يريدون.

وفكَّرَت ماشنكا وهي ترتعش: «سألجأ إلى كل القضاة والمحامِين ... سأشرح لهم الأمر، وسأقسم ... وسيصدقون أنني لا يمكن أن أكون سارقة!»

وتذكَّرَت ماشنكا أن لديها في سلة ملابسها، تحت الملاءات، بعض الحلوى، التي كانت تخبئها حسب عادتها القديمة أيام المعهد في أثناء الغداء، ثم تحملها إلى غرفتها. وارتجفت من فكرة أن سِرَّها الصغير هذا أصبح معروفًا لأصحاب الدار، وشعَرت بالخجل، وبسبب هذا كله؛ بسبب الخوف والخجل والإهانة راح قلبُها يدُق بعنف، وتتردَّد دقاته في صدغيها ويديها وفي أعماق أحشائها.

[٢] لوحة شهيرة للمصور فلافيتسكى ١٨٦٤م، تُصوِّر الأميرة تراكانوفا التي ادَّعَت أحقِّيَتها بعرش روسيا وهي في فرنسا عام ١٧٧٢م، وأُلقِي القبض عليها في إيطاليا، وأُعِيدت إلى بطرسبرج؛ حيث سُجِنت في قلعة بطرس وباول، وتُوفِّيت بالسل. (المُعَرِّب)

وسمَعت صوتًا يدعوها: تَفضَّلي للغداء!

«أذهب، أم لا؟»

سوَّت ماشنكا شَعْرها، ومَسحَت وجهها بمنشفة مبلَّلة، وذهبت إلى غرفة الطعام وكانوا هناك قد بدءوا الغداء ... وعلى أحد طرفي المائدة جلسَت فيدوسيا فاسيلسفنا، بعظمة، بوجه بليد جَاد، وعلى الطرف الآخر جلس نيقولاي سيرجييتش. وعلى الجانبين جلس الضيوف والأولاد. وقام وصيفان يرتديان حلل «الفراك» والقفازات البيضاء بتقديم الطعام. وكان الجميع يعلمون أن الهرج يعم المنزل، وأن ربة الدار تعاني الفجيعة، فلَزِموا الصمت. ولم يكن يُسمع سوى صوت المضغ ودقَّات الملاعق على الأطباق.

وبدأَت الحديث رَبَّة الدار نفسها. فسألَت الوصيف بصوت فاتر معذَّب: ماذا لدينا للطبق الثالث؟

فأجاب الوصيف: أستورجون ألا روس!

وأسرع نيقولاي سرجييتش يقول: أنا الذي طلبتُه يا فينيا ... رغبتُ في السمك ... إذا كان لا يعجبك يا ma chère[٣] فدعيه لا يُقدِّمه ... أنا الذي طلبته هكذا ... بالمناسبة.

لم تكن فيدوسيا فاسيليفنا تحب الأكلات التي لا توصي هي بِطلبِها، وها هما عيناها الآن تغرورقان بالدموع.

– ما هذا؟ لا ينبغي أن تنفعلي. قال ماميكوف؛ طبيبها المنزلي، بصوت معسول، وهو يلمس ذراعها برقة ويبتسم أيضًا ابتسامة معسولة: نحن بدون ذلك عصبيون بما فيه الكفاية. فلننسَ البروش! الصحة أغلى من ألفي روبل!

فأجابَت رَبة المنزل بينما انحدرَت دمعة كبيرة على خدها: أنا لا آسَفُ على الألفَي روبل. إن ما يستفزني هو الواقعة بحد ذاتها! لن أصبر في بيتي على اللصوص ... أنا لا أبخل، لا أبخل بشيء، ولكن أن يسرقوني ... يا له من جحود! أهكذا يكافئونني على طيبتي؟

كان الجميع يَنظرون في أطباقهم، بيد أنه خُيِّل لماشنكا أنهم جميعًا تطلَّعوا إليها بعد كلمات ربة الدار. وفجأة أطبقَت الغُصَّة على زورها، فبكَت وضغطَت بالمنديل على وجهها.

ودمدمَت: Pardon، أنا لا أستطيع؛ أشعر بصداع، سأذهب.

ونهضَت من المائدة فأثارَت جلبة بكرسيها وازدادت ارتباكًا فأسرعت بالانصراف.

---

[٣] عزيزتي «بالفرنسية في الأصل». (المُعَرِّب)

وقال نيقولاي سرجييتش ممتعضًا: الله يعلم ما هذا! ما كان ينبغي تفتيشها! هذا في الحقيقة … غير مناسب.

فقالت فيدوسيا فاسيليفنا: أنا لا أَدَّعي أنها أَخذَت البروش، ولكن هل تستطيع أن تضمنها؟ أنا بصراحة لا أميل إلى تصديق هؤلاء الفقيرات المثقَّفات.

– حقًّا يا فينيا هذا غير مناسب … عفوًا يا فينيا، ولكنك لا تملكين قانونيًّا أي حق في إجراء تفتيش.

– أنا لا أعرف قوانينكم، أنا أعرف فقط أنه قد ضاع مني بروش، وهذا كل ما هنالك. وسوف أجد هذا البروش!

وضربَت الطبق بالشوكة، ولمعَت عيناها بغضب: أما أنتَ فلتأكلْ، ولا تتدخلْ في شئوني!

خفض نيقولاي سرجييتش بصره باستكانة وتَنهَّد، أما ماشنكا، فبعد أن وصلَت إلى غرفتها، ارتمَت على الفِراش. لم تَعُد تشعر بالخوف أو الخجل، بل راحت تعذبها رغبة قوية في أن تذهب وتصفع تلك المرأة القاسية المتغطرسة البليدة السعيدة على خديها.

وأخذَت، وهي راقدة تتنفَّس في الوسادة، تحلم بأنه كم يكون جميلًا لو استطاعَت أن تذهب الآن وتشتري أغلى بروش وتُلقي به في وجه هذه الحمقاء المستبِدَّة. لو أن الله يشاء فينزل الخراب بفيدوسيا فاسيليفنا فتمضي تتسول؛ لتدرك كل فَظاعة الفقر ووضع التَّبعيَّة، ولو أن ماشنكا المُهانة تمد لها عندئذ يدها بحسنة! أوه لو أنها تحصل على ميراث كبير، فتشتري عربة وتمر بها في جلبة من أمام نوافذ فيدوسيا فاسيليفنا لكي تحسدها!

بيد أن كل ذلك كان مجرد أحلام، أما في الواقع فلم يكن أمامها إلا شيء واحد؛ أن تذهب من هنا بسرعة، ألا تبقى هنا ولا ساعة واحدة.

صحيح أنه من المخيف أن تفقد الوظيفة، لتعود مرة أخرى إلى أهلها الذين لا يملكون شيئًا، ولكن ما العمل؟ لم تعد ماشنكا تطيق رؤية ربة الدار ولا غرفتها الصغيرة، كانت تشعر هنا بالاختناق والرعب. ضاقت بفيدوسيا فاسيليفنا، المهووسة بأمراضها وأرستقراطيتها المزعومة، إلى درجة بَدَا لها معها أن كل شيء في العالم أصبح فظًّا وقميئًا بسبب وجود هذه المرأة. وقفزت ماشنكا من السرير وراحت تجمع حاجياتها.

– هل أستطيع الدخول؟ سأل نيقولاي سرجييتش من وراء الباب. كان قد اقترب من الباب بخطوات لا تسمع، وقال بصوت خافت ليِّن: ممكن؟

– ادخل.

ودخل ووقف إلى جوار الباب. كانت تطل من عينيه نظرة كابية، ولمع أنفه الصغير الأحمر. لقد شرب البيرة بعد الغداء، وظهر ذلك واضحًا من مشيته ويديه الضعيفتَين الذابلتَين.

وسأل وهو يشير إلى السلة:

– ما معنى هذا؟

– أجمع أغراضي. اعذرني يا نيقولاي سرجييتش، ولكني لا أستطيع البقاء في داركم. لقد كان هذا التفتيش إهانة بالغة لي!

– مفهوم ... ولكن عبثًا تفعلين هذا ... لماذا؟ ليكن أنهم فَتشوكِ ... أما أنت ... فماذا يضيرك؟ لن ينقص منك شيئًا.

لزمَت ماشنكا الصمت، ومضَت تجمع أغراضها.

وشد نيقولاي سرجييتش شعر شاربه وكأنه يفكر فيما يمكن أن يضيفه ومضى يقول بصوت مُتملِّق: أنا طبعًا مُقدِّر، ولكن ينبغي أن تكوني متسامِحة. أنت تعرفين أن زوجتي عصبية، غير مُتَّزِنة، ولكن لا داعي للقسوة في الحكم.

وصمتت ماشنكا.

واستطرد نيقولاي سرجييتش: إذا كنتِ تشعرين بأنك قد أُهِنت إلى هذه الدرجة، فحسنًا ... إنني مستعدٌّ لأن أعتذر لك. أرجو المعذرة.

لم تجب ماشنكا بشيء، بل انحنت أكثر فوق حقيبتها. لم يكن لهذا الرجل الهزيل الضعيف الإرادة أي وزن في المنزل. كان يلعب دورًا بائسًا لشخص عالة وزائد حتى عند الخدم. ولم يكن لاعتذاره أيضًا أي وزن.

– هم ... تصمتين؟ تعتبرين هذا غير كافٍ؟ إذًا فأنا أعتذر عن زوجتي. باسم زوجتي ... لقد تصرَّفَت بعدم لباقة، وأنا أعترف بذلك كنبيل.

وتمشَّى نيقولاي سرجييتش قليلًا، وتَنهَّد، ثم أضاف: إذن فأنتِ تريدين أن أشعر بالوخز هنا، تحت القلب ... أنت تريدين أن يُعذِّبني ضميري.

فقالت ماشنكا وهي تنظر في وجهه مباشرة بعينيها الواسعتَين الباكيتين: أنا أعرف يا نيقولاي سرجييتش أنك لستَ مذنبًا. فلماذا إذن تتعذب؟

– طبعًا ... ولكن مع ذلك لا تفعلي هذا ... لا تذهبي ... أرجوك.

فهزَّت ماشنكا رأسها بالنفي. وتوقَّف نيقولاي سرجييتش عند النافذة وأخذ ينقر بأصابعه على الزجاج. وقال: بالنسبة لي تُعتَبر كل هذه المشاكل عذابًا حقيقيًّا. ماذا تريدين

أن أفعل؟ هل أركع على ركبتي أمامك؟ أم ماذا؟ لقد أُهينَت كرامتك، وها أنتِ ذي قد بَكيت، وتَنْوِين الرحيل، ولكن أنا أيضًا لديَّ كرامة، وأنتِ لا ترحمينها. أم أنك تريدين أن أقول لك ما لن أقوله على كرسي الاعتراف؟ تريدين؟ اسمعي، أتريدين أن أعترف لك بما لن أعترف به حتى في لحظة الموت؟

ولزمَت ماشنكا الصمت.

– أنا الذي أخذتُ البروش من زوجتي!

قال نيقولاي سرجييتش بسرعة: هل أنتِ راضية الآن؟ مرتاحة؟ نعم، أنا أخذتُه ... ولكني بالطبع آمل في شهامتك ... أستحلفك، ولا كلمة لأحد، ولا شبه تلميح!

ومضَت ماشنكا تجمع أغراضها في دهشة وذُعر. كانت تلتقط الأشياء وتعصرها وتدسها بلا نظام في الحقيبة والسلة. وبعد الاعتراف الصريح الذي أدلى به نيقولاي سرجييتش لم يَعُد بوسعها أن تبقى دقيقة واحدة، ولم تعد تفهم كيف استطاعت أن تعيش قبل ذلك في هذا المنزل.

ومضى نيقولاي سرجييتش يقول بعد صمت قصير: ليس هناك ما يدعو للدهشة ... إنها قصة عادية! كنت بحاجة إلى نقود، وهي ... لا تعطيني. إن هذا المنزل وكل ما هنا ... من ثروة أبي يا ماريا أندرييفنا! كل هذا ملكي، والبروش كان لأمي و... كل هذا ملكي! لكنها أخذَت كل شيء، استولَت عليه ... ولتوافقيني، فليس من المعقول أن أقاضيها ... أرجوك، بشدة أن تعذريني و... تَبْقَي، tout comprendre tout pardonner[٤] هل تبقين؟

فقالت ماشنكا بحزم وبدأت ترتعش: كلَّا! دعني أرجوك.

– طيب، سامحكِ الله. قال نيقولاي سرجييتش مُتنهِّدًا وهو يجلس على الأريكة بجوار الحقيبة. أنا في الحقيقة أحب أولئك الذين ما زالوا قادرِين على الشعور بالغضب والاحتقار وغيره. بِودِّي لو جلستُ دهرًا أتطلع إلى وجهك الغاضب ... إذن فلن تَبقي؟ مفهوم ... لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ... نعم، طبعًا ... أنتِ محظوظة، أما أنا ف ... هس! ولا خطوة من هذا القبو ... ولو ذهبت إلى أي ضَيعة من ضياعنا فسأجد هناك أذناب زوجتي في كل مكان ... أولئك الخوليون، والمهندسون الزراعيون، فلتخطفهم الشياطين. يرهنون كل شيء ويعيدون رَهْنه ... ممنوع صيد السمك، ممنوع دوس الأعشاب، ممنوع تحطيم الأشجار.

[٤] فهم كل شيء؛ يعني الصفح عن كل شيء، «بالفرنسية في الأصل». (المُعَرِّب)

وتناهى من الصالة صوت دوسيا فاسيليفنا: نيقولاي سيرجيييتش! يا أجنيا، نادِي السيد!

وسأل نيقولاي سرجيييتش وهو ينهض بسرعة ويتجه إلى الباب: إذن لن تبقي؟ ربما تَبقَين مع ذلك! إي والله ... إذن لجئتُ إليكِ في المساء ... وتحدَّثْنا ... هه؟ ابقَي! لو ذهبتِ فلن يبقى في البيت كله وجه إنساني واحد ... هذا فظيع!

كان وجه نيقولاي سرجيييتش الهزيل الشاحب يتوسَّل، ولكن ماشنكا هزَّت رأسها نفيًا، فأشاح بيده وخرج.

وبعد نصف ساعة كانت في الطريق.

الذئب

كان الإقطاعي نيلوف، وهو رجل ممتلئ، قوي الجسم، مشهور في المُحافَظة كلها بقوَّته البدنية الخارقة؛ عائدًا من الصيد ذات مساء مع المحقِّق كوبريانوف، فَعرجَا على الطاحونة، عند العجوز مكسيم. وكان قد بقيَ على ضيعة نيلوف حوالي فَرسخَين فقط، ولكن الصيادَيْن أدركهُمَا التعب فلم يجدَا مَيلًا إلى مواصَلة السَّيْر، وقرَّرَا التوقُّف في الطاحونة لاستراحة طويلة. وكان لهذا القرار ما يُبرِّره. خاصة أن مكسيم لديه شاي وسُكَّر، أما الصيَّادان فكانَا يملكان احتياطيًّا لا بأس به من الفودكا والكونياك ومختلف الأطعمة المنزلية.

وبعد الأكل أخذ الصيادان يتناولان الشاي، واتَّصل حَبْل الحديث، وسأل نيلوف مخاطبًا مكسيم: ماذا لديكم من جديد يا جدي؟

فضحك العجوز ضحكة ساخرة قصيرة: ماذا لدينا من جديد؟ الجديد لدينا هو أنني أريد أن أطلب من جنابكم بندقية.

– وما حاجتك إلى البندقية؟

– ماذا؟ ربما لم أكن بحاجة إليها. هذا مجرد طلب ... للتظاهر بالأهمية ... فعلى أي حال، أنا لا أرى جيدًا حتى أُطلِق النار. الشيطان وَحدَه يعلم من أين جاء هذا الذئب المسعور. يركض هنا لليوم الثاني ... مساء الأمس عَقر مُهرًا وكلبين قرب القرية، واليوم خرجتُ في الفجر فإذا به، الملعون، جالس تحت الصفصافة يضرب بُوزَه بِكفِّه. وصِحتُ به: «امشِ!» ولكنه ظلَّ يُحدِّق فيَّ كالعفريت ... ضربتُه بحجر فطقطق بأنيابه وبرقَت عيناه كالشموع، وركض نحو غابة الصفصاف الرجراج ... كِدتُ أموت من الخوف.

فدمدم المحقِّق:

– الشيطان يعلم ما هذا ... هنا ذئب مسعور يركض، ونحن نتسكَّع.

– وماذا في ذلك؟ فالبنادق معنا.

– ولكنك لن تقتل الذئب بعيار رش.

– ولماذا تُطلق النار؟ يمكن الإجهاز عليه بكعب البندقية.

وراح نيلوف يُؤكِّد أنه ليس هناك شيء أسهل من قتل الذئب بكعب البندقية، وروى حادثة قضى فيها بضربة واحدة بعصا عادية على كَلب مسعور ضخم هجم عليه.

فتنهَّد المحقق وهو ينظر بحسد إلى كتفي نيلوف العريضتين:

– مِن السهل عليك أن تقول ذلك! ففيكَ من القوة، والحمد لله، ما يكفي عشرة. تستطيع أن تقتل الكلب لا بالعصا بل بإصبعك. أما المسكين من أمثالنا فإلى أن يشرع في رفع العصا، وإلى أن يُحدِّد المكان الذي يُوجِّه إليه الضربة، يكون الكلب قد عضه خمس مرات. يا لَه من شيء مزعج ... ليس هناك مرَض أشد عذابًا وفظاعة من السُّعار. عندما رأيت إنسانًا مسعورًا لأول مرة ظللتُ خمسة أيام أسير ذاهلًا، ويومَها كرهتُ كل أصحاب الكلاب في الدنيا. فأولًا هذا المرض بوقعه المفاجئ المرتَجل ... إذ يسير الإنسان سليمًا، مطمئنًّا، لا يفكر في شيء، وفجأة يعضه كلب مسعور! وعلى الفور تتملك الإنسان فكرة فظيعة بأنه هالِك لا محالة، ولا مُنقِذ له ... وبعد ذلك يمكنكم أن تتصوروا الانتظار المرهِق المُقبِض للمرض، والذي لا يترك المعضوض لحظة واحدة. وبعد الانتظار يأتي المرض ... أما أفظعُ شيء فهو أن هذا المرض لا علاج له. إذا مرضتَ به فقد كُتب عليك الهلاك. وليس هناك في الطب، على قدر علمي، حتى مجرد إشارة إلى إمكانية الشفاء.

فقال مكسيم: عندنا في القرية يعالجونه يا سيدي. مِيرون يستطيع أن يشفي من تريد.

فزفر نيلوف قائلًا: هُراء ... كل ما يقال عن ميرون مجرد ثرثرة. في العام الماضي عَقر كلب مسعور ستيوبكا، ولم يُسعفه أي ميرون ... أُصيب بالسُّعار رغم كل ما سقاه من أشياء كريهة. كلَّا يا جدي، ليس من الممكن عمل شيء. لو حدَث لي ذلك، لو عضَّني كلب مسعور، لأطلقتُ على رأسي رصاصة.

وكان لهذه الأحاديث الرهيبة عن السُّعار أثرها؛ إذ كفَّ الصيادان تدريجيًّا عن الكلام، وواصَلا شُرب الشاي في صَمْت. وفكَّر كل منهما لا إراديًّا في أن حياة الإنسان وسعادته رهن بالصُّدف والأشياء التافهة، الضئيلة فيما يبدو، التي لا تساوي، كما يقال، شَروى نَقير. وخيَّمَت الكآبة والحزن عليهم جميعًا.

وبعد تناوُل الشاي تمطَّى نيلوف ونهض ... وأحسَّ برغبة في الخروج إلى الهواء الطَّلق. وبعد أن تمشَّى قليلًا بجوار مخزن الغلال، فتح بابًا صغيرًا وخرج. كان الغسق قد غاب منذ وقت بعيد، وحل المساء بكل أبعاده. وغاب النهر في سُبات عميق هادئ.

وعلى السدِّ المغمور بنور القمر لم تكن هناك قطعة ظل. وفي منتَصَف السد لمَعَت كنجمة رقبةُ زجاجة مكسورة. وبدَت عجَلَتا الطاحونة، المختفِيتان إلى نصفيهما في ظل صفصافة عريضة، غاضبَتَين وكئيبتين، وزفَر نيلوف بملء رئتيه وتطلَّع إلى النهر ... كان كل شيء ساكنًا بلا حراك. واستغرقَت المياه والشاطئان في النوم، وحتى السمك لم يُطرطِش ... بيد أن خُيِّل لنيلوف فجأة أن شيئًا يُشبه الظل قد تدحرَج كالكُرة السوداء على الشاطئ الآخر، وراء خمائل الصفصاف. وزَرَّ عينيه، فاختفى الظل، ثم سرعان ما ظهر وتدحرج نحو السد في خطوط متعرجة.

وهتف نيلوف في سره: «الذئب!»

ولكن قبل أن يَجول بخاطره التفكير في ضرورة العودة ركضًا إلى الطاحونة، كانت الكرة السوداء قد تدحرَجت فوق السد ليس نحوه مباشرة، بل في خطوط متعرِّجة.

وفكَّر نيلوف وهو يشعر بأن جلد رأسه تحت الشعر يَقشعِر: «إذا جريتُ هاجمني من الخلف ... يا إلهي، ليس معي حتى عصا! فلأقف في مكاني و... سأخنقه.»

وأخذ نيلوف يراقب بانتباه حركات الذئب وتعابير بَدنِه. كان الذئب يجري على حافَّة السد، وأصبح الآن يحاذيه.

وفكَّر نيلوف وهو لا يُحوِّل نظره عنه: «إنه يمر بي!»

بيد أن الذئب في تلك اللحظة، ودُون أن يتطلع إليه أصدر، كأنما بلا رغبة، صوتًا متحشرجًا مُستعطِفًا، ثم حوَّل وجهه نحوه وتوقَّف، وكأنما كان يفكِّر: هل يهاجمه أم يتجاهله؟

وفكر نيلوف: «ينبغي أن أضربه بقبضتي في رأسه ... أُفقِدُه صوابه ...»

وارتبك نيلوف إلى درجة أنه لم يعرف من الذي بدأ المعركة: هو، أم الذئب؟ أدرك فقط أنه قد حلَّت لحظة رهيبة بصفة خاصة، لحظة حرجة، تتطلَّب منه تركيز كل قُوَّته في يده اليمنى والإطباق على رقبة الذئب من قفاه. وهنا وقع شيء خارق صعب تصديقه، شيء بدَا لنيلوف ذاته أنه حلم. فقد زأر الذئب الممسوك مُتشكِّيًا واندفع بقوة حتى إن طبقَة جلده الباردة الرطبة، التي أطبقت عليها يد نيلوف، انزلقَت من بين أصابعه. ووقفَ الذئب على ساقيه الخلفيتين محاولًا أن يُحرِّر قفاه. عندئذ أطبق نيلوف بيده اليسرى على ساقه

الأمامية اليمنى، وضغط عليها تحت الإبط مباشرة، ثم نزع يده اليمنى بسرعة من قَفا الذئب وأطبق بها على إبطه الأيسر، ورفع الذئب في الهواء. جرى ذلك كله في طرفة عين؛ ولكي يمنع نيلوف الذئب من عضه في يديه، ولكي لا يُمكِّنه من تحريك رأسه، غرز إبهامي يديه كمِهْمازَين في رقبة الذئب عند عظمة الترقوة … وارتكز الذئب بساقيه الأماميتَين في كتفي نيلوف، وإذ وجد بهذه الصورة نقطة ارتكاز انتفض بقوة رهيبة. لم يكن بوسعه أن يعض يدي نيلوف حتى المرفق، كما عاقَتْه عن مد فمه إلى وجه نيلوف وكتفيه الإصبعان المغروزتان في عنقه مسببتين له ألمًا شديدًا.

وفكَّر نيلوف وهو يدفع رأسه إلى الخلق إلى أقصى ما يمكن: «يا للفظاعة! لُعابُه سقط على شفتي. إذن فقد هلكتُ حتى لو تخلصتُ منه بمعجزة».

وصاح: الحقوني! يا مكسيم! الحقوني!

كان كل من نيلوف والذئب يُحدِّقان في أعين بعضهما البعض ورأسهما على مستوًى واحد … وقضقض الذئب بأسنانه، وأصدر أصواتًا متحشرجة، وطرطَش لعابه … وتخبَّطت ساقاه الخلفيتان بركبتي نيلوف بحثًا عن نقطة ارتكاز … ولمع القمر في عيني الذئب، ولكن لم يَبدُ فيهما أي ظل لغضب، كانتَا تبكيان، وبدتَا أشبه بعيون بشرية.

وصاح نيلوف من جديد: الحقوني، يا مكسيم!

ولكنهم في الطاحونة لم يسمعوه. كان يدرك بغريزته أن الصراخ بصوت عالٍ قد يضعف قوته؛ ولذلك كان يصرخ بصوت غير عالٍ.

وقرَّر في نفسه: «سوف أتراجع بظهري … وعندما أصل إلى الباب سأصرخ.»

وبدأ يتراجَع، ولكنه لم يكد يقطع ذراعين حتى أحس بأن يده اليمنى تضعف وتتخدَّر. ثم سرعان ما جاءت اللحظة التي سمع فيها هو صراخه اليائس، وأحس بألم حاد في كتفه اليمنى، ولزوجة دافئة تَسيل فجأة على يده كلها وصدره. ثم سمع صوت مكسيم، وأدرك تعبير الرعب المرتسم على وجه المحقق الذي جاء ركضًا.

ولم يفلت عدوه من قبضته إلا عندما بسطوا أصابعه بالقوة وأكدوا له أن الذئب قد قُتل. وعاد إلى الطاحونة ذاهلًا تحت وطأة أحاسيس قوية وهو على وشك الإغماء، وقد أحس بالدم يسيل على فخذيه وفي حذائه الأيمن. وأعادته النار ومنظر السَّماوَر وزجاجات الخمر إلى وعيه، وذكَّرَته بكل ما عاناه لِتوِّه من رعب، وبالخطر الذي بدأ الآن فقط يَتهدَّده. وجلس على الزكائب شاحبًا، بحدقَتَين مُتَّسعتَين ورأس مُبلَّل، وأرخى ذراعيه مُرهقًا. وجرَّده المحقِّق ومكسيم من ملابسه، وانهَمَكا في تضميد جرحه. كان جرحًا كبيرًا. فقد مزَّق الذئب جلد

الكتف كلها، بل وأصاب العضلات. وقال المحقق محتجًّا وهو يوقف النزيف: لماذا لم تُلقِ به في النهر؟ لماذا لم تقذِف به في النهر؟

– لم أفطن! يا إلهي، لم أفطن!

وأراد المحقق أن يُخفِّف عنه ويُؤمِّله خيرًا، ولكن بعد تلك الألوان الصارخة التي أضفاها على السُّعار بسخاء عندما وصفه من قبل، لم يعد ثمة معنى لكلمات التسرية، فوجد من الأفضل أن يصمت. وبعد أن ضمَّد الجرح كيفما اتفق، أرسل مكسيم إلى الضيعة لإحضار العربة، ولكن نِيلوف لم يرغب في انتظارها، ومضى إلى البيت سيرًا على الأقدام.

وفي الصباح، في حوالي السادسة، جاء إلى الطاحونة شاحبًا، مشعثًا وقد هزل من الألم والسُّهاد.

وقال مخاطبًا مكسيم: يا جدي، خُذني إلى ميرون! بسرعة! هيا، اجلس في العربة.

وارتبَك مكسيم، الشاحب أيضًا، والذي لم ينم طول الليل، وتلفَّت حوله عدة مرات، ثم قال بهمس: لا داعي يا سيدي للذهاب إلى ميرون ... أنا أيضًا، لا مؤاخذة، أستطيع أن أعالج.

– طيِّب، لكن بسرعة أرجوك!

وراح نيلوف يخطو في مكانه بضيق صدر. وأوقفه العجوز مديرًا وجهه ناحية الشرق وتمتم بكلمات ما، وقدَّم له كوزًا به سائل دافئ كريه الرائحة طعمه كالشيح ليشربه. ودمدم: ولكن ستيوبكا مات ... لنفرض أن هناك أدوية شعبية ولكن ... ولكن لماذا مات ستيوبكا إذن؟ خُذني مع ذلك إلى ميرون!

ومَن ميرون، الذي لم يثق به، توجَّه إلى المستشفى، إلى الطبيب أفتشينيكوف. وبعد أن حصل هناك على حبوب البلادونة وعلى نصيحة بملازمة الفِراش، بدَّل الخيول ودون أن يعبأ بالألم الرهيب في ذراعه، انطلق إلى أطباء المدينة.

وبعد حوالي أربعة أيام، وفي ساعة مُتأخِّرة من المساء دخل راكضًا على أفتشينيكوف، وارتمى على الكنبة.

– يا دكتور! قال مُختنقًا وهو يمسح العرق من وجهه الشاحب المهزول بكُمه: يا جريجوري أيفانيتش! اصنع بي ما تريد، لكني لا أستطيع أن أبقى هكذا بعد الآن! إما أن تعالجني وإما أن تسقيني السم، لكن لا تدعني هكذا! أتوسل إليك! لقد جننتُ!

فقال أفتشينيكوف: عليك أن تُلازِم الفِراش.

– أوه فلتذهب بفراشك إلى الشيطان! إنني أسألكَ بوضوح، بلغة روسية: ماذا أفعل؟ أنت طبيب ويجب أن تساعدني! إنني أتعذَّب! في كل لحظة يُخيَّل إليَّ أنني بدأتُ أنسعر.

أنا لا أنام ولا آكل، ولا أستطيع أن أُزاول عملًا! ها هو ذا المسدس في جيبي، وكل لحظة أُخرجُه لكي أطلق رصاصة على رأسي! جريجوري إيفانيتش، عليكَ أن تهتم بي، أرجوك! ماذا أفعل؟ ما رأيك؟ هل أذهب إلى البروفيسورات؟

– الأمر سيان، اذهب إذا أردتَ.

– اسمع، ماذا لو أعلنتُ مسابقة أُعطي فيها خمسين ألف روبل لمن يشفيني؟ ما رأيك، هه؟ ولكن إلى أن أعلن عنها في الصحف، وإلى أن ... أكون قد انسعرت عشر مرات، أنا مستعِد الآن أن أهب ثروتي كلها! اشفني وسأعطيك خمسين ألفًا! عالجني أرجوك! أنا لا أفهم هذه اللامبالاة المحنقة من جانبك! افهمني، إنني الآن أحسد كل ذبابة ... أنا تعيس! وأسرتي تعيسة!

واختلج كِتفا نيلوف، وشرع يبكي.

فبدأ أفتشينيكوف يُطيِّب خاطره:

– اسمَع ... أنا إلى حدٍّ ما لا أفهم انفعالَك هذا. لماذا تبكي؟ ولماذا تُهوِّل من الخطر إلى هذه الدرجة؟ فلتفهم أن لديك فُرصًا لعدم المرض أكثر بكثير من فرص المرض؛ فأولًا: من كل مائة معضوض لا يمرض إلا ثلاثون، وعلاوة على ذلك، وهذا مهم جدًّا، فقد عضَّك الذئب عبر الملابس، وإذن فقد بقي السم في الملابس. وحتى لو وصل السم إلى الجرح فلا بد أن يخرج مع الدم؛ لأنك نزفت بشدة، إنني مطمئن تمامًا بشأن السُّعار، وإذا كان هناك ما يقلقني فهو جرحك فقط. فمع إهمالك هذا من السهل أن تصاب بالحمرة، أو بشيء من هذا القبيل.

– صحيح؟ هل تُطيِّب خاطري أم تتكلم بجد؟

– أقسم بشرفي أتكلم بجد ... خُذ، اقرأ!

وتناول أفتشينيكوف كتابًا من الرَّف، وأخذ، وهو يتجنب المواضع المخيفة، يقرأ لنيلوف فصلًا عن السُّعار.

وقال بعد أن فرغ من القراءة: إذن فعبثًا تقلق. زِد على ذلك كله أننا لا نعلم ما إذا كان ذلك الذئب مسعورًا أم سليمًا.

– هم ... نعم ... وافق نيلوف مبتسمًا. طبعًا، الآن مفهوم. إذن فكل ذلك هراء.

– طبعًا هراء.

– أشكرك يا عزيزي ... وضحك نيلوف بمرح وهو يفرك يديه. أنا الآن مطمئِن أيها العلامة النابه ... أنا مسرور، بل سعيد ... إي والله ... صحيح، بل ... أقسم بشرفي.

وعانَق نيلوف أفتشينيكوف وقبَّلَه ثلاث مرات. ثم تَملَّكه طيش صبياني، الأمر الذي يميل إليه بطبيعتهم الأشخاص الطيبون، الأقوياء البدن. فالتقطَ من على الطاولة حُدوة وأراد أن يُقوِّمها، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا وقد أنهكَته الفرحة والألم في كتفه. فاكتفى بأن طوق الدكتور أسفل خصره اليسرى وحمله على كتفه من مكتبه إلى غرفة الطعام. وغادَر أفتشينيكوف فرِحًا، سعيدًا، بل بدَا أن الدموع التي لمعَت على لحيته السوداء العريضة كانت تفرح معه. وعندما هبط على الدَّرج ضحك بصوت غليظ وهزَّ درابزين الدَّرج الخارجي بقوة، حتى إنَّ إحدى خشباته انخلعَت، بينما اهتز الدرج الخارجي كله تحت أقدام أفتشينيكوف.

وقال أفتشينيكوف في سِرِّه وهو يُحدِّق في ظهر نيلوف العريض: «يا له من عملاق! يا له من جدع!»

وعندما جلس نيلوف في العربة بدأ يحكي مرة أخرى من البداية وبكل التفاصيل صِراعه مع الذئب فوق السد.

وأنهى روايته ضاحكًا: يا لَه من صراع! سيكون هناك ما أتذكره في الشيخوخة. أسرع يا تريشكا!

عند زوجة رئيس النبلاء

في أول فبراير من كل عام، وفي عيد القدِّيس تريفون، تدُب حركة غير عادية في ضَيعة أرملة رئيس نبلاء الإقليم السابق تريفون لفوفتش زافزياتوف؛ ففي هذا اليوم تُقِيم أرملة رئيس النبلاء لوبوف بتروفنا قدَّاسًا على روح المرحوم، وبعد القُدَّاس صلاة شكر للسيد الرب. ويأتي الإقليم كله لحضور القُدَّاس. فهنا ترى رئيس النبلاء الحالي خروموف، ورئيس مجلس الإقليم مارفوتكين، وعضو المجلس الدائم بوتراشكوف، ومُفتِّشي لجنة الإقليم، ومأمور المركز كرينولينوف، وشرطيي نقطتي الشرطة، وطبيب المجلس المحلي دفورنياجين الذي تفوح منه رائحة اليودفورم، وكل الإقطاعيين، كبارهم وصغارهم، وغيرهم. وكان عدد الحاضرِين يصل إلى حوالي خمسين شخصًا.

وفي تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا يتقاطر الضيوف بوجوه مستطيلة من جميع الغرف إلى الصالة. والأرض مغطاة بالسجاد فلا يسمع وقع الخطوات، ولكن جلال الموقف يجعلهم يشبُّون لا إراديًّا على أطراف أصابعهم ويحفظون توازنهم بأيديهم أثناء المشي. كل شيء جاهز في الصالة. ويقوم الأب يفميني، ذلك العجوز الصغير، ذو الطاقية العالية الباهتة، بارتداء بدلة القداس السوداء. أما الشَّمَّاس كونكوردييف فيقف أحمر كسرطان البحر المسلوق، مرتديًا حلته، ويقلب صفحات كتاب الصلوت دون صوت واضعًا بين الصفحات قصاصات ورق. وعند الباب المُفضي إلى المدخل ينفخ القندلفت لوقا في المبخرة وقد انتفخ خداه العريضان وجَحظَت عيناه. وتمتلئ الصالة تدريجيًّا بدخان البخور الأزرق الشَّفَّاف ورائحته. أما المُدرِّس الأهلي جيليكونسكي، وهو رجل شاب، يرتدي حلة جديدة مُهدَّلة، وعلى وجهه المذعور بُثور كبيرة، فيوزِّع الشموع على صينية معدنية. وتقِف ربة

الدار لوبوف بتروفنا في المقدِّمة بجوار مائدة عليها طبق «الكوتيا»،[1] وتُقرِّب المنديل من عينيها سلفًا. والهدوء يعم المكان ولا تتخلله إلا زفرات مُتفرِّقة. ووجوه الجميع مشدودة، مهيبة.

ويبدأ القُدَّاس. من المبخَرَة يتدفَّق دخان أزرق متموِّجًا في أشعة الشمس المائلة، والشموع المشتعلة تُطقطِق بوهَن. ويبدأ الغناء حادًّا مجلجِلًا، ثم سرعان ما يصبح هادئًا منتظِمًا عندما يتكيَّف المغنون شيئًا فشيئًا مع الظروف الصوتية للمكان ... والألحان كلها حزينة، مكتئبة ... وشيئًا فشيئًا ينسجم الضيوف مع المزاج الانطوائي ويستغرقون في التفكير وتتسرب إلى أذهانهم أفكار عن قصر الحياة والفناء وبهرج الدنيا الزائل. ويتذكَّرون المرحوم زافزياتوف، المليء الجسم الأحمر الخدَّين، الذي كان يشرب زجاجة الشامبانيا دفعة واحدة ويُحطِّم المرايا بجبهته. وعندما يُغنُّون «مع القدِّيسِين الرحمة» وتُسمع شهقات ربة الدار، ويتململ الضيوف في وقفتهم بكآبة. أما ذَوو المشاعر المُرهَفة منهم فيحسُّون بحكٍّ في حلوقهم وحول جفونِهم. ويحاول رئيس مجلس الإقليم مارفوتكين أن يَكبِت هذا الإحساس الكريه فيميل على أذن مأمور المركز هامسًا: بالأمس كنتُ عند إيفان فيودورفتش ... أحرزتُ أنا وبيوتر بتروفتش فوزًا ساحقًا بدون أوراق رابحة ... إي والله ... وثارَت أولجا أندرييفنا لدرجة أن سقطَت من فمها سِن صناعية.

وها هو ذا نشيد «الذكرى الخالدة» وها هو ذا جيليكونسكي يستعيد الشموع باحترام، وينتهي القُدَّاس. وتتلو ذلك دقيقة هرج وتبديل حُلَّة القداس استعدادًا للصلاة. وبعد انتهاء الصلاة، وبينما الأب يفميني يخلع لباس القُدَّاس، يَفرُك الضيوف أيديهم ويَسعلُون، بينما تتحدَّث ربة الدار عن طيبة المرحوم تريفون لفوفتش.

وتنهي حديثها قائلة وهي تتنهد: تَفضَّلوا إلى المائدة يا سادة.

ويسرع الضيوف إلى غرفة الطعام وهم يحاولون ألا يتزاحموا أو يدوسوا على أقدام بعضهم البعض ... وهناك ينتظرهم الإفطار. وهذا الإفطار فاخر إلى درجة أن الشَّمَّاس كونكوردييف يرى من واجبه كل عام، عندما يراه، أن يشيح بذراعيه، ويهز رأسه من الدهشة وهو يقول: شيء خرافي! إن هذا يا أبانا يفميني لا يُشبه طعام البشر بقدر ما يشبه القرابين المقدَّمة للآلهة.

[1] طبق من الأرز أو القمح والزبتب والزبيب يُقدَّم في ولائم التأبين. (المُعَرِّب)

والإفطار بالفعل غير عادي؛ فعلى المائدة يوجد كل ما يمكن أن يَهبه عالَمَا النبات والحيوان. أما الخرافي فيه فربَّما كان شيئًا واحدًا؛ وهو أن المائدة تحوي كل شيء إلا ... المشروبات الكحولية. فقد نذَرَت لوبوف بتروفنا على نفسها ألا تحتفظ في بيتها بأوراق اللعب والمشروبات الكحولية؛ أي بالشيئين اللذين قضيَا على زوجها، ومن ثم فليس على المائدة إلا زجاجات الخل والزيت، وكأنها نكاية وسخرية بالطاعِمين الذين هم عن بَكْرَة أبيهم من السكارى والمدمِنين.

وتدعُو زوجة رئيس النبلاء الضيوف: كُلوا يا سادة. ولكن اعذروني فليس لديَّ فودكا ... لا أحتفظ بها في البيت. ويقترب الضيوف من المائدة ويشرعون في تناول الكعكة بتردُّد. ولكن الوليمة لا تسير كما يرام. ويبدو في غرز الشوك والتقطيع والمضغ تراخٍ ما وخمول ... يبدو أن شيئًا ما ينقصهم.

ويهمس أحد مُفتِّشِي لجنة الإقليم لزميله: أشعر كأنني فقدتُ شيئًا ما، مثلُ هذا الإحساس راودني عندما هربَت زوجتي مع المهندس ... لا أستطيع أن آكل!

وقبل أن يشرع مارفوتكين في الأكل يُفتِّش طويلًا في جيوبه بحثًا عن منديله. ثم يقول متذكرًا بصوت عالٍ: إن المنديل في المعطف! وأنا أبحث عنه. ويمضي إلى المدخل حيث عُلِّقت المعاطف.

ويعود من المدخل بعينين لامعتين، وينهال على الكعكة فورًا بشهية. ويهمس للأب يفميني: ماذا، الأكل على الناشف كريه؟ اذهب يا أبتاه إلى المدخل، هناك زجاجة في جيب معطفي ... لكن حذارِ، إياك أن تُقرقِع بالزجاجة!

ويتذكر الأب يفميني أن عليه أن يأمر لوقا بشيء ما، ويسرع بخطوات قصيرة نحو المدخل.

ويلحق به دفورنياجين صائحًا: يا أبانا ... أريدك في كلمتين، سرًّا!

ويقول خرموف مباهيًا: يا له من مِعطف اشتريتُه يا سادة بالصُّدفة. يساوي ألفًا، ولكني دفعتُ ... لن تصدقوا ... مائتين وخمسين فقط!

وما كان الضيوف لِيُعيروا انتباهًا لذلك الخبر في وقت آخر، أما الآن فقد أعربوا عن دهشتهم وعدم تصديقهم. ومن ثم مَضَوا جميعًا إلى المدخل ليشاهدوا المعطف، وظلُّوا يشاهدونه إلى أن حمل خادم الطبيب من المدخل سرًّا خمس زجاجات فارغة ... وعندما أتى الخادم بطبق السمك المسلوق تذكَّر مارفوتكين أنه نسيَ علبة سجائره في العربة، وذهب إلى الإصطبل، ولكي لا يشعر بالملل وحده أخذ معه الشَّمَّاس، الذي اتضح أنه ينبغي عليه أن يتفقَّد حصانه.

وفي مساء ذلك اليوم، جلست لوبوف بتروفنا في غرفة مكتبها لتكتب رسالة إلى إحدى صديقاتها القديمات في بطرسبرج. وكان من بين ما كتبت:

«اليوم، كما في السنوات السابقة، أقمتُ قُدَّاسًا على روح المرحوم، وحضر القُدَّاس كل جيراني. إنهم ناس أفظاظ، بسطاء، ولكن ما أرق قلوبهم! أقمتُ لهم وليمة فاخرة، ولكن لم تكن هناك بالطبع، كما في الأعوام السابقة، قطرة شراب مسكر. فمنذ أن مات زوجي بسبب الإفراط أقسمتُ أن أنشر في إقليمنا الصحو وبذلك أكفِّر عن ذنوبه. وقد بدأتِ الموعظة من بيتي. وقد أبدى الأب يفميني إعجابه بمشروعي ويساعدني بالقول والفعل. أوه يا ma chére،[٢] لو تعرفين كم يحبني دِبَبَتي هؤلاء! بعد الإفطار أخذ رئيس مجلس الإقليم مارفوتكين يُقبِّل يدي وظل طويلًا يضعها على شفتيه وهو يهز رأسه بصورة مُضحكة، وبكى من فيض المشاعر وعجزَت الكلمات! أما الأب يفميني، ذلك العجوز الرائع، فقد جلس إلى جواري، وحدَّق فيَّ بعينين دامعتَين وظل يتمتم طويلًا كالطفل. ولم أفهم ما قاله، ولكني أستطيع أن أفهم المشاعر الصادقة. أما المأمور ذلك الرجل الجميل الذي كتبتُ لك عنه، فقد ركع أمامي على ركبتيه، وأراد أن يقرأ أشعارًا من تأليفه «فهو شاعر عندنا» ولكنه لم يتمالك قُواه … فترنَّح ووقع … لقد أصابت هذا العملاق نوبة هيستيرية … هل تتصوَّرِين مدَى إعجابي! بالطبع لم يخلُ الأمر من بعض المُنغِّصات … فرئيس مؤتمر الإقليم الأليكين المسكين، وهو رجل بَدين مُصاب بالسكتة، ساءت حالته، ورقد على الكنبة ساعتين فاقد الوعي. واضطررنا لصب الماء عليه … شكرًا للدكتور دفورنياجين، إذ أحضر من صيدليته زجاجة كونياك وبلَّل له صدغيه، فسرعان ما عاد إلى وعيه ثم حملوه …»

[٢] عزيزتي «بالفرنسية في الأصل». (المُعَرِّب)

العازف الأجير

الساعة تدور في الثانية ليلًا. أجلس في غرفتي بالفندق وأكتب صورة شعرية هجائية طُلِبَت مِنِّي. وفجأة يُفتَح الباب على مصراعيه، ويدلف إلى الغرفة فجأة شريكي فيها بيوتر روبليوف، الطالب السابق في كونسرفتوار موسكو. وللوهلة الأولى يُذكِّرني وهو في قبعته الطويلة ومعطفه الثقيل المفتوح بشخصية ريبيتيلوف.[١] ولكن بعد أن أُدقِّق النظر في وجهه الشاحب وعينيه الحادَّتين إلى درجة غير عادية وكأنهما مُلتهبتان، يختفي وجه الشبه بينه وبين ريبيتيلوف.

أسأله:

– لماذا عدتُ مبكرًا هكذا؟ الساعة الثانية فقط! هل انتهى العرس؟

ولا يرد شريكي عليَّ. يمضي في صمت إلى ما وراء الحاجز، ويخلع ملابسه بسرعة ويستلقي على سريره وهو يزحر.

وبعد حوالي عشر دقائق أسمعه يهمس:

– نَمْ أيها الوغد! نَمْ ما دمتُ قد رقدتُ! إذا لم تُرِد أن تنام ... فلتذهب إلى الشيطان!

فأسأله: ماذا يا بيتيا، النوم يجافيك؟

– الشيطان يعلم ما هذا ... لا أستطيع أن أنام ... أكاد أنفجر من الضحك ... الضحك يمنعني من النوم! ها ... ها!

– وما الذي يضحكك؟

---

[١] إحدى شخصيات مسرحية «ذو العقل يشقى» الشعرية للكاتب المسرحي والشاعر الروسي ألكسندر جريبويدوف (١٧٩٤–١٨٢٩م). (المُعَرِّب)

– وقع اليوم حادِث مُضحِك، يا لها من حادثة لعينة!

ويخرج روبليوف من خلف الحاجر ويجلس بجواري وهو يضحك ... ويقول وهو ينثر شعره: أمر مضحك ... ومُخجِل ... لم يحدث لي في حياتي كلها يا أخي أنْ تعرضتُ لمثل هذه الزفَّة ... ها ... ها ... فضيحة من الطراز الأول ... من أرقى نوع!

ويضرب روبليوف ركبته بقبضته ويقفز واقفًا ثم يذهب ويجيء حافيًا على الأرضية الباردة.

ويقول: طردوني شر طردة! ولهذا جئتُ مبكرًا.

– كفاك كذبًا!

– إي والله ... طردوني ... حرفيًّا!

وأتطلع إلى روبليوف ... وجه ممصوص، مُستهلَك، ومع ذلك بقيَ في مظهره كله من الاستقامة والنعومة النبيلة واللياقة، ما يجعل هذه العبارة الخشنة: «طردوني شر طردة» غير منسجمة أبدًا مع شخصيته المثقَّفة.

– فضيحة من الدرجة الأولى ... ظللتُ أُقهقِه طوال الطريق في أثناء عودتي. أوه، دعْكَ من هذه التفاهة التي تكتبها! سأحكي لك، سأسكب كل ما في روحي فربما كففتَ عن الضحك ... دعْكَ من كتابتك! اسمع ... قصة طريفة.

في شارع أربات يعيش شخص يدعى بريسفيستوف، مُقدَّم متقاعِد، متزوِّج من ابنة غير شرعية للكونت فون كراخ ... يعني أرستقراطيًّا ... يزوج ابنته من ابن التاجر يسكيموسوف ... وهذا الأسكيموسوف بارفينو وموفي-جانر،[٢] حَلُّوف في مسوح العلماء وموفي-تون،[٣] ولكن الأب وابنته يريدان مانجى إي بوار،[٤] ولذلك فليس لديهما فرصة للاهتمام بالموفي جانر وغيره. وذهبتُ اليوم في الساعة التاسعة إلى آل بريسفيستوف للعزف على البيانو. وكان الطريق مُغطًّى بالأوحال والمطر يسقط، والضباب مخيمًا ... وكالعادة يسطر على قلبي إحساس مُقرِف.

قلتُ له: اختصِر ... دَعكَ من السيكولوجيات.

---

[٢] بارفينو؛ «من الفرنسية parvenu» محدث نعمة. وموفي-جانر؛ «من الفرنسية mauvais genre» جلف. (المُعَرِّب)

[٣] موفي-تون؛ «من الفرنسية mauvais tone» قليل الذوق. (المُعَرِّب)

[٤] مانجي إي بوار «من الفرنسية manger et boire» – يأكل ويشرب. (المُعَرِّب)

– حسنًا ... جئتُ إلى آل بريسفيستوف ... كان العروسان والضيوف يلتهمُون الفواكه بعد عقد القران، وذهبتُ إلى موقعي — البيانو — وجلستُ في انتظار بدء الرقص.

ورآني صاحب الدار فقال: «آه، وصلتَ! حسنًا، اسمع يا حضرة، اعزف جيدًا، وإياك أن تسكر.»

– لقد تعوَّدتُ يا أخي على هذه التحايا ولم تَعُد تغضبني ... ها ... ها ... إذا جعلتَ نفسك قنطرة فلتتحمَّل الدَّوس ... أليس كذلك؟ فمن أنا؟ عازف أجير ... خادم ... نادل يجيد العزف! التجار في حفلاتهم يخاطبونني بـ«أنت» ويعطونني بقشيشًا ... وليس في ذلك أي إهانة! حسنًا ... ولمَّا لم يكن لديَّ ما أفعله حتى بداية الرقص فقد رحتُ أنقر على البيانو، هكذا، لتسخين أصابعي. وبعد قليل، وبينما أنا أعزف سمعتُ خلفي يا أخي شخصًا يُدندِن اللحن. والتفَتُّ فإذا بها آنسة! وقفَت، الملعونة خلفي وهي تَتطلَّع إلى مفاتيح البيانو بإعجاب، فقلت لها: «لم أكن أعرف يا مودموازيل أن أحدًا يصغي إليَّ.» فتنهَّدَت وقالَت:

– «معزوفة جميلة!» فقلتُ: «نعم جميلة ... وهل تحبين الموسيقى؟» أخذْنَا نتجاذَب أطراف الحديث ... واتضح أنها كثيرة الكلام. أنا لم أسحبها من لسانها، بل هي التي مضَت تُثرثِر: «من المؤسِف أن شباب اليوم لا يهتم بالموسيقى الجادة.» وكنت مسرورًا إلى لَفتِ انتباهها ... يا لي من أحمق، مُغفَّل ... إذن فقد بَقيت لديَّ هذه الكبرياء الكريهة! واتخذْتُ وضع العالِم بالأمور ورحتُ أُوضِّح لها أن عدم اكتراث شبابنا مَردُّه إلى انتفاء الطموح إلى القيم الجمالية في مجتمعنا ... كنتُ أتفلسف!

وسألتُ روبيلوف: وأين هي الفضيحة؟ هل وقعتَ في حبها؟

– يا للهراء! الحب هو فضيحة ذات طابع شخصي، أما في حالتي يا أخي فقد كان الحدث عامًّا، على نطاق المجتمع الراقي ... نعم! كنتُ أتحدث مع الآنسة ولكني أخذت ألاحظ شيئًا غير طبيعي ... فقد جلس وراء ظهري أشخاص ما وراحوا يَتهامَسون ... وسمعتُ كلمة «عازف أجير» وضحكات ... إذن فهم يتحدثون عني ... تُرى ماذا حدث؟ هل انفكَّت رابطة عنقي؟ تحسستُ رابطة العنق ... لا شيء ... وبالطبع لم أُلقِ إليهم بالًا ومضيتُ أتحدَّث ... أما الآنسة فقد انهمكَت في النقاش وانفعلَت حتى احمر وجهها كله ... كانت مُنطلِقة! وانهالَت بالنقد العاصف على الملحِّنِين المعاصرِين! ففي أوبرا «المارد» التوزيع جيد ولكن ليست هناك موتيفات، وريمسكي كروساكوف مجرد قارع طبول، وفارلاموف لم يُؤلِّف شيئًا متكاملًا ... إلخ. وفتيات وفتيان اليوم لا يكادون يعرفون من العزف غير السُّلَّم

الموسيقي، وبينما يدفعون خمسة وعشرين كوبيكا لقاء الدرس تراهم مُستعدِّين لكتابة المقالات النَّقدية في الموسيقى ... وآنستي من هذا النوع ... ورحتُ أصغي ولا أجادل ... إنني أحب أن أرى مخلوقًا شابًّا، غضًّا، وهو غاضب يشغل مخه ... أما ورائي فقد استمر الهمس ... ثم ماذا؟ فجأة اقتربَت من آنستي طاووسة من فصيلة الأمهات أو الخالات، ضخمة، حمراء، لا تحيط بخصرها خمسة أذرع، ودون أن تتطلع إليَّ همست في أذن الآنسة بشيء ما ... وإذا بالآنسة تتضرج وتخفي وجهها براحتيها وتندفع بعيدًا عن البيانو كالملسوعة ... ماذا حدث؟ فُكَّ اللغز يا أوديب الحكيم! قلتُ لنفسي: إما أن السترة تمزقت على ظهري وإما أن عيبًا ما قد ظهر في هندام الآنسة، وإلا فمن الصعب فَهْم ما حدث. وتحوُّطًا فقد ذهبتُ بعد عشر دقائق إلى المدخل لأتفحَّص ملبسي ... وتفحَّصتُ ربطة العنق والسُّترة وغيرهما ... كل شيء في مكانه ولم يتمزَّق! ولحسن حظي يا أخي كانت عجوز ما واقفة في المدخل ومعها صُرَّة. وشرحت لي كل شيء. ولولاها لظللتُ في جهلي السعيد.

قالت العجوز لأحد الخدم: «آنستنا تحب دائمًا أن تظهر شخصيتها ورأت بجوار البيانو شابًّا فراحَت تُثرثر معه وتضحك وتَتنهَّد وكأنه سيد حقيقي ... واتضح أن الشاب ليس ضيفًا بل عازف أجير ... من الموسيقيين ... فيا لَه من حديث! شكرًا لماريا ستيبانوفنا فقد همسَت في أذنها وإلا — لا قدَّر الله — لو وضعت ذراعها في ذراعه وتمشَّت معه ... إنها الآن تشعر بالخجل، ولكن بعد فوات الأوان ... فما حدث حدث.» ... أرأيتَ؟

فقلت له:

– الفتاة حمقاء، والعجوز حمقاء ... كل ذلك لا يستحق أي اهتمام.

– أنا لم أهتمَّ ... شيء مضحك، ولا أكثر. لقد تعودت منذ زمن طويل على هذه المفاجآت. قَبلًا كنتُ أشعر حقيقة بالأمل، أما الآن فأَبصُق على ذلك! فتاة حمقاء ... طائشة ... لا تستحق الشَّفَقة! وجلستُ ورحتُ أعزِف للرقص ... عزف لا يستدعي أي جدية ... رُحت أعزِف رقصات الفالس والكادريل والمارشات الصاخبة ... إذا أحسَّت روحك الموسيقية بالمَهانة فاذهب واشرب كأسًا وسترقص من أنغام «بوكاتشيو».

– وأين الفضيحة إذن؟

– أخذتُ أنقُر على المفاتيح و... لا أفكر في الفتاة ... أضحك فقط، ولكن ... راح شيء ما ينغز في قلبي! وكأن هناك فأرًا يقبع في ضلوعي ويقرض خبزًا جافًّا ... ولا أدري لماذا أشعر بالحزن والقَرَف. أخذتُ أُقنع نفسي وأشتُمها، وأضحك ... وأُدندِن بنغمات الألحان التي أعزفها، ولكن شيئًا كان يقبض على قلبي ... وبقوة ... شيئًا يتحرك في صدري ويخدش

ويقرض ثم يصعد إلى حلقي كالغصة ... وأَكز على أسناني وأقاوم حتى يختفي ... ثم يعود من جديد ... ما هذه المصيبة! وعلاوة على ذلك، وكأنما عن عمد تَرِد إلى ذهني شتَّى الأفكار السخيفة ... فأتذكَّر كيف أصبحتُ تافهًا ... لقد قصدتُ موسكو قاطعًا ألفي كيلو متر ... كنتُ أهدف إلى أن أصبح موسيقارًا أو عازف بيانو؛ فإذا بي عازف أجير ... في الحقيقة، هذا شيء طبيعي ... بل إنه يثير الضحك، ومع ذلك أشعر بالغثيان ... وأتذكَّرُك ... وأفكِّر فيك؛ ها هو ذا شريكي في الغرفة الآن جالس يسطر ... يَصِف المسكين الشرطة النائمين وصراصير المخابز والطقس الخريفي السيئ ... يَصِف بالذات كل ما وصف من زمن بعيد، كل ما أُشبِع لَوكًا وهَضمًا ... أُفكِّر في ذلك ولستُ أدري لماذا أشفق عليك ... أشفق عليك لدرجة البكاء! إنك شاب رائع، طيب القلب، ولكن ليس فيك تلك الشعلة، أتدري، تلك المرارة، تلك القوة ... ليس فيك ذلك الحماس ... فلماذا أنت كاتِب ولستَ صيدليًّا أو إسكافيًّا؟ الله يعلم! وتذكَّرت كل زملائي الخائبين، كل هؤلاء المُغنِّين والمصوِّرِين والهواة ... كلهم كانوا في وقت ما يفورون ويمورن ويُحلِّقون في السماء، أما الآن ... فالشيطان يعلم ما هذا! لماذا اقتحمَت رأسي هذه الأفكار بالذات؟ لستُ أفهم! عندما أطرد نفسًا من رأسي يقتحمها زملائي، وأطرد زملائي فتقتحمها الفتاة ... وأضحكُ من الفتاة، ولا أُعِيرُها أهمية، ولكنها لا تدعني أنعم بالراحة ... وأقول لنفسي: ما هذه الخصلة لدى الإنسان الروسي؟ فطالما أنت حر، تدرس أو تتسكَّع بلا عمل، فبوسعك أن تشرب معه وتُربِّت على كرشه، وتتودَّد إلى ابنته، ولكن ما إن تصبح علاقتُك به على نحو ولو قليلًا من التبعية، حتى تصير صرصارًا ينبغي أن يَعرف قَدْره ... أتدري، أخذتُ أجاهد لأكبِتَ هذه الأفكار، ولكن الغصَّة مضَت تصعَد إلى حلقي ... تصعد وتضغط عليه ... وتعصره ... وأخيرًا أحسستُ بسائل في عيني، وانقطعَت ألحان «بوكاتشيو» و... وذهب كل شيء إلى الشيطان ... وأَصمَتَت أسماع الحاضرين الأكابر أصوات أخرى ... أُصِبتُ بهستيريا.

– كفاكَ كذبًا.

– إي والله!

يقول روبليوف وهو يَتضرَّج ويحاول أن يضحك: ما رأيك في هذه الفضيحة؟ ثم شعرتُ بهم يسحبونني إلى المدخل ... ويلبسونني المعطف ... وسمعتُ صوت رب البيت يقول: «مَن الذي أسكر العازف الأجير؟ مَن الذي أعطاه الفودكا؟» وفي آخر المطاف ... طُرِدتُ ... ما رأيك في هذه المفاجأة؟ ها ... ها ... لم أكن في حال تسمح بالضحك ساعتها،

أما الآن فأكاد أموت من الضحك! ... رجل ضخم مثلي ... طويل وعريض ... وفجأة يُصاب بهستيريا! ها ... ها ... ها!

وأسأله وأنا أتطلع إلى كتفيه ورأسه يهتز من الضحك: وما المُضحِك في ذلك؟ بيتيا أرجوك ... ما المضحك؟ بيتيا! يا عزيزي!

ولكن بيتيا يقهقه، وبسهولة أرى في قهقهته دلائل الهيستيريا، فأبدأ في العناية به وأنا أسب فنادق موسكو التي لا يعرفون فيها عادة ملء دوارق المياه للشرب ليلًا.

تواريخ حية

غرفة الجلوس في دار مُستشار الدولة شاراميكين مُغلَّفة بظلمة خفيفة لطيفة. والمصباح البرونزي الكبير ذو الأباجورة الخضراء بلون الجدران والأثاث والوجوه بلون أخضر على طريقة «ليل أوكرانيا» ... ومن حين لحين تَتوهَّج جمرة حطب في الموقد الموشك على الانطفاء، فيغمر الوجوه للحظة لون لهب الحرائق، ولكن ذلك لا يفسد هارموني الألوان العام؛ فـ«التون» العام، كما يقول المصوِّرون، مُحافَظ عليه هنا.

وعلى مقعد أمام المَوقِد يجلس شاراميكين نفسه، في وضع رجل تَغدَّى لِتوِّه. وهو سيد كهل، بسوالف موظفين بيضاء، وعينين زرقاوين مستكينتَين، وتَنساب الرِّقة على وجهه، وشفتاه مطبقتان على ابتسامة حزينة. وعند قدميه يجلس على أريكة، مادًّا ساقيه في كسل وهو يتمطي، نائب المحافظ لوبنيف، وهو رجل نشيط، في حوالي الأربعين من عمره. وبجوار المَعزف يلهو أولاد شاراميكين؛ نينا وكوليا وناديا وفانيا. ومن الباب الموارب المُفضِي إلى غرفة مكتب مدام شاراميكينا يَتسلَّل ضوء خجول، فهناك خلف الباب تجلس إلى مكتبها زوجة شاراميكين آنا بافلوفنا، رئيسة لجنة النساء المحلية، وهي سيدة بادية الحيوية، مثيرة، تخطَّت الثلاثين بقليل. وتجري عيناها السوداوان النشيطتان عَبر العوينات على صفحات رواية فرنسية. وتحت الرواية يرقد تقرير مُجعَّد الصفحات عن نشاط اللجنة في العام الماضي.

ويقول شاراميكين وهو يزرُّ عينيه المستكينتَين ناظرًا إلى جمرات الحطب: كانت مدينتنا من قبل محظوظة أكثر من هذه الناحية. لم يمر شتاء واحد إلا وزارَنا نجم ما. كان يأتينا مشاهير الممثِّلين والمطربِين، أما الآن فالشيطان وحده يعلم ما هذا ... لا أحد يأتي سوى الحُواة والمتسوِّلِين من عازِفي الأرغن اليدوي في الشوارع. ليس هناك أي متعة جمالية ... نعيش كأنما في غابة. نعم ... أتذكَّر يا صاحب السعادة ذلك الممثِّل التراجيدي الإيطالي

... ما اسمه؟ ذلك الأسمر الطويل ... ليهبني الله الذاكرة ... آه، نعم! لويجي أرنستو دي روجييرو ... يا لَه من موهبة رائعة ... يا للقوة! كان يكفي أن يَتفوَّه بكلمة واحدة حتى تهتز قلوب النَّظَّارة. لقد شاركت زوجتي أنيوتا بحماس كبير في تشجيع موهبته، حجزَت له المسرح وباعَت له التذاكر لعشر حفلات ... ومكافأة لها على ذلك علَّمها الإلقاء والحركات. ما أنبل روحه! لقد حضر إلى هنا منذ ... أرجو ألا أخطئ ... منذ حوالي اثنتي عشرة سنة ... كلا ... أخطأت ... بل أقل ... منذ حوالي عشر سنوات ... أنيوتا، كم عمر ابنتنا نينا؟

فتصيح آنا بتروفنا من غرفة مكتبها: في العاشرة! وماذا؟

– لا شيء يا ماما، هكذا ... وكان يزورنا أيضًا مطربون جيدون ... هل تذكر بريليبتشين، ذلك الصوت الـ grazia tenore di[1] ما أنبلَ رُوحَه! يا لهيئته! أشقر. ووجهه مُعبِّر، وحركاته باريسية ... وما أروعَ صوتَه يا صاحب السعادة! كان يعيبه شيء واحد ... كان يغني بعض النوتات من بطنه و«ري» بطبقة عالية، وفيما عدا ذلك كان مجيدًا. قال إنه درس على يدي تامبرلك ... دبَّرتُ له أنا وأنيوتا قاعة في النادي الاجتماعي. وشكرًا منه لنا على ذلك كان أحيانًا يغني لنا أيامًا وليالي بأكملها ... وعلَّم أنيوتا الغناء ... لقد جاء إلينا، كما أذكر جيدًا، في الصوم الكبير ... منذ ... منذ حوالي اثنتي عشرة سنة. كلا، بل أكثر ... يا للذاكرة، أستغفر الله! أنيوتا، كم عمر ابنتنا ناديا؟

– اثنتا عشرة!

– اثنتا عشرة ... فإذا أضفنا إليها عشرة أشهر ... نعم بالضبط ... ثلاث عشرة! كانت مدينتنا قَبلًا أكثر حيوية ... خُذ مثلًا الحفلات الخيرية. ما أروع الحفلات التي كانت تُقام في السابق ... يا للسحر! غناء، وعزف، وإلقاء ... وبعد الحرب[2] أذكر، عندما كان الأسرى الأتراك يقيمون هنا، أقامت أنيوتا حفلًا لصالح الجرحى. جمعنا ألفًا ومائة روبل ... أذكر أن الضبَّاط الأتراك كانوا مَفتونين بصوت أنيوتا، وكانوا طوال الوقت يُقبِّلون يدها. هئ ... رغم أنهم آسيويون إلا أنهم أمة تقدر الجميل. وكانت الحفلة موفَّقة إلى درجة أنني، أَتُصدِّق، كتبتُ عنها في يومياتي. كان ذلك كما أذكر الآن في ... سنة ست وسبعين ... كلَّا! في سبع وسبعين ... كلَّا! مهلًا، متى أقام الأتراك عندنا؟ أنيوتا، كم عمر ابننا كوليا؟

[1] التينور العاطفي «بالإيطالية في الأصل». (المُعَرِّب)

[2] المقصود هنا الحرب الروسية التركية عامي ١٨٧٧–١٨٧٨م والتي انتهَت بعقد صلح سان-ستيفانو. (المُعَرِّب)

– عمري سبع سنوات يا بابا! يقول كوليا، ذلك الصبي الأسمر الوجه وذو الشعر الفاحم.

ويقول لوبنيف موافقًا وهو يتنهد: نعم، هرمنا ولم تَعُد لدينا تلك الطاقة! هذا هو السبب. الشيخوخة يا أخي! ليس هناك مبادِرون جُدد، أما القدامى فقد هَرِموا ... لم تَعُد لدينا تلك الشُّعلة. أنا، عندما كنت أصغر، لم أكن أحب أن يشعر المجتمع بالملل ... كنتُ المساعد الأول لزوجتكم آنَّا بافلوفنا. فإذا كانت هناك حاجة لإقامة حفل خيري، أو يانصيب، أو لمساعدة نجم مشهور وصل، كنت أترك كل شيء وأشرع في السعي. وأذكر أنني ذات شتاء انهمكتُ في الجري والسعي إلى درجة أنني مَرضتُ ... لن أنسى أبدًا ذلك الشتاء! أتتذكر أي مسرحية ألفتها أنا وزوجتكم آنَّا بافلوفنا لصالح منكوبي الحريق؟

– في أي سنة كان ذلك؟

– منذ فترة ليست بعيدة ... في تسع وسبعين ... كلَّا، في سنة ثمانين على ما أظن! مهلًا، كم عمر ابنكم فانيا؟

– خمسة! تصيح آنَّا بافلوفنا من غرفة المكتب.

– إذن فذلك كان منذ ست سنوات ... نعم يا أخي، يا لها من أعمال كانت! لم يعد الحال كما كان! راحت تلك الشعلة!

ويستغرق لوبنيف وشاراميكين في التفكير. وتتوهج الجمرة المحترقة للمرة الأخيرة ثم يكسوها الرماد.

زوَّدها

وصل قيَّاس الأراضي جليب جافريلوفتش سميرنوف إلى محطة «جنيلوشكي». وكان أمامه لكي يبلغ الضيعة التي استُدعِيَ إليها لوضع حدود المزارع حوالي ثلاثين أو أربعين فرسخًا «فإذا لم يكن الحُوذِي ثَمِلًا والحصان عجوزًا فلن تزيد المسافة عن ثلاثين فرسخًا، أما إذا كان الحوذي ثملًا والحصان منهَكًا فستصل المسافة إلى خمسين».

اتَّجه القَيَّاس بالسؤال إلى شرطي المحطة:

– قُل لي من فضلكَ، أين أستطيع أن أجد هنا خيول بريد؟

– خيول ماذا؟ بريد؟ لن تجد هنا على مدى مائة فرسخ كلبًا محترمًا وليس خيول بريد … إلى أين تريد أن تذهب؟

– إلى ديفكينو، ضيعة الجنرال خوخوتوف.

فقال الشرطي متثائبًا: طيب، اذهب خلف المحطة، فهناك يوجد أحيانًا فلاحون يحملون الركاب.

تَنهَّد القيَّاس ومضى خلف المحطة. وهناك، وبعد بحث طويل ومباحثات وتردُّد، وجد فلاحًا ضخمًا، عابسًا، مجدور الوجه، يرتدي قفطانًا خشنًا وحذاء لابتي.

وامتعض القيَّاس وهو يصعد إلى العربة وقال: الشيطان يعلم أي عربة هذه! لا تعرف أين مؤخِّرَتها وأين مقدِّمَتها.

– وهل هو صعب أن تعرف؟ المقدِّمة حيث ذيل الحصان والمؤخِّرة حيث يجلس جنابكم.

كانت الفرس شابَّة ولكنها عجفاء، بقوائم نافرة وأذنين معضوضتين. وعندما همَّ الحوذي وضرَبَها بسوط من الحبال هزَّت رأسها فقط، وعندما سبها وضربها مرة أخرى

صرَّت العربة وارتعشت كأنها محمومة. وبعد الضربة الثالثة تمايَلَت العربة، أما بعد الرابعة فقد تزحزَحَت من مكانها.

– وهل سنسير هكذا طوال الطريق؟ سأل القيَّاس وهو يشعر بهز شديد ويدهش من قدرة الحُوذية الروس على الجمع بين السير البطيء كسير السلاحف، وبين الهز الذي يكاد يطرد الروح من البدن.

فقال الحُوذِي مطمئنًا: سنصل! الفرس شابَّة، سريعة ... انتظر فقط حتى تنطلق، وبعد ذلك لن تستطيع إيقافها ... هيا، يا ملعونة!

عندما غادرَت العربة المحطة كان المغيب قد حل. وعلى يمين القيَّاس امتد سهل مظلم متجمد لا نهاية له ولا حدود ... إذا سِرتَ فيه فربما وصلتَ إلى العالم الآخر. وعند الأفق، حيث اختفى السهل مُتحدًا مع السماء تلاشَت على مَهل آخر أضواء الغسق الخريفي البارد ... وإلى يسار الطريق ارتفعت في الهواء أكوام لا يعرف ما إذا كانت أكوام دريس العام الماضي أم قرية. ولم يستطع القيَّاس أن يرى ما كان في الأمام، فقد سد مجال الرؤية كله، من هذه الناحية ظهر الحوذي العريض الأخرق. وكان الجو هادئًا ولكنه بارد قارس.

وفكر القيَّاس وهو يحاول أن يغطي أذنيه بياقة المعطف: «يا له من مكان قفر! لا أثر لِحَي. من يدري، فلو هجم عليكَ الأشقياء ونهبوك فلن يعرف أحد ولو أطلق المدافع ... نعم، والحوذي أيضًا لا يوحي بالثقة ... انظر إلى ظهره المهول! ابن الطبيعة هذا لو لمسك بإصبعه لأزهق روحك! وسحنته أيضًا وحشية مريبة.»

وسأل القيَّاس: اسمع يا أخي، ما اسمك؟

– أنا كليم.

– وكيف الحال عندكم هنا يا كليم؟ أليس خطرًا؟ هل هناك من يتشاقى؟

– لا، الحمد لله ... ومن هنا لِيتشاقى؟

– حسن، إنهم لا يتشاقون ... ولكنني على كل حال أخذتُ معي ثلاثة مسدسات — قال القياس كاذبًا — والمسدس كما تعلم شيء لا يحب المزاح. أستطيع أن أقضي على عشرة أشقياء.

هبط الظلام. وفجأة صَرَّت العربة وأنَّت وارتعشَت وانعطفَت إلى اليسار ببطء كأنما عن غير رغبة.

وقال القيَّاس لنفسه: «إلى أين يذهب بي؟ كان يسير طوال الوقت مباشرة، وها هو ذا ينعطف إلى اليسار فجأة. ماذا لو أن هذا الوغد أخذني إلى دغل ما، ... و... مثل هذه الحوادث تقع!»

فقال مخاطبًا الحُوذِي:

– اسمع ... تقول إن الحال هنا ليس خطرًا! خسارة ... إنني أهوى منازَلة الأشقياء ... إنني أبدو من منظري نحيلًا، ضعيفًا، ولكن عندي قوة كقوة الثور ... في مرة هجم عليَّ ثلاثة أشقياء ... فماذا تظن؟ ضربتُ واحدًا منهم حتى إنه ... حتى إنه، أتعرِف، طلعَت روحه، أما الآخران فقد حُكمَا بالأشغال الشاقة في سيبيريا بسببي، من أين تأتيني هذه القوة؟ لا أعرف ... بيد واحدة أمسك بأي رجل ضخم، من أمثالك، و... وأقضي عليه.

ونظر كليم خلفه إلى القيَّاس وطرف بوجهه كله، وهوى بالسوط على الفرس.

واستطرد القيَّاس:

– نعم يا أخي، كفى الله المرء شر الاشتباك معي. فعلاوة على أن الشقي يبقى بلا قدمين ولا ساقين فإنه يُقدَّم إلى المحاكمة ... كل القضاة ومأموري الشرطة معارفي. إنني رجل موظَّف، مطلوب. ها أنا ذا مسافر ولكن رؤسائي يعرفون أين أنا ... وأعينهم تُراقِب، حتى لا يلحق بي أي ضرر ... وعلى طول الطريق حشروا رجال الدرك والخفراء وراء الخمائل.

وفجأة صرخ القيَّاس: قِف! إلى أين تذهب؟ إلى أين تأخذني؟

– ألا ترى إلى أين؟ إلى الغابة!

وقال القيَّاس لنفسه: «فعلًا ... إنها غابة، ولكني خفتُ! لا ينبغي أن أكشف اضطرابي ... لقد لاحظ أنني خائف، لماذا أصبح ينظر إليَّ كثيرًا؟ لا بد أنه يدبر أمرًا ... كان قَبلًا يسير بالعربة ببطء، قَدمًا وراء قَدم، أما الآن فانظر كيف يطير!»

– اسمع يا كليم، لماذا تحث الفرس؟

– أنا لا أحثها، هي التي أسرعت؛ إذا انطلقت فلا وسيلة لإيقافها ... هي نفسها تشقيها هذه السيقان.

– كذاب يا أخي! أرى أنك تكذب! ولكني أنصحك بعدم الإسراع ... اكبح الفرس ... أتسمع؟ اكبحها!

– لماذا؟

– لأنه ... لأنه من المفروض أن يلحق بي من المحطة رفاق أربعة. ينبغي أن يلحقوا بنا. لقد وعدوني أن يلحقوا بي عند هذه الغابة ... ستكون الرحلة معهم أكثر مرحًا ... فهم رجال أصحاء، أشداء ... كل منهم يحمل مسدسًا ... لماذا تتطلع إليَّ كثيرًا وتتململ كأنك جالس على جمر؟ هه؟ أنا يا أخي يعني ... اسمع ... لا داعي للتطلع نحوي ... ليس فيَّ أي طرافة ... اللهم إلا المسدَّسَات ... تفضل، إذا شئت استخرجتُها وأريتك إياها ... تفضل.

وتظاهر القيَّاس أنه يبحث في جيوبه، وفي تلك اللحظة حدث ما لم يتوقع حدوثه رغم كل جُبنِه. فقد ألقى كليم بنفسه من العربة وزحف على أربع نحو غيضة أشجار. ثم صرخ: النجدة! النجدة! خذ الفرس والعربة أيها الشقي، لكن لا تقتلني! النجدة!

وتردَّد وقع خطوات سريعة مبتعِدة، وطقطقة غصون جافَّة، ثم ساد السكون ... وكان أول شيء فعله القيَّاس، الذي لم يتوقع هذا التطور المفاجئ، أن أوقف الفرس، ثم اعتدل في جلسته متخذًا وضعًا أكثر راحة، وأخذ يفكر: «هرب ... خاف الأحمق ... فما العمل الآن؟ لا يمكن أن أواصل السير بمفردي؛ فأنا لا أعرف الطريق، ثم قد يظن أحد أنني سرقتُ فرسه ... فما العمل؟»

– يا كليم! يا كليم!

– كليم! ردد الصدى.

اقشعر القيَّاس، كأنما مروا على ظهره بمبرد بارد من فكرة أنه سيضطر إلى قضاء الليل كله في الغابة المظلمة، في البرد، فلا يسمع سوى عواء الذئاب، والصدى، وشخير الفرس العجفاء.

فصاح:

– كليموشكا![1] يا عزيزي! أين أنت يا كليموشكا؟

وظل القيَّاس يصيح حوالي ساعتين، وفقط بعد أن بُح صوته واستسلم لفكرة المبيت في الغابة، حملت إليه الريح أنينًا ضعيفًا.

– كليم، أهو أنت يا عزيزي؟ هيا بنا!

– ستقتلني!

– كنت أمزح يا عزيزي! إي والله كنت أمزح! أي مسدسات معي! لقد كذبتُ عليك من خوفي! أرجوك هيا بنا! إنني بردان!

وإذ فطن كليم على ما يبدو إلى أن الموظَّف لو كان شقيًّا حقيقيًّا لاختفى بالفرس والعربة منذ زمن بعيد، فقد خرج من الغابة، واقترب مترددًا من الراكب.

– لماذا خفتَ أيها الأحمق؟ أنا ... أنا كنتُ أمزح ... وإذا بك تَخاف ... اجلس!

فدمدم كليم وهو يصعد إلى العربة: ربنا يسامحك يا سيد ... لو كنتُ أدري ما أخذتُك ولو مقابل مائة روبل. كدتُ أموت من الخوف.

[1] كليموشكا: تدليل لاسم كليم. (المُعَرِّب)

وضرَب كليم الفرس بالسوط. وارتعشَت العربة. وضَرب كليم مرة أخرى فتمايلت. وبعد السوط الرابع، عندما تزحزحت العربة من مكانها، غطى القيَّاس أذنيه بالياقة واستغرق في التفكير. ولم يعد الطريق أو كليم يبدوان له خطرين.

الدبلوماسي

(مشهد)

لَفظَت زوجة المستشار الأسمى[1] آنَّا لفوفنا كوفالدينا أنفاسَها، وأخذ الأقارب والمعارف يتشاورون: وما العمل الآن؟ ينبغي أن نخطر زوجها. فرغم أنه فارقها فإنه كان يحب المرحومة، بل لقد جاءها منذ فترة وركع أمامها على ركبتيه ضارعًا: «متى تغفرين لي يا آنَّا هوى لحظة؟» وغير ذلك من هذه القبيل. ينبغي أن نخطره.

وقالت عمتها الباكية مخاطبة العقيد بسكاريوف الذي كان يشترك في المشاورة العائلية: يا أريستارخ إيفانيتش! أنت صديق ميخائيل بتروفيتش. اصنع معروفًا واذهب إليه في الإدارة وأبلغه بهذه المصيبة! لكن أرجوك يا عزيزي لا تصدمه دفعة واحدة، وإلا فقد يحدث له شيء. إنه رجل مريض. مَهِّد للخبر في البداية، وبعد ذلك.

ارتدَى العقيد بسكاريوف العمرة وتوجَّه إلى إدارة السكك الحديدية حيث يعمل الأرمل الحديث العهد ... ووجده يُعِد الميزانية.

– تحياتي لميخائيل بتروفيتش. قال وهو يجلس إلى طاولة كوفالدين ويمسح عرقه: مرحبًا يا عزيزي، يا للغبار في الشوارع، أعوذ بالله! اكتب، اكتب ... لن أعطلك ... سأجلس قليلًا ثم أنصرف ... كنتُ مارًّا من هنا فقلت لنفسي: إن مِيشا يعمل هنا! فَلأمرَّ عليه! وبالمناسبة ... أنا بحاجة إليك في مسألة.

---

[1] من الرتب المدنية الدنيا في روسيا القيصرية وتعادل النقيب العسكرية. (المُعَرِّب)

– اجلس هنا يا أريستارخ إيفانيتش ... انتظِرني قليلًا ... سأفرغ بعد ربع ساعة، وعندئذ نتحدث.

– اكتب، اكتب ... أنا جئتُ هكذا ... مرورًا عابرًا ... سأقول لك كلمتين ... ووداعًا!

وضع كوفالدين الريشة جانبًا واستعدَّ للإنصات. وحك العقيد رقبته خلف الياقة واستطرد:

– الجو خانق لديكم هنا، أما في الشارع فجنة حقيقية ... الشمس، والنسيم اللطيف، أتدري. والطيور. إنه الربيع! كنتُ سائرًا إلى سبيلي في البوليفار ... أتدري، وكان مزاجي رائعًا! فأنا رجل حُر، أَرمَل ... أينما أُرِدْ أذهبْ ... ولا أحد يجرؤ على إيقافي، ولا أحد يُعوِّل ورائي في المنزل ... كلَّا يا أخي، ليس هناك أحسن من حياة العازب ... حرية! انطلاق! تتنفس وتشعر أنك تتنفس! سأعود الآن إلى البيت ... فلا شيء ... لا أحد يجرؤ على أن يسألني أين كنت؟ ... أنا سيد نفسي ... الكثيرون يا أخي يمتدحون الحياة الزوجية، ولكني أعتقد أنها أسوأ من الأشغال الشاقة ... هذه الأحاديث عن الموضة والكورسيهات، والقيل والقال، والزعيق ... وبين لحظة وأخرى الضيوف ... والأولاد يقفزون خارجِين إلى الدنيا الواحد تلو الآخر ... والنفقات ... إخص!

فغمغم كوفالدين وهو يتناول الريشة: سأفرغ حالًا.

– اكتب، اكتب ... حسنًا لو وُفِّقت إلى زوجة ليست شيطانًا، ولكن ماذا لو أنها إبليس في تنورة؟ ماذا لو كانت من أولئك اللاتي لا يتوقَّفْن عن الأزيز والطنين ليل نهار؟ إذن ستصرخ مستنجدًا! انظر، أنت على سبيل المثال ... عندما كنتَ عازبًا كنتَ إنسانًا مثل البشر، وما إن تزوجتَ من زوجتك حتى تدهورتَ، وأصبحت منطويًا ... لقد فضحَتكَ في المدينة كلها ... وطردَتكَ من البيت ... فأي خير في هذا؟ إن زوجة مثلها لا تستحق حتى الشفقة.

فقال كوفالدين متنهدًا. كنتُ أنا المذنِب في انفصالنا لا هي.

– دعك من هذا أرجوك! إنني أعرفها جيدًا! امرأة شريرة، متغطرسة، خبيثة! كل كلمة سم زعاف، كل نظرة خنجر حادٌّ ... أما اللؤم الذي كان في المرحومة فشيء لا يمكن وصفه!

فاتسعت عينا كوفالدين وهو يسأل: ماذا تعني بالمرحومة؟

فاستدرك بسكاريوف محمرًّا: وهل قلتُ المرحومة؟ أبدًا، أنا لم أقل ذلك ... ماذا دهاك يا أخي؟ اتقِ الله ... ما لك شحبْتَ؟ هئ، هئ، اسمع بأذنك ولا تسمع ببطنك!

– هل كنت عند أنيوتا اليوم؟

– نعم، زرتها في الصباح ... كانت راقدة تصرخ في الخدم ... تارة لم يقدموا لها هذا الشيء كما يجب، وتارة ذاك ... امرأة لا تطاق! لا أفهم ما الذي جعلك تحبها ... لو أن الله

يهديها فتطلق سراحك أيها المسكين ... إذن لعشتُ حرًّا وتمتعت ... ولتزوجت غيرها ... طيب، طيب سأسكت! لا تعبس! أنا لا أقصد ... مجرد كلام عواجيز ... أنت تعرف رأيي ... إذا شئت أحب، وإذا لم تشأ لا تحب ... أنا لا أرجو لك إلا الخير. إنها لا تعيش معك، ولا تريد أن تعرفك ... أي زوجة هذه؟ قبيحة هزيلة، سيئة الطباع ... لا تستحق الشفقة ... فليكن.

فقال كوفالدين متنهدًا: مِن السهل عليك أن تتحدث يا أريستارخ إيفانيتش! الحب ليس شعرة، لا يمكن انتزاعه ببساطة.

– وهل فيها ما يُحب؟ إنك لم ترَ منها غير اللؤم. لا تؤاخذ عجوزًا مثلي، فأنا لم أحبها ... لم أكن أطيق رؤيتها! عندما أمرُّ بجوار بيتها أغمض عيني حتى لا أراها ... نهايته! رحمها الله وأسكنها فسيح جناته ... لم أكن أحبها. فليغفر لي الله ذنبي!

فقال كوفالدين ممتقعًا: اسمع يا أريستارخ إيفانيتش هذه ثاني مرة يزلُّ فيها لسانك. قل لي: هل ماتت؟

– كيف ماتت؟ لم يمت أحد ... كل ما في الأمر أنني لم أكن أحب المرحومة ... إخص! أعني ليست المرحومة ... بل زوجتك، آنًّا.

– ماذا حدث لها؟ هل ماتت؟ لا تعذبني يا أريستارخ إيفانيتش! إنك تبدو منفعلًا بصورة غريبة، تتخبط في الكلام ... وتمتدح حياة العزوبية ... هل ماتت؟ نعم.

فتمتم بسكاريوف وهو يسعل: هكذا، مرة واحدة ماتت! يا لك من متسرِّع يا أخي ... ولنفرض أنها ماتت! كلنا سنموت، وهي أيضًا مصيرها إلى الموت ... وأنت ستموت، وأنا.

احمرت عينا كوفالدين وامتلأتا بالدموع، وسأل بصوت خافت: في أي ساعة؟

– ليس في أي ساعة ... ما أسرع دموعك! لم تمت! من الذي قال لك إنها ماتت؟

– أريستارخ إيفانيتش ... أرجوك ... لا تشفق عليَّ!

– لا يا أخي، أنت لا يمكن الكلام معك، كأنك طفل. هل قلت لك إنها ماتت؟ هل قلت لك؟ تسترسل في البكاء؟ اذهب وافرح بها ... سالمة غانمة! عندما زرتها كانت تتشاجر مع عمتها ... كان الأب ماتفي يقيم قُدَّاس الجناز بينما صياحها يملأ البيت كله.

– أي قُدَّاس؟ ولماذا يقام؟

– القُدَّاس؟ أبدًا، هكذا ... يعني بدلًا من الصلاة. أقصد ... لم يكن هناك أي قُدَّاس، بل شيء ما هكذا.

لم يكن هناك شيء.

ارتبك أريستارخ أيفانيتش، فنهض، واستدار إلى النافذة وراح يسعل.

– عندي سعال يا أخي ... لا أدري من أين أصبت بالبرد.

ونهض كوفالدين أيضًا، وأخذ يذهب ويجيء بعصبية بجوار الطاولة وقال وهو يعبث بلحيته بيدين مرتعشتين: إنك تلف وتدور ... الآن فهمتُ ... فهمتُ كل شيء. ولا أدري لِمَ كل هذه الدبلوماسية! لماذا لا تقول مباشرة؟ ماتت، أليس كذلك؟

هز بسكاريوف كتفيه:

– هم ... كيف أقول لك؟ ليس تمامًا ماتت وإنما هكذا ... أوه، ها أنت ذا تبكي! ألسنا كلنا سنموت؟ ليس الموت مكتوبًا عليها وحدها، كلنا سنرحل إلى الدار الآخرة! وبدلًا من البكاء أمام الناس ... هلَّا ذكرتَ روحها بالرحمة؟ هلَّا رسمتَ الصليب؟

ظل كوفالدين يحدق في بسكاريوف ببلاهة حوالي نصف دقيقة، ثم امتقع بشدة، وسقط في مقعده وانفجر في بكاء هستيري ... وقفز زملاؤه الموظفون من خلف مكاتبهم وأسرعوا لنجدته وحك بسكاريوف قفاه وعبس. ودمدم مادًّا يديه: التعامل مع هؤلاء السادة مصيبة ... أي والله! يعول ... فلماذا يعول؟ مِيشا، ماذا دهاك؟ ميشا! وأخذ يهز كوفالدين. إنها لم تَمُت بَعْد! من قال لك إنها ماتت؟ بالعكس، يقول الأطباء إنه ما زال هناك أمل ... ميشا! يا ميشا! أقول لك إنها لم تمت! أتريد أن نذهب إليها معًا؟ هيا وعندئذ ستلحق قُدَّاس الجناز ... ماذا أقول؟ لا أقصد القدَّاس بل الغداء. ميشا، أؤكد لك أنها ما زالت حية! فليعاقبني الله إن كنت كاذبًا! فليحرمني من نعمة البصر! ألا تصدقني؟ إذن فهيا إليها ... وعندئذٍ اعتبرني ما شئتَ إذا لِمَ؟ ... من أين جاء بهذا؟ لا أفهم. أنا اليوم كنتُ بنفسي عند المرحومة، أقصد ليس المرحومة إنما ... إخص!

وأشاح العقيد بيده وبصق وخرج من الإدارة. وعندما وصل إلى شقة المرحومة تهالك على الكنبة وشد شعره. وصاح في أَسًى: اذهبُوا إليه أنتم! مَهِّدوا أنتم للنبأ واعفوني من ذلك! أنا لا أريد! لم أقل له سوى كلمتين ... مجرد تلميح ... فانظروا ماذا جرى له! إنه يموت! فقد وعيه! لن أقبل أبدًا في المرة القادمة ... اذهبوا أنتم!

الخطيب

ذات صباح رائع جَرى دَفْن المساعد الاعتباري كيريل إيفانوفتش فافيلونوف، الذي تُوفِّيَ من جراء مرضين جد منتشرَين في بلادنا: الزوجة الشريرة، وإدمان الخمر. وعندما تحرَّك موكب الجنازة من الكنيسة إلى المقابر، استقلَّ أحد زملاء المتوفَّى المدعو بوبلافسكي، عربة وانطلق إلى صديقه جريجوري بتروفتش زابويكين، وهو رجل شابٌّ ولكنه مشهور إلى حد كبير. وزابويكين، كما يَعرف كثير من القُرَّاء، رجل ذو مَوهِبة نادرة في ارتجال خُطب الزِّفاف والمناسَبات اليوبيلية والتأبين. وبوسعه أن يخطب في أي وقت: إثر الاستيقاظ مباشرة، وعلى الريق، وفي حالة السُّكر الفظيع، وفي أثناء الحُمَّى، وينساب كلامه ناعمًا، سلسًا كما يسيل الماء من ميزاب، وغزيرًا. وفي قاموسه الخطابي من كلمات الرِّثاء أكثر مما في أي حانة من صراصير. وخُطبه دائمًا فصيحة، طويلة حتى إنهم أحيانًا، وخاصة في أعراس التجار، يُضطرُّون للجوء إلى الشرطة لإيقافه عن الكلام.

وقال بوبلافسكي عندما وجده في البيت: إنني أقصدك يا أخي! البس بسرعة وهيَّا بنا. لقد توفِّي أحد زملائنا، والآن نشيعه إلى العالم الآخر، ومطلوب يا أخي أن تقول في وداعه بعض الهُرَّاء ... الأمل كله فيك؛ لو كان المتوفَّى من صغار الموظفين لَمَا أزعجناك، ولكنه سكرتير ... يعني من أعمدة الإدارة، ومن غير اللائق أن ندفن هذا الرأس الكبير بدون خطبة.

فقال زابويكين متثائبًا: آه السكرتير! أهو ذلك السِّكير؟

– نعم، السِّكير. ستكون هناك شطائر ومزَّات ... وستُمنَح أجرة العربة. هيا يا عزيزي! فَلتُلقِ على قبره خطبة عصماء أفصح من خطب شيشرون، وستتلقَّى كل الشكر!

وافق زابويكين عن طيب خاطر، نكش شعره، وأضفى على وجهه سيماء الكآبة وخرج مع بولافسكي. وقال وهما يجلسان في العربة: أَعرف سكرتيركم هذا، قَلَّ أن تجد أفَّاكًا وشيطانًا مثله، عليه الرحمة.

– لا يصح يا جريشا أن تشتم الموتى.

– أنت محقٌّ طبعًا aut mortuis nihil bene[1] ولكنه مع ذلك مُحتال.

لحق الصديقان بركب الجنازة وانضَمَّا إليه، وكانوا يحملون المتوفَّى ويسيرون به ببطء، فتمكَّن الصَّديقان قبل بلوغ المقابر من أن يعرجا ثلاث مرات على الحانات ويشربَا في ذكرى المرحوم.

وأُقيمت صلاة الميت في المقابر؛ وجريًا على العادة، بكت زوجته وأختها وحماته كثيرًا. وعندما أُنزل التابوت إلى القبر صاحت زوجته: «ادفنوني معه!» لكنها لم تنزل إلى القبر وراء زوجها ربما؛ لأنها تذكرت المعاش. وانتظر زابويكين حتى عمَّ الهدوء، ثم تقدَّم إلى الأمام، وطاف على الحاضِرين بنظراته، وقال: هل نُصدِّق سمْعَنا وأبصارنا؟ أليس حلمًا رهيبًا هذا التابوت وهذه الأوجه الباكية، وهذا الأنين والنحيب؟ يا للحسرة، هذا ليس حلمًا، وأبصارنا لا تخدعنا! إن ذلك الذي رأيناه منذ وقت قريب مكتمل الصحة في أوج شبابه وبهائه ونضارته، ذلك الذي رأيناه منذ وقت قريب يضع كالنحلة عسله في الخلِية العامَّة لبناء الدولة، ذلك الذي ... هو بِعينه أصبح الآن ترابًا، أصبح سرابًا ماديًّا. لقد أطبَقت عليه قبضة الموت الذي لا يرحم عندما كان، رغم عمره المتأخِّر، مفعمًا بالقوة المتأجِّجة والأحلام المشرِقة. فيا لها من خسارة لا تُعوَّض! مَن ذا الذي يُعوِّضنا عنه؟ لدينا الكثير من الموظَّفِين الممتازِين، ولكن بروكوفي أوسيبوفتش كان الوحيد بينهم. لقد كان مخلِصًا من صميم قلبه لواجبه الشريف، ولم يرحم نفسه، لم ينم الليل، وكان مَثلًا للتفاني والنزاهة ... كم كان يحتقر أولئك الذين يحاولون رِشوَته على حساب المصلحة العامة، أولئك الذين حاولوا بخيرات الحياة المُغرِية دفعه إلى خيانة واجبه! نعم، لقد رأينا بأعيننا كيف كان بروكوفي أوسيبوفتش يوزِّع راتبه الصغير على رفاقِه المُعوِزين، وها قد سمعتم الآن عويل الأرامل واليتامى الذين كانوا يعيشون على حسناته. لقد كان مخلصًا لواجبه الوظيفي ولأعمال

[1] تعبير مُحرَّف عن اللاتينية ومعناه هنا (لا يذكر الموتى بسوء)، وأصله في اللاتيني اللاتينية de mortuis aut bene aut nihil ومعناه (إمَّا أن تذكر الموتى بالحسنى وإما لا تذكرهم بشيء). (المُعَرِّب)

الخير فلم يَذُق مَلذَّات الدنيا بل حرم نفسه حتى من سعادة الحياة العائلية. فأنتم تعرفون أنه ظل عازبًا حتى آخر أيام عمره! ومن ذا الذي يعوضنا عنه رفيقًا؟ كأني أرى الآن وجهه الحليق البشوش الذي يهلُّ علينا بابتسامة طيبة، وكأني أسمع الآن صوته الناعم الودود الرقيق. طيَّب الله ثراك يا بروكوفي أوسيبوفتش! فَلتنعَم بالسكينة أيها الكادح الشريف النبيل.

ومضى زابويكين يخطب بينما أخذ المستمعون يَتوشْوَشُون. أُعجب الجميع بالخطبة التي استدرَّت بعض الدموع، ولكن الكثير فيها بدَا لهم غريبًا؛ فأولًا لم يكن مفهومًا لماذا دعا الخطيب المرحوم باسم بروكوفي أوسيبوفتش، بينما اسمه كيريل إيفانوفتش، وثانيًا: كان الجميع يعرفون أن المرحوم ظل طوال حياته يصارع زوجته الشرعية، وبالتالي فلا يمكن أن يكون عازبًا، وثالثًا: فقد كانت لديه لحية غزيرة حمراء، ولم يحلق ذقنه قط؛ ولذا لم يكن مفهومًا لماذا وصف الخطيب وجهه بالحليق. أبدى السامعون استغرابهم وتبادلوا النظرات وهزوا أكتافهم.

ومضى الخطيب يقول بحماس وهو ينظر في القبر:

يا بروكوفي أوسيبوفتش! لم يكن وجهك جميلًا، بل حتى كان قبيحًا، مُتجهِّمًا صارمًا، ولكننا كنا نعرف جميعًا أن هناك، تحت هذه القشرة الظاهرة، ينبض قلب شريف ودود!

وسرعان ما بدأ السامعون يلاحظون شيئًا غريبًا على الخطيب نفسه. فقد ثبت بصره على نقطة واحدة، ثم أخذ يتململ بقلق، وراح يهز كتفيه. وفجأة صمت، وفغر فاه بدهشة، والتفت إلى بوبلافسكي. وقال وهو ينظر برعب: اسمع، إنه حيٌّ!

– مَن الحيُّ؟

– بروكوفي أوسيبوفتش! ها هو يقف هناك بجوار التمثال!

– إنه لم يمت أصلًا! كيريل يافانيتش هو الذي مات!

– ألم تقل لي إن سكرتيركم مات؟

– كيريل إيفانيتش كان سكرتيرًا، يا لك من مُضحِك، لقد خلطتَ الأمور! صحيح أن بوركوفي أوسيبوفتش كان سكرتيرًا، ولكنه نُقل منذ عامين إلى القسم الثاني رئيس قلم.

– آه، الشيطان وحده يفهمكم!

– وما لك توقَّفتَ، أكمل، لا تحرجنا!

والتفت زابويكين نحو القبر وواصل حديثه المنقطع بنفس البلاغة السابقة. وبالفعل كان بروكوفي أوسيبوفتش، وهو موظَّف عجوز، بوجه حليق، يقف بجوار التمثال. وكان يتطلع إلى الخطيب وقد قطَّب حاجبيه بغضب.

وضحك الموظَّفون في أثناء عودتهم من المقابر مع زابويكين: ما الذي دهاك؟ تدفن شخصًا حيًّا!

ودمدم بروكوفي أوسيبوفتش: عيب عليك أيها الشاب! ربما كانت خطبتُك مناسبة للمرحوم، ولكنها مَحض سخرية بالنسبة إلى شخص حيٍّ! ما هذا الذي قُلتَه؟ مُتفانٍ، نزيه، لا يقبض رشاوي! هذا الكلام عن شخص حي ليس إلا سخرية! كما أن أحدًا لم يطلب منك يا سيدي أن تفيض في وصف وجهي، غير جميل، قبيح، فليكن، ولكن ما الداعي لعرض وجهي فُرجة أمام الجميع؟ هذا مهين!

تحفة فنية

تَصنَّع ساشا سميرنوف، وحيد أُمِّه؛ الحُزن وهو يَدلِف إلى عيادة الدكتور كوشيلكوف وقد وضع تحت إبطه شيئًا ملفوفًا في العدد ٣٢٢ من جريدة «أخبار البورصة».

واستقبله الدكتور قائلًا: أهلًا بالفتى العزيز! حَسنًا، كيف صحَّتُنا؟ ماذا لديك من أخبار طيبة؟

طَرَف ساشا بعينيه، ووضع يده على قلبه، وقال بصوت منفعِل: ماما تبلغكم تحياتها يا إيفان نيقولايفتش، وطلبَت مني أن أشكركم ... أنا وحيد أمي، وأنتم أنقذتم حياتي ... شفيتموني من مرض خطير و... ولا نعرف كيف نشكركم.

فقاطعه الدكتور وهو يسترخي من السرور: كَفى يا فتى. أنا لم أفعل إلا ما كان يجب أن يفعله أي شخص آخر لو كان مكاني.

– أنا وحيد أمي ... ونحن فقراء، ولا نستطيع بالطبع أن نكافئكم على تَعبكم و... نحن في غاية الخجل يا دكتور، وإن كنا، ماما وأنا ... وحيد أمي، نرجوكم رجاء حارًّا أن تقبلوا منا، رمزًا لامتناننا ... هذه الهدية التي ... إنها تحفة ثَمينة، من البرونز القديم ... تحفة فنية نادرة.

فامتعض الدكتور: لا لزوم لذلك! ما الداعي؟

فمضى ساشا يدمدم وهو يفك اللفَّة: لا، أرجوكم، لا ترفضوها؛ إن رفضكم سيكون إهانة لي ولماما ... إنها قطعة ممتازة ... من البرونز القديم. تركها لنا المرحوم بابا فاحتفَظْنا بها كذكرى غالية ... كان بابا يشتري التُّحف البرونزية القديمة ويبيعها للهواة ... والآن نُزاوِل ماما وأنا نفس الشيء.

فك ساشا اللفَّة ووضع التُّحفة على الطاولة بحفاوة. كانت شمعدانًا متوسِّط الارتفاع، من البرونز القديم مَصوغًا بصورة فنية، وكان يصور مجموعة؛ فعلى القاعدة وقف جسدان نسائيان في لباس حواء وفي وضع لا تكفيني لوصفه لا الشجاعة ولا الحَمِيَّة الكافية. كان الجسدان يبتسمان بدلال، وكان يلوح من منظرهما، أنه لولا ما أُلقِي عليهما من مسئولية رفع الشمعدان لقفزَا من القاعدة وعربَدَا في الغرفة بصورة لا يليق حتى التفكير فيها أيها القارئ.

وبعد أن تأمَّل الدكتور الهدية، حَك خلف أذنه ببطء، وتنحنح، ثم تمخَّض بتردد، ودمدم: نعم، تحفة رائعة فعلًا، ولكنها ... كيف أقول؟ ... ليست تعني ... غير أدبية أبدًا ... ليس هذا حتى ديكولتيه، بل الشيطان يعلم ما هذا.

– ماذا تقصد، لماذا؟

– شيطان الغواية نفسه لا يستطيع أن يبتكر أفظع من هذا. إن وضع هذا الهراء على الطاولة معناه تدنيس الشقة كلها.

فقال ساشا غاضبًا: ما أغربَ نظرَتَك إلى الفن يا دكتور. إنها تحفة فنية، انظر جيدًا! فيها من الجمال والرشاقة ما يملأ النفس بمشاعر الرهبة، ويدفع إلى الحلق بِغُصَّة البكاء! وعندما ترى هذا الجمال تنسى كل ما هو دنيوي ... انظر أي حركات، وأي شفافية وأي قوة تعبيرية!

فقاطعه الدكتور قائلًا: أَعرِف كل ذلك جيدًا يا عزيزي، ولكني رجل متزوج، وأولادي يلعبون هنا، وتزورنا سيدات محترمات.

فقال ساشا: طبعًا إذا نظرْنَا من وجهة نظر الغوغاء، فإن هذه التحفة الفنية السامية ستبدو لنا بالطبع بصورة مختلِفة ... ولكن يا دكتور، فلتعلُ فوق مستوى الغوغاء، خاصة أن رفضك للهدية سيحزنني وماما كثيرًا. أنا وحيد أمي ... وقد أنقذتَ حياتي ... إننا نهديك أعز شيء علينا ... و... ولا يؤسفني إلا أنه لا يوجد لديك شمعدان مماثِل ليناسب هذا الشمعدان.

– شكرًا يا عزيزي! أنا ممتن جدًّا ... بلِّغ تحياتي لماما، ولكن في الحقيقة ... انظر بنفسك ... الأولاد يلعبون هنا، وتزورنا سيدات محترَمات ... على العموم دَعْها، فلتبقَ! فلن تفهم مَهما شرحتُ لك.

فقال ساشا مسرورًا: لا داعي لأي شرح، ضع الشمعدان هنا، بجوار المزهرية. من المؤسِف أنه لا يوجد شمعدان مماثل! مؤسف جدًّا! حسنًا، وداعًا يا دكتور.

وبعد أن انصرف ساشا ظل الدكتور يُحدِّق طويلًا في الشمعدان، ثم حَك خلف أذنه ومضى يفكر.

وقال لنفسه: «تحفة رائعة، لا شك في هذا، يعز عليَّ أن أرميها ... كما أن الاحتفاظ بها مستحيل. هم! يا لها من مسألة مُحيِّرة! تُرى لمن يمكن إهداؤها أو التبرُّع بها؟»

وبعد تفكير طويل تذكَّر صديقه الطيب، المحامي أوخوف، الذي كان مدينًا له بأتعاب قضية.

فقرَّر الدكتور: ممتاز! إنه مُحرِج كصديق من أن يتقاضى مني أجرًا، وسيكون من اللائق تمامًا لو أهديتُه هذه التُّحفة. فلأحمل إليه هذه المصيبة! وبالمناسبة فهو أعزب وأرعن.

ومضى الدكتور بلا تسويف فارتدى ملابسه، وأخذ الشمعدان ورحل إلى أوخوف.

وجد المحامي في البيت فحياه: مرحبًا يا صديقي! ها قد جئتُك ... لكي أشكرك يا أخي على مجهوداتك ... إذا لم تكن تريد أن تأخذ مني نقودًا، فلتأخذ على الأقل هذه التحفة ... إنها يا أخي تحفة فخمة!

وحينما رأى المحامي التحفة تملَّكه إعجاب لا يُوصَف. وقال وهو يقهقه: يا لها من تُحفة! يا للملاعين، انظر كيف يَبتَكر هؤلاء الشياطين أشياء كهذه! رائعة! خلابة! من أين حصلت على هذه الفتنة؟

وبعد أن سكَب المحامي إعجابه نظر إلى الباب بخوف وقال: ولكن احمل يا أخي هديتك من هنا. لن آخذها.

فسأل الدكتور بذعر: ولماذا؟

– هكذا ... والدتي تأتي إلى هنا، والزبائن ... بل حتى الخدم سأشعر بالحرج أمامهم.

فأشاح الدكتور بيديه: لا يمكن، أبدًا! إياك أن تجرُؤ على رَفْضِها! سيكون ذلك خِسَّة من جانبك! هذه تُحفة فنِّية ... انظر أي حركات ... أي قوة تعبيرية ... أنا لا أقبل أي نقاش، سأغضب منك.

– لو أنها كانت مدهونة، أو مستورة بأوراق التوت.

ولكن الدكتور أشاح بيديه أكثر، وانطلق راكضًا من شقة أوخوف، ومضى إلى البيت سعيدًا بأنه أفلح في التخلُّص من الهدية.

وبعد خروجه تفحَّص المحامي الشمعدان وتحسسه بأصبعه من جميع الجوانب، أخذ مثل الدكتور يفكِّر طويلًا فيما يفعله بهذه الهدية.

وقال لنفسه: «إنها تحفة رائعة، يعز عليَّ أن أرميها، كما أن الاحتفاظ بها لا يليق. أحسن شيء أن أهديها لأحد ما … نعم، فلأحمل هذا الشمعدان مساء اليوم إلى الممثل الكوميديان شاشكين. هذا اللئيم يحب أمثال هذه الأشياء، وبالمناسبة، فاليوم حفلته «البنيفيس».»

وهذا ما كان. ففي المساء قدَّم الشمعدان الملفوف بعناية إلى الممثل شاشكين. وتعرَّضَت غرفة الملابس الخاصة بالممثل طوال المساء لهجوم الرجال الذين جاءوا للتفرُّج على الهدية. وتردَّد في الغرفة طوال الوقت هدير الإعجاب والضحكات الشبيهة بصهيل الخيل. وعندما كانت إحدى الممثلات تقترب من باب الغرفة وتسأل: «هل أستطيع أن أدخل؟» تسمع على الفور صوت الممثل الأبح:

– كلا، كلا يا عزيزتي! لم ألبس بعد!

وبعد الحفل هَزَّ الممثل كتفيه وأشاح بيديه، وقال: حسنًا، وماذا أفعل بهذه النجاسة؟ إنني أسكن شقة مُؤجَّرة! والممثلات يزُرنَني. وليست هذه صورة بحيث يمكن إخفاؤها في درج المكتب!

وقال له الحلَّاق وهو يزيل عنه المكياج: بعها يا سيدي … توجد هنا في الضاحية سيدة عجوز تشتري البرونز القديم … اذهب إلى هناك واسأل عن سميرنوفا … الجميع يعرفونها.

واتبع الممثل النصيحة … وبعد يومين كان الدكتور كوشيلكوف جالسًا في عيادته وقد وضع إصبعه على جبينه وهو يفكر في الأحماض الصفراوية وفجأة فتح باب الغرفة واندفع ساشا سميرنوف داخلًا. كان يبتسم متهللًا، وقد طفحَت هيئته كلها بالسعادة … وكان في يده شيء ملفوف.

وقال وهو يكاد يختنق: يا دكتور! تصوَّر مدى فرحتي! لحُسن حظِّك استطعنا أن نحصل على شمعدان مُماثِل لشمعدانكم! ماما في غاية السعادة … أنا وحيد ماما … لقد أنقذتَ حياتي.

ووضع ساشا الشمعدان أمام الدكتور وهو يَرتجِف من الفرحة. وفَغَر الدكتور فَمَه، وأراد أن يقول شيئًا ما ولكنه لم ينبس بشيء … إذ فَقَد النطق.

أجافيا

عندما كنتُ أعيش في ناحية «س»، كثيرًا ما كنتُ أتردَّد على مَزارع الخضراوات في دبوفو، والتي يحرسها سافا ستوكاتش، أو كما كان يدعى ببساطة: سافكا. كانت هذه المَزارع أحب مكان إليَّ للقيام بما يسمى صيد السمك «العمومي»، عندما لا تعرف، بعد أن تُغادر البيت اليوم أو الساعة التي سترجع فيها، وتأخذ معك كل مُعدَّات الصيد عن آخرها وتتزوَّد بالمئونة، وفي الواقع لم يكن صيد السمك هو الذي يهمني، بقدر ما هو التسكُّع بلا هموم، والأكل في غير وقته، والحديث مع سافكا، والمواجهات الطويلة مع ليالي الصيف الهادئة. كان سافكا فتى في حوالي الخامسة والعشرين، فارع الطول، جميلًا، قويًّا كالحجر الصوَّان. واشتهر كشخص عاقل فهيم، وكان متعلمًا، لا يشرب الفودكا إلا نادرًا، ولكن هذا الفتى الشاب القوي كان لا يساوي، كعامل، قرشًا خردة. فإلى جانب القوة، تمدد في عضلاته المفتولة الحبال كسل ثقيل لا يقهر. وكان يعيش مثله مثل الآخرين في القرية، في بيته الخاص، ويملك قطعة أرض، ولكنه لم يكن يحرث أو يبذر ولم يَشتغِل بأي حرفة. وكانت أمه العجوز تَتسوَّسل، وهو ذاته كان يَحيا كطيور السماء: لا يعرف صباحًا ماذا سيأكل ظهرًا. ولم تكن المسألة ترجع إلى ضعف إرادته وطاقته، أو عدم إشفاقه على أمه، وإنما ببساطة كان لا يحس بالرغبة في العمل ولا يدرك فائدته ... كانت هيئته كلها تنضح بخلوِّ البال، وبرغبة موروثة، كرغبات الفنَّانِين، في العيش دون عناء، وبإهمال. وعندما كان جسد سافكا الفتيُّ القويُّ يحن فسيولوجيًّا إلى العمل العضلي كان الشاب ينهمِك كُلِّيَّة في عمل حر ولكنه تافه، مثل سنِّ أوتاد لا حاجة إليها ألبتة، أو التسابق في الجري مع نساء القرية. أما أحب وضع إليه فكان الوقوف بلا حراك مستغرقًا في التفكير. وكان بوسعه أن يقف ساعات طويلة في مكانه دون حركة محدِّقًا في نقطة واحدة. كان لا يتحرك إلا بدافع الإلهام، وفقط عندما تتاح له فرصة الإتيان بحركة سريعة قصيرة: كأن يقبض على ذيل كلب راكض،

أو ينتزع منديلًا من على رأس فلاحة، أو يقفز فوق حفرة واسعة. ومن الطبيعي مع هذه البخل في الحركة، أن يكون سافكا عاريًا كوليد، وأن يحيا أسوأ من أي عازب عجوز. وبمرور الوقت كان لا بد أن تتراكم عليه الديون، فأرسله مجمع القرية، وهو الشاب القوي إلى وظيفة يقوم بها الشيوخ، ليعمل حارسًا وفزَّاعة طيور في مَزارع الخضراوات العامة. ورغم كل السخريات التي تعرَّض لها بشأن شيخوخته المبكِّرة، لم يُعِر الأمر أدنى اهتمام. فهذه الوظيفة الهادئة المناسبة للتأمُّل الجامد كانت جد ملائمة لطبعه.

وقد تصادَف أن ذهبتُ إلى سافكا هذا في إحدى أمسيات شهر مايو الجميلة. وأذكر أني تمدَّدتُ على دثار ممزَّق مهترئ مباشرة بجوار الخص، الذي كانت تتصاعد منه رائحة أعشابٍ جافة قوية خانقة. توسَّدتُ ذراعيَّ ورحتُ أنظر أمامي. كانت هناك مِذْراة خشبية مُلقاةً عند قدميَّ. ومن خلفها كانت تخز العين بقعة سوداء هي «كوتكا» … كلب سافكا الصغير. وعلى بُعد ذراعين لا أكثر من «كوتكا» انشقَّت الأرض عن شاطئ شديد الانحدار لنهر صغير. لم أكن أستطيع أن أرى النهر من مرقدي. لم أرَ غير قمم صفصافات كثيفة على هذا الشاطئ، وحافة الشاطئ الآخر المتعرِّجة وكأنها مقضومة. وبعيدًا وراء الشاطئ، وعلى رابية مُعتِمة تلاصقت كحجلات مذعورة بيوت القرية التي كان يعيش فيها صاحبي سافكا. ومن خلف الرابية كانت أضواء المغيب تتلاشى. ولم يبقَ إلا شريط أحمر شاحب، وحتى هذا أخذت تُغلِّفه سحب صغيرة، كما يغلف الرماد الجمرات.

وعلى يمين المزارع لاح حرش أشجار حرو رومي معتمة وهي تهمس بحفيف خافت وتنتفض من هبَّات الريح العابرة، وعلى اليسار امتَد حقل لا يحده البصر. وهناك، حيث لم يكن بوسع العين أن تميز في الظلام الحقل عن السماء، تراقص ضوء ساطع. وغير بعيد عني جلس سافكا. كان يجلس القرفصاء وقد دلَّى رأسه، وهو ينظر إلى «كوتكا» مستغرقًا. كنا قد وضعنا سنانيرنا في النهر منذ وقت بعيد، ولم يعد لدينا ما نفعله سوى الاستسلام للراحة التي كان يحبها سافكا المستريح دومًا، الذي لم يجهد نفسه أبدًا. ولم يكن شفق المغيب قد تلاشى تمامًا، بينما نشر ليل الصيف على الطبيعة رِقَّته الناعمة المخدرة.

سكن كل شيء في بداية نوم عميق، اللهم إلا طائرًا لَيليًّا غير معروف لي أخذ يطلق في الحرش بكسل صوتًا طويلًا مؤلَّفًا من مقاطع. يشبه عبارة «هل رأيت نيـ … كيـ … تا؟» وعلى الفور يرد على نفسه: «رأيت! رأيت! رأيت!»

وسألت سافكا: لماذا لا تصدح البلابل الليلة؟

فاستدار نحوي ببطء. كانت تقاطيع وجهه كبيرة، ولكنها صافية، معبرة وناعمة كتقاطيع وجه المرأة. ثم تطلع بعينيه المستكينتَين المستغرقتَين إلى الحرش، ثم إلى

الصفصافات، وأخرج من جيبه ببطء زمارة، ودسَّها في فمه، وصفر كالبلبل. وعلى الفور، وكأنما ردًّا على صفيره، نقَّر طائر التَّفْلِق البرِّي على الشاطئ الآخر.

وضحك سافكا ضحكة قصيرة:

– إليك بلبلًا ... انظر كيف ينقر: قر ... قر، قر ... قر! كأنه يشد ترباسًا وتراه يظن أنه يغني.

فقلت له:

– يعجبني هذا الطائر. أتدري؟ التَّفْلِق في أثناء الهجرة لا يطير، بل يجري على الأرض. لا يطير إلا فوق الأنهار والبحار، وفيما عدا ذلك يسير.

فتمتم سافكا وهو ينظر باحترام ناحية التَّفْلِق الصارخ: يا سلام يا ملعون.

ولمَّا كنتُ أَعرِف شَغَف سافكا بسماع الأحاديث، فقد رويت كل ما أعرفه من كتب الصيد عن التَّفْلِق البَرِّي.

وانتقلت من التَّفْلِق إلى هجرة الطيور. وكان سافكا يُصغي إليَّ بانتباه دون أن تطرف عيناه، وهو يبتسم طول الوقت من المتعة.

وسألني: أي ناحية أعزُّ على الطيور؟ ناحيتنا، أم الأخرى؟

– ناحيتنا طبعًا. فالطائر يولد هنا، وهنا يُربِّي أولاده. هنا موطنه، وهو يطير إلى هناك فقط حتى لا يتجمد من البرد.

فقال سافكا وهو يتمطى: عجيبة! كل ما حولنا عجيب. فسواء طائر، أم إنسان ... أو خذ مثلًا هذا الحجر ... في كل شيء حكمة! آه لو كنتُ أدري أنك ستأتي يا سيدي لما سمحتُ للمرأة أن تَحضُر إليَّ الليلة ... فقد طلبتُ واحدة أن تأتي الليلة.

فقلت له: خُذْ راحتك، لن أزعجك! أستطيع أن أنام في الحرش.

– وهل هذا كلام؟ ما كانت لتموت لو جاءت غدًا ... لا بأس لو أنها جلسَت تستمع إلى الأحاديث، ولكنها فقط تجلس ولعابها يسيل. لا يمكن أن تتحدَّث في حضورها كما ينبغي.

وصمت قليلًا ثم سألته: هل تنتظر داريا؟

– لا ... هذه المرة واحدة أخرى طلبتُ أن تأتي ... أجافيا ستريلتشيخا.

قال سافكا ذلك بصوته العادي، الخالي من العاطفة، الخافت قليلًا، وكأنما كان يتحدَّث عن التبغ أو العصيدة، أما أنا فقد انتفضتُ من الدهشة. كنت أعرف أجافيا ستريلتشيخا ... لقد كانت امرأة شابَّة تمامًا، في حوالي التاسعة عشرة أو العشرين، وقد تزوجَت منذ ما لا يزيد على عام من عامل تحويلة بالسكك الحديدية، وهو فتًى شاب، مهيب الطلعة. وكانت تعيش في القرية، أما زوجها فكان يأتي من عمله كل ليلة ليبيت عندها.

وقلت متنهدًا:

– حكايتك هذه مع النساء ستنتهي نهاية سيئة يا أخي!

– فليكن.

وفكر سافكا قليلًا ثم أضاف: أنا قلتُ لهن، ولكنهن لا يسمعن الكلام ... هؤلاء الحمقاوات لا يكفينهن ما هنَّ فيه من مصائب!

وحلَّت فترة صمت ... وفي تلك الأثناء كان الظلام قد ازداد حلكة، وفقدت الأشياء ملامحها المميزة. وانطفأ الشريط وراء الرابية، بينما ازدادت النجوم سطوعًا وإشعاعًا ... ولم يعكر من صفو السكون الليلي صرير الجنادب الرتيب اللامبالي أو نقر التَّفْلِق أو صياح السمَّان، بل على العكس، أضفى عليه مزيدًا من الرتابة. وبدَا أن ما يردد هذه الأصوات الخافتة ويسحر السماع ليست هي الطيور أو الحشرات، بل النجوم التي كانت تتطلع إلينا من السماء.

وكان سافكا أول من قطع حبل الصمت. حوَّل نظره ببطء من «كوتكا» إليَّ ثم قال: أرى يا سيدي أنك تضجر. هيَّا نتعشى.

ودون أن ينتظر موافقتي زحف على بطنه داخل الخص، وبحث هناك فانتفض الخص كله كورقة شجر، ثم عاد زحفًا ووضع أمامي الفودكا التي أحضرتها أنا وصحفة من الفخار. كان في الصحفة بيض مشوي وشطائر من الجودار بدهن الخنزير، وكِسَر خُبز أسود وأشياء أخرى ... وشرِبْنا من كوب معوج لا يستقيم في وقفته، وشرَعْنا نأكل ... ملحًا رماديًّا خشنًا، وشطائر قذرة مدهنة، وبيضًا مَرِنًا كالمطاط، ومع ذلك فما أشهى ذلك كله! وقلتُ لسافكا مشيرًا إلى الصحفة: تَعيش أعزب ومع ذلك ما أكثر الخيرات لديك ... من أين حصلت عليها؟

فدمدم سافكا بصوت كالخوار: النساء يُحضِرنَها.

– ولماذا يُحضِرنَها لك؟

– هكذا ... من باب الشفقة.

لم يكن الطعام وحده، بل وملبس سافكا أيضًا، يحمل بصمات هذه «الشفقة» النسائية. ففي هذا المساء مثلًا لاحظت عليه حزامًا جديدًا من التيل وشريطًا أحمر فاقعًا تدلى منه صليب نحاسي على رقبته القذرة. كنت أعرف ميل الجنس اللطيف إلى سافكا، وكنت أعرف أنه لا يرغب في الحديث عن ذلك فلم أواصل التحقيق. فضلًا عن أن الوقت لم يكن مناسبًا للحديث ... إذ إن «كوتكا»، الذي كان يدور حولنا ينتظر في صبر صدقاتنا، أرهف أذنيه فجأة وأخذ يزمجر. وتناهى من بعيد صوت طرطشة ماء متقطعة.

وقال سافكا: هناك شخص يَعبُر النهر.

وبعد حوالي ثلاث دقائق زمجر «كوتكا» ثانية، وصدر عنه صوت يشبه السعال.

فصاح به صاحبه: هس!

وتردد في الظلام وقع خطوات وجلبة، وظهر من الحرش سبح امرأة. وعرفتُها رغم الظلام ... كانت هي أجافيا ستريلتشيخا. اقتربَت منَّا مُتهيِّبة، وتوقَّفَت وهي تلتقط أنفاسها المبهورة. لم تكن تلهث بسبب المشي، بقدر ما هو، على الأرجح، بسبب الخوف والإحساس الكريه الذي يراود كل من يخوض ليلًا في الماء. وعندما رأت بجوار الخص شخصين بدلًا من شخص واحد، ندت عنها صرخة ضعيفة، وتراجَعَت خطوة إلى الوراء.

وقال سافكا وهو يدُس في فمه شطيرة: آه ... أهي أنت؟

– أنا ... نعم أنا ... دمدمَت وهي تنظر إليَّ شزرًا بينما سقطَت من يدها لفة بها أشياء ما. ياكوف يبلغك تحياته، وأمرني أن أحمل إليك هذه ... هنا بعض الأشياء ... فضحك سافكا ساخرًا:

– كفى كذبًا! أي ياكوف! لا داعي للكذب، فالسيد يعرف لماذا جئتِ! اجلسي، ستكونين ضيفتنا.

نظرَت أجافيا نحوي شزرًا وجلسَت بتردد.

وقال سافكا بعد صمت طويل: ظننتُ أنكِ لن تأتي الليلة ... ما لك جالسة؟ كُلي! أم تريدين أن تشربي فودكا؟

فدمدَمَت أجافيا: ما هذا الكلام، وهل أنا سكيرة؟

– اشربي، اشربي ... سيزداد قلبك حرارة ... هيًّا!

ومدَّ سافكا إلى أجافيا الكوب الأعوج. فشربَت الفودكا ببطء، ولم تمزَّ، بل زفرت بصوت عالٍ.

– أحضرتِ شيئًا ما ... قال سافكا وهو يفك الصرة ويضفي على صوته نبرة مازحة متسامحة ... المرأة لا تستطيع أن تأتي دون أن تحضر شيئًا ما. آه، هذه كعكة، وبطاطس ... يعيشون في رغد! زفر سافكا وهو يستدير نحوي بوجهه ... لم يبقَ في القرية كلها بطاطس من الشتاء الماضي إلا عندهم!

لم أرَ في الظلام وجه أجافيا، ولكن خُيِّل إليَّ من حركة كتفيها ورأسها أنها لا تحول عينيها عن وجه سافكا. وحتى لا أكون ثالث اثنين في موعد غرام فقد قرَّرتُ أن أمضي لأتنزه، ونهضتُ. بَيدَ أنَّ في تلك اللحظة صدَح بلبل في الحرش فجأة بصوت رنَّان. وبعد

نصف دقيقة أطلق نقرًا خفيفًا كقرع الطبول، وبعد أن جرَّب صوته بهذه الطريقة بدأ يشدو.

وقفز سافكا واقفًا وأصاخ السمع ... وقال: إنه بلبل الأمس! طيب مهلًا!

واندفع راكضًا نحو الحرش بخطوات لا تُسمع. فصحت في إثره: ما لك وما له؟ دعه!

فأشاح بيده، كأنما يقول: لا تصرخ، واختفى في الظلام. كان بوسع سافكا عندما يشاء أن يصبح قناصًا أو صياد سمك رائعًا، ولكن مواهبه في هذه الحالة أيضًا كانت تُبدَّد هباء مثلها مثل قُوَّته؛ كان كسولًا إزاء الأعمال العادية، أما كُل ولَعِه بالصيد فكان يُسخِّره لحيل تافهة. فهو مثلًا لا يصطاد البلابل إلا بيده، ويطلق أعيرة الرش الرفيعة على سمك الكراكي، ويقف أحيانًا ساعات طويلة في النهر وهو يحاول بكل جهده أن يصطاد سمكة صغيرة بشص كبير.

وعندما أصبحنا وحْدَنا سعَلَت أجافيا سعلة خفيفة، ومرَّت بيدها على جبينها عدة مرات ... لقد بدأَت تسكر من الفودكا التي شربَتْها.

وبعد صمت طويل، وعندما أصبح السكوت أكثر من ذلك محرجًا سألتُها: كيف الحال يا أجاشا؟[1]

– الحمد لله، ثم أضافَت فجأة همسًا: لا تخبر أحدًا يا سيدي.

فطمأنتها قائلًا:

– لا تخشي شيئًا ... ومع ذلك يا لكِ من شُجاعة يا أجاشا ... ماذا لو عرف ياكوف؟

– لن يعرف.

– وإذا عرف؟

– كلَّا ... سأكون في المنزل قبل أن يصل. إنه الآن على الخط، ولن يعود قبل مرور قطار البريد، ومن هنا يمكن سماع القطار عندما يمر.

ومرَّت أجافيا بيدها مرة أخرى على جبينها ونظرت إلى الجهة التي ذهب سافكا إليها. كان البلبل يشدو. وحلَّق طائر ليلي فوق سطح الأرض تمامًا. وعندما لَمَحَنا انتفض، وصفَّق بجناحيه، وانطلق نحو الشاطئ الآخر للنهر.

سرعان ما صمت البلبل، ولكن سافكا لم يَعُد. ونهضَت أجافيا وخطَت بضع خطوات في اضطراب، ثم جلست ثانية.

---

[1] أجاشا: تدليل من الأسم الاسم الكامل أجافيا. (المُعَرِّب)

ولم تطق صبرًا فقالت: ماذا دهاه؟ القطار سيمر اليوم وليس غدًا! ينبغي أن أنصرف الآن!

وصحتُ أنا: يا سافكا! يا سافكا!

ولم يرد عليَّ حتى الصدى. وتململَت أجافيا بقلق ثم وقفَت ثانية وقالت بصوت مضطرب: عليَّ أن أنصرف! سيمُر القطار حالًا! أنا أعرف متى تمر القطارات!

ولم تخطئ المرأة المسكينة. فلم يمر ربع ساعة إلا وتردَّد صخب بعيد. وصوَّبت أجافيا نظرة طويلة إلى الحرش، وحرَّكت ذراعيها بنفاد صبر. وقالت وهي تضحك بعصبية: أين؟ إلى أين حمله الشيطان؟ سأنصرف! نعم، يا سيدي سأنصرف!

وفي تلك الأثناء ازداد الصخب وضوحًا. وأصبح من الممكن تمييز دقات العجلات من زفرات القاطرة الثقيلة. وها قد تناهى صفير، وقرقع القطار فوق الجسر قرقعة مكتومة ... ومرَّت دقيقة أخرى، ثم هدأ كل شيء.

وتنهَّدَت أجافيا وهي تجلس بحزم: سأنتظر دقيقة أخرى ... طيب سأنتظر!

وأخيرًا ظهر سافكا في الظلام. كان يخطو بصوت لا يُسمَع بقدميه الحافيتين على أرض المزرعة الرخوة وهو يدمدم بصوت خافِت. وقال وهو يضحك بمرح: انظر إلى الحظ، يا سلام! ما إن اقتربت من الخميلة، وما إن بدأتُ أُصوِّب بيدي حتى سكَت! هذا الكلب الأجرب! انتظرتُ وانتظرتُ حتى يغني ثانية، ثم بصقتُ وعدت.

وهوى سافكا على الأرض بجوار أجافيا بحركة خرقاء، ولكي يحفظ توازنه أمسكها من خصرها بكلتا يديه. وسألها: ما لكِ مبوَّزة كأن حماتك هي التي ولدتكِ؟

كان سافكا رغم كل طيبة قلبه وسماحة روحه يحتقر النساء. كان يعاملهن بإهمال وتعالٍ، ويتنازل إلى مستوى الضحك الهازئ بأحاسيسهن تجاهه هو. ومن يدري فربما كانت مُعاملة الإهمال والاحتقار هذه هي أحد أسباب سحره القوي الذي لا راد له عند ملكات الجمال الريفيات؟ كان جميلًا، ممشوقًا، وكانت عيناه تشعان برقة هادئة حتى وهو ينظر إلى النساء اللاتي يحتقرهن، غير أنه لا يمكن تفسير هذه السحر بالصفات الخارجية وحدها. فإلى جانب مظهره المُوفَّق وطريقته المميَّزة في المعاملة، كان مما له أيضًا تأثيره على النساء، فيما يبدو، دور سافكا المؤثر كشخص سيئ الحظ وطريد بائس، نُفي من داره الحبيبة إلى المزارع.

ومضى سافكا يقول وهو لا يزال قابضًا على خصر أجافيا: هيا قولي للسيد لأي غرض جئت؟ هيا خبِّريه يا زوجة الزوج! هو ... هو ... هل نشرب مزيدًا من الفودكا يا صاحبتي أجاشا؟

نهضتُ وسرتُ بحذاء المزرعة بين الخطوط المزروعة. كانت هذه الخطوط القاتمة تشبه مقابر كبيرة مبططة. وفاحت منها رائحة التربة المعزوقة ورطوبة النبات الرقيقة وقد بدأ الندى يكسوه ... وإلى اليسار كان الضوء الأحمر لا يزال يومض، كان يغمز ببشاشة وكأنه يبتسم.

وسمعتُ ضحكات سعيدة. تلك كانت ضحكات أجافيا.

وفكَّرت: «والقطار؟ لقد مر القطار منذ وقت طويل.»

وانتظرتُ قليلًا، ثم عدتُ إلى الخص. كان سافكا جالسًا القرفصاء بلا حراك وهو يدندن بصوت خَافِت لا يكاد يُسْمَع أغنية ما تتألف من كلمات قصيرة المقاطع مثل: «يا أنت، ما أنت ... أنا وأنت ...» وكانت أجافيا قد سَكِرت من الفودكا وَحَنان سافكا المُحتَقر والليل الخانق، ترقد بجواره على الأرض وتضغط بوجهها على ركبته في انفعال. وقد أوغلت في أحاسيسها لدرجة لم تُلاحظ مَقْدِمي.

وقلتُ لها:

– يا أجاشا، لقد مَرَّ القطار من فترة طويلة!

– هيا حان الوقت.

قال سافكا مؤمِّنًا على فكرتي وهو يهز رأسه: ما لكَ تمددتِ هنا؟ أنتِ يا عديمة الحياء!

وجفَلَت أجافيا، ونزعت رأسها على ركبته ونظرت إليَّ، ثم التصقُت به ثانية.

وقلت:

– لقد حان الوقت من زمان!

وتململَت أجافيا ونهضَت على ركبة واحدة ... كانت تعاني ... ولنصف دقيقة عبر جسدها كله، بقدر ما استطعتُ أن أميز في الظلام، عن الصراع والتردُّد. وجاءت لحظة مدَّت فيها قامتها، وكأنها أفاقَت، لكي تنهض واقفة، ولكن قوة قاهرة عنيدة دفعتها في بدنها كله، فالتصقت بسافكا.

– فليذهب في داهية!

قالت وهي تضحك ضحكة جوفية وحشية، وتبدي في هذه الضحكة حزمًا طائشًا وعجزًا وألمًا.

مَضيتُ بهدوء نحو الحرش، ومن هناك هبطت إلى النهر وَضعْنَا سَنانيرنا. كان النهر نائمًا. ولمست خدي بِرقَّة زهرة ناعمة مَنفوشة بساق طويلة، كأنها طفل يريد أن يُشعرك

بأنه مُستيقِظ. ولمَّا لم يكن لديَّ ما أفعله فقد بحثتُ عن خيط إحدى السنانير حتى وجدته فسحبتُه. وتوتَّر الخيط قليلًا ثم ارتخى ... لم يَعلق بالسنارة شيء ... ولم يكن الشاطئ الآخر والقرية يبدوان في الظلام. وومض ضوء في أحد البيوت ثم سرعان ما انطفأ. وتحسَّستُ أرض الشاطئ بيدي فعثرتُ على الحفرة التي كنتُ قد لاحظتها نهارًا! فجلستُ فيها كما في مقعد. ظللت جالسًا مدة طويلة ... ورأيتُ كيف بدأ الضباب يلف النجوم فَتفقِد بَريقها، وكيف انسابَت البرودة فوق الأرض كزفرة خفيفة ومسَّت أوراق الصفصاف المستيقظ.

– أجا ... فيا! تناهى من القرية صوت مكتوم: أجافيا!

كان ذلك صوت الزوج العائد القَلِق وهو يبحث عن زوجته في القرية. وفي نفس الوقت انبعث من المزرعة ضحك منطَلِق: كانت الزوجة غائبة عن وعيها، ثملة، تحاول بسعادة بضع ساعات أن تُعوِّض العذاب الذي ينتظرها في الغد.

ونمتُ.

وعندما استيقظتُ كان سافكا جالسًا إلى جواري يهز كتفيه هزًّا خفيفًا. كان النهر والحرش، وكلا الشاطئين الأخضَرَين المغسولين، والأشجار والحقل ... كان كل ذلك مغمورًا بضوء الصباح الساطع. ومن بين جذوع الأشجار الرفيعة سقطَت على ظهري أشعة الشمس التي أشرقَت لتوِّها.

وضحك سافكا ساخرًا:

– أهكذا تصيد السمك؟ حسنًا، قم!

نهضتُ، وتمطيتُ بتلذُّذ، وبدأ صدري المستيقظ يعبُّ الهواء الرطب العطر بنهم.

وسألت سافكا: أجافيا ذهبَت؟

فأشار بيده إلى النهر حيث المخاضة:

– ها هي.

ونظرتُ فرأيتُ أجافيا. كانت تَعبر النهر، مشعثة، وقد شمَّرت ثوبها، وسقط المنديل عن رأسها. وكانت لا تكاد تقوى على تحريك ساقيها.

ودمدم سافكا وهو يزرُّ عينيه ناظرًا إليها: تعرف القطة لحم من سرقت! تسير وقد طوَت ذيلَها ... هؤلاء النسوة شَقيَّات كالقطط وجبانات كالأرانب ... ولم تذهب الحمقاء بالأمس عندما قلنا لها! والآن ستلقى جزاءها، وأنا أيضًا سيجرونني إلى المركز ... سأُجلَد ثانية بسبب النساء.

بلغَت أجافيا الشاطئ ومضَت عبر الحقول إلى القرية. وفي البداية سارَت بخطوات جريئة. ولكن سرعان ما تغلب عليها القلق والخوف، فالتفتَت مذعورة، وتوقَّفَت عن السير وهي تلتقط أنفاسها.

طبعًا لا بد أن تخافي! قال سافكا بسخرية حزينة وهو ينظر إلى الشريط الأخضر الساطع الذي امتَدَّ خلف أجافيا في العشب الندي: لا ترغبين في السير! زوجُها يقف منذ ساعة وينتظر ... هل رأيتَه؟

قال سافكا جملته الأخيرة وهو يبتسم، أما أنا فقد تثلَّج قلبي. ففي القرية، بجوار آخِر بيت منها، وقف ياكوف على الطريق وهو يُحدِّق مباشرة في زوجته العائدة. لم يتحرَّك من مكانه وكان جامدًا كالعمود. فيمَ كان يفكر وهو ينظر إليها؟ وأي كلمات أَعدَّها للقائها؟ وقفَت أجافيا قليلًا، ثم التفتَت مرة أخرى كأنما تنتظر مِنَّا العون، ثم سارَت. لم أرَ من قبل أبدًا مثل هذه المشية لا لثَمِل ولا لُمفيق. وبدَا كأن أجافيا تتلوى تحت وقع نظرة زوجها. كانت تسير تارة بخطوات متعرِّجة، وتارة تراوح في مكانها وهي تثني ركبتيها وتشيح بيديها، وتارة تتراجع. وبعد أن قطعَت حوالي مائة خطوة التفتَت مرة أخرى ثم جلسَت.

وقلت لسافكا:

– هلَّا اختبأتَ وراء الأغصان؟ سيراك زوجها.

– إنه على أي حال يعرف مِن عند مَن جاءت أجاشا ... النساء لا يذهبن إلى المزارع ليلًا لإحضار الكرنب ... هذا يعرفه الجميع.

نظرتُ إلى وجه سافكا. كان شاحبًا وقد تقلَّص بشفقة مُتقزِّزة كتلك التي تكسو وجوه الناس عندما يرون حيوانًا يعذب.

وتنهد سافكا قائلًا: الضحك للقط، والدموع للفأر.

وفجأة قفزَت أجافيا واقفة، وهزَّت رأسها، ومضَت نحو زوجها بخطوات جريئة. يبدو أنها استجمعَت قُوَاها وحزَمَت أمرها.

المتَمارِضون

في أحد أيام الثلاثاء من شهر مايو كانت زوجة الجنرال مارفا بتروفنا بتشونكينا، التي تُمارِس العلاج الهوميوباتي منذ عشر سنوات، تستقبل المرضى في غرفة مكتبها. وعلى الطاولة أمامها كان صندوق صيدلية الأدوية الهوميوباتية وكِتاب وصفات العلاج وفواتير الصيدلية. وعلى الجدران عُلِّقت تحت الزجاج في أُطُر مُذهَّبة رسائل طبيب هوميوباتي ما من بطرسبرج كان مشهورًا جدًّا في رأي مارفا بتروفنا، بل عظيمًا، وصورة الأب أريستارخ الذي تَدين له زوجة الجنرال بخلاصها؛ أي بالكفِّ عن العلاج المألوف وإدراك الحقيقة. وفي الردهة ينتظر المرضى جالسِين، ومُعظَمهم من الفلاحين. وجميعهم ما عدا اثنين أو ثلاثة، حفاة؛ لأن زوج الجنرال تأمرهم بأن يتركوا أحذيتهم النتنة في الفناء.

كانت مارفا بتروفنا قد استقبلت عشرة أشخاص، وها هي ذي تستدعي الحادي عشر:

– جافريلا جروزد!

ويفتح الباب، وبدلًا من جافريلا جروزد، يدخل الغرفة زاموخريشين، جار زوج الجنرال، من الإقطاعيِّين المُفلسِين، عجوز ضئيل الجسم، ذو عينين كابيَّتَين، وتحت إبطه قبعة النبلاء. ويضع العصا في الركن ويقترب من زوجة الجنرال، وفي صمت يركع على إحدى ركبتيه أمامها.

فتفزع زوجة الجنرال وتتضَرَّج حمرة: ما هذا؟ ما هذا يا كوزما كوزميتش؟ أرجوك لا داعي!

فيقول زامو خريشين مُقبِّلًا يدها: لن أنهض ما دمت حيًّا! فليرني الناس كلهم راكعًا أمامك، يا ملاكنا الحارس، يا راعية جنس بني البشر! ليروني! الساحرة الخيِّرة التي وهبتني الحياة، وأرشدتني إلى السبيل القويم، وأنارت ظُلمات يأسي، هذه الساحرة الرائعة، يا أم اليتامى والأرامل! لقد شُفِيتُ! بُعثتُ حيًّا أيتها الساحرة!

فتدمدم زوجة الجنرال وهي تتضرج من السرور: أنا ... أنا سعيدة جدًّا ... ما أطيب أن أسمع هذا ... اجلس من فضلك! ولكنك في الثلاثاء الماضي كنتَ مريضًا جدًّا!

فيقول زامو خريشين: أوه كم كنتُ مريضًا! مجرد التذكُّر شيء مرعب! كان الروماتيزم ممسكًا بكل أطرافي وأعضائي. ثماني سنوات أتعذَّب، لم أَذُق للراحة طعمًا ... لا ليلًا ولا نهارًا يا رَبَّة نعمتي! تردَّدتُ على الأطباء، وسافرتُ إلى البروفيسورات في كازان، وتعالجتُ بمختلف أنواع الطين، وشربتُ المياه المعدنية، لم أترك شيئًا إلا جرَّبتُه! وضيَّعتُ ثروتي على العلاج يا سيدتي الجميلة. هؤلاء الأطباء لم يعودوا عليَّ بشيء إلا بالضرر. حبَسوا الداء في جسمي ... صحيح أنهم حبسوه ... ولكن علومهم ليست قادرة على إخراجه ... هؤلاء اللصوص لا يحبون إلا الاستيلاء على النقود، أما آلام الإنسان فلا تُحرِّك شيئًا في نفوسهم. يصف لك الدَّجَّال منهم شيئًا ما، وعليك أن تشربه. باختصار هم قَتلَة! ولولاكِ يا ملاكنا، لكنتُ الآن في القبر! عُدتُ من عندك يوم الثلاثاء الماضي، ونظرتُ إلى الحبات التي أعطيتنيها يومها وقلتُ لنفسي: «أي فائدة منها؟ أمن المعقول أن هذه الحبيبات التي لا تكاد تُرى يمكن أن تشفيني من مرضي الهائل القديم؟» وأخذتُ أبتسم وأنا أفكر، يا لي من ضعيف الإيمان، وما إن تناولتُ حبة حتى ظهر الأثر فورًا! كأنما لم أكن مريضًا، كأنما يد مَسحَت الداء عني. وحدَّقت زوجتي فيَّ بعينين جاحظتَين وهي لا تصدق: «أهذا أنت يا كوليا حقًّا؟» فقلت لها: «نعم أنا» وركَعْنا معًا أمام الأيقونة، وأَخَذْنا نُصلِّي لملاكنا: «فلتُعطِها يا رب كل ما نتمناه لها في نفوسنا!»

ويمسح زاموخريشين عينيه براحته، وينهض من فوق المقعد، ويبدو أنه ينوي الركوع مرة أخرى على إحدى ركبتيه، ولكن زوجة الجنرال تستوقفه وتُجلِسه.

– لا تُوجِّه الشكر إليَّ ... قالت وهي تَتضرَّج بحمرة الانفعال وتنظر بإعجاب إلى صورة الأب أريستارخ: ما أنا إلا أداة طَيِّعة ... يا لها من معجزات! روماتيزم قديم، من ثماني سنوات ويزول من حبة واحدة!

– لقد تكرَّمتِ وأعطيتِنِي ثلاث حبات. وأخذتُ حبة في الغداء، وفورًا زال! والثانية في المساء، والثالثة في اليوم التالي ... ومن ساعتها لم أشعر بشيء! ولا حتى بوخزة! مع أنني كنت أستعد لملاقاة الموت، حتى إني كتبتُ لابني في موسكو أن يأتي! ألهمَكِ الله يا شافية الجراح! ها أنا ذا أَسير وكأني في الجنة ... في ذلك الثلاثاء عندك كنتُ أعرج، أما الآن فعلى استعداد ولو لمطاردة أرنب ... مائة سنة أخرى أستطيع أن أعيش! شيء واحد يُؤرِّقني؛ قِلَّة الموارد. ها أنا ذا صحيح الجسم، فما جدوى الصحة إذا كنتَ لا تجد ما تعيش به؟ العَوز

أرهقني أكثر من المرض ... إليكِ مَثلًا على ذلك هذا الأمر ... الآن أوان بذر الجودار، فكيف تبذره وليس لديك بذور؟ ينبغي أن أشتري، ولكن النقود ... أيُّ نقود لدينا؟

– سأعطيك جودارًا يا كوزما كوزميتش ... اجلس، اجلس. كم أذهلتَنِي وأي سعادة منحتني، أنا التي يجب أن أشكرك لا أنت!

– أنتِ سعادتنا! كيف خَلَق الرب كل هذه الطيبة؟ فلتفرحي يا سيدتي وأنت تنظرين إلى أعمالك الطيبة! أما نحن المساكين فليس لدينا ما يُفرحنا ... نحن قوم صغار، فقراء الروح، لا نفع منا ... تافهون ... نحن نُبلاء اسمًا فقط، أما ماديًّا فنحن كهؤلاء الفلاحين، بل أسوأ ... نعيش في بيوت حجرية ولكن ذلك في الحقيقة سراب ... لأن السقف مثقوب تَتسرَّب منه المياه ... وليس لدينا ما نشتري به الخشب.

– سأعطيكَ خشبًا يا كوزما كوزميتش.

ويحصل زامو خريشين كذلك على بَقرة، وخِطاب توصية لابنته التي يَعتزِم إلحاقها بمعهد و... ويغلبه التأثُّر من كرم زوجة الجنرال فيشهق باكيًا ويتقَلَّص فمه، ويدس يده في جيبه ليخرج المنديل ... وترى زوجة الجنرال ورقة حمراء تخرج مع المنديل وتسقط على الأرض دون صوت.

ويتمتم زاموخريشين: لن أنسى أبد الدهر ... وسأوصي أولادي وأحفادي أن يذكروا ... وكل الأجيال ... ها هي يا أولاد تلك التي أنقذَتني من القبر، تلك التي.

وبعد أن تُودِّع زوجة الجنرال مريضَها تقف دقيقة تُحدِّق في الأب أريستارخ بعينين مُغرورقتَين بالدموع، ثم تطوف بنظرة رقيقة مُمتنَّة على الصيدلية، وكُتب العلاج، والفواتير، والكرسي الذي كان يجلس فيه منذ قليل الرجل الذي أنقذَته من الموت، ويقع بصرها على الورقة التي سقطَت من جيب المريض. وترفع زوجة الجنرال الورقة وتفضُّها، فترى فيها ثلاث حبَّات؛ تلك الحبَّات نفسها التي أعطَتْها لزامو خريشين في الثلاثاء الماضي. وتقول مستغربة:

إنها هي نفسها ... حتى الورقة هي بعينها ... إنه حتى لم يَفضَّها! ما الذي تناوله إذن؟ غريبة ... لا يمكن أن يكون قد خدعني!

ولأول مرة خلال عشر سنوات من الممارسة يتسرَّب الشك إلى نفس زوجة الجنرال ... وتستدعي بقية المرضى، وتُلاحظ وهي تتحدث معهم عن أمراضهم ما كان يغيب عن سمعها من قبل. فجميع المرضى بلا استثناء، وكأنما اتَّفقوا على ذلك، يُمجِّدونها في البداية على شفائهم المدهش، ويُبدُون إعجابهم بحصافتها الطبية، ويَسبُّون الأطباء العاديِّين، وبعد

ذلك وعندما يَتضرَّج وجهُها من شدة الانفعال، يَبدءون في شرح مطالبهم. فأحدُهم يسألها قطعة أرض ليزرعها، والآخر قليلًا من الحطب، والثالث يرجوها أن تسمح له بالصيد في غاباتها ... إلخ. وتَتطلَّع زوجة الجنرال إلى وجه الأب أريستارخ العريض السمح الذي هداها إلى الحقيقة، وتأخذ حقيقة أخرى في تعذيب روحها ... حقيقة كريهة، ثقيلة.

ما أخبث الإنسان!

السعيد

من محطة «بولوجويه» في خط سكك نيقولاي الحديد يتحرك قطار ركاب. وفي إحدى عربات الدرجة الثانية «للمدخِّنِين» يجلس حوالي خمسة ركاب ناعسين، مُلتفِّين بغبش العربة. لقد أَكلوا لتوِّهم وها هم يحاولون النوم وقد أسندوا رءوسهم على مَساند الآرائك، ويُخيِّم السكون.

ويفتح الباب، وتَدلف إلى العربة قامة طويلة، على هيئة عصا، في قبعة حمراء ومعطف أنيق، يشبه إلى حد كبير معاطف ممثلي الأوبرات ومراسلي جول فيرن.[1]

وتتوقَّف القامة وسط العربة وهي تزحر، وتزرُّ عينيها طويلًا مُتفحِّصة الأرائك.

– لا، وهذه أيضًا ليست هي! الشيطان يعلم ما هذا! شيء يغيظ! كلا، ليست هي!

ويحدِّق أحد الركاب في القامة، وتندُّ عنه صيحة فرح: إيفان أليكسييفتش! ما هذه الصُّدف؟ أهو أنت؟ يَنتفض إيفان أليكسييفتش العصوي، ويُحدِّق في الراكب ببلادة، وعندما يتعرَّف عليه يشيح بيديه في مرح.

ويقول: ها! بيوتر بتروفتش! من زمان لم نَرك! لم أكن أعرف أنك مُسافر في هذا القطار.

كيف الصحة والأحوال؟

– لا بأس، ولكني يا أخي فقدتُ عربتي ولا أستطيع أن أجدها، يا لي من غبي! أستحق الجلد!

---

[1] ربما يشير الكاتب إلى بطل رواية جول فيرن «الجزيرة المسحورة» هيدسون سبيلت، مراسل جريدة «نيويورك هيرالد» وقد صدرَت أول ترجمة لها إلى الروسية من بطرسبرج عام ١٨٧٥م. (المُعَرِّب)

ويترنَّح إيفان أليكسييفتش العصوي ويهأهئ ثم يقول: يا لها من حوادث! خرجتُ من العربة بعد الجرس الثاني لأشرب كونياكًا. وشربت طبعًا. وقلتُ لنفسي: ما دامتِ المحطة التالية بعيدة فلأشرب كأسًا أخرى. وبينما كنت أفكر وأشرب دق الجرس الثالث ... جريت كالمجنون وقفزتُ في أول عربة صادفتني. حسنًا ألستُ غبيًّا؟ ألستُ أحمق ابن حمق؟

ويقول بيوتر بتروفتش: واضح أن مزاجك عالٍ. تَفضَّل بالجلوس. يحصل لنا الشرف!

– لا، لا ... سأبحث عن عربتي. إلى اللقاء!

– الدنيا عتمة، وقد تسقط، لا قدر الله، بين العربات. اجلس معنا، وعندما نصل إلى المحطة ستجد عربتك. اجلس!

وتنهَّد إيفان أليكسييفتش ويجلس بتردد في مقابل بيوتر بتروفتش. ويبدو أنه منفعل، ويتململ بقلق كأنه جالس على جمر.

ويسأله بيوتر بتروفتش: إلى أين تسافر؟

– أنا؟ إلى الفضاء. في رأسي زحام كبير حتى إني لا أعرف إلى أين أسافر. القدر يسير بي، حسنًا فلأسافر، ها ... ها ... هل رأيت يا عزيزي حمقى سعداء؟ كلا. حسنًا، انظر! ... أمامك أسعد الأحياء! نعم! ألا تلاحظ شيئًا في وجهي؟

– ألاحظ أنك ... يعني ... مبسوط ... قليلًا.

– لا بد أن وجهي الآن يبدو غبيًّا بفظاعة! آه، يا للأسف، لا توجد مرآة؛ لكي أتطلع إلى سِحنتي! أشعر يا أخي أنني أتحول إلى أبله. أي والله! ها ... ها ... تصور أنني أقوم برحلة شهر العسل. حسنًا، ألست أحمق ابن أحمق؟

– أنت ... هل تزوجت حقًّا؟

– اليوم يا عزيزي! عقدتُ قراني وركبت القطار فورًا.

وبدأت التهاني والأسئلة المعتادة.

ويضحك بيوتر بتروفتش: يا سلام ... لهذا فأنت أنيق هكذا.

– نعم ... بل وتعطرتُ أيضًا لتكتمل الصورة. غرقتُ إلى أذني في الأمور التافهة! لا هموم، لا أفكار، بل إحساس بشيء يشبه ... الشيطان يعلم كيف أسميه ... ربما النعيم. لم أشعر في حياتي بمثل هذه الروعة!

ويغمض إيفان أليكسييفتس عينيه ويهز رأسه ... ويقول: سعيد إلى درجة تغيظ! فلتحكم بنفسك، سأذهب الآن إلى عربتي. وهناك على الكنبة بجوار النافذة، يجلس مخلوق مُخلِص لك بكل جوارحه، كما يقال ... شقراء حلوة، بأنف صغير ... وأنامل ... آه

يا حبوبتي! يا ملاكي! يا حملي الوديع! يا سلوى فؤادي! وساقُها! يا إلهي! ساقُها ليست مثل أَرجُلنا الضخمة، بل شيء منمنم، سحري … مجازي! بودي لو أمسكتُ بهذه الساق وأكَلتُها! أوه، إنك لا تفقه شيئًا! أنت رجل مادي، كل شيء تحلله وتفلسفه! أوه، أنتم عزاب جافون لا أكثر! عندما تتزوج ستتذكرني! ستقول: أين أنت الآن يا إيفان أليكسييفتش؟ نعم، سأذهب الآن إلى عربتي. هناك ينتظرونني على أحر من الجمر … يتوقعون حضوري بلهفة. وتستقبلني ابتسامة. فأجلس وأمد أصبعين فأداعب بهما الذقن.

ويهز إيفان أليكسييفتش رأسه ويغيب في ضحك سعيد: ثم تضع رأسك على كتفها وتُحيط خصرها بيدك. ومن حولك يسود الهدوء … وعتمة شاعرية. تود لو تعانق الدنيا كلها في هذه اللحظة. بيوتر بتروفتش، اسمح لي أن أعانقك!

– تَفضَّل.

يتعانق الصديقان وسط ضحكات الركاب، ويستطرد الزوج الجديد السعيد: وللمزيد من الحماقة، أو كما يقال في الروايات، لمزيد من الخيال، تَذهبُ إلى البوفيه وُتلقِي في جوفك كأسين أو ثلاثًا. وهنا يحدُث في رأسك وصدرك ما لن تقرأ عنه حتى في الحكايات. أنا رجل صغير، ضئيل، ولكن يُخيَّل لي أنني بلا حدود … أحيط بالدنيا كلها!

ينظر المسافرون إلى الزوج الثمل السعيد فتنتقل إليهم عدوى مرحة، ويطير النوم من عيونهم. وبدلًا من مُستمِع واحد سرعان ما يجتمع حول إيفان أليكسييفتش خمسة مُستمِعين. أما هو فيَتململَ كأنما جالِس على جمر، وينثر لعابه، ويشيح بيديه ويثرثر بلا انقطاع. ويقهقه، ويقهقه الجميع.

– المهم يا سادة أن نُقلِّل من التفكير! إلى الشيطان بكل هذه التحليلات … إذا شعرتَ برغبة في الشراب فاشرب، ولا داعي للتفلسف حول ما إذا كان هذا مفيدًا أم ضارًّا … إلى الشيطان بكل هذه التحليلات والسيكولوجيات!

ويمر الكمساري في العربة.

فيخاطبه الزوج الجديد: اسمع يا عزيزي … عندما تمر بالعربة رقم ٩٠٢، ستجد هناك سيدة في قبعة رمادية بطائر أبيض … قل لها إنني هنا!

– حاضر. ولكن لا توجد في هذا القطار عربة رقم ٩٠٢. توجد رقم ٩١٢!

– حسنًا، فليكن ٩١٢! سيان! أبلغ هذه السيدة أن زوجها بخير وسلام!

وفجأة يَقبض إيفان أليكسييفتش على رأسه ويتأوه: زوج … سيدة … منذ متى هذا؟ زوج … ها … ها … أنت تستحق الجلد وليس الزواج! يا لي من أبله! وهي … بالأمس كانت صبية … بعوضة صغيرة … شيء لا يصدق!

ويقول أحد الركاب: غريب في زمننا هذا أن ترى شخصًا سعيدًا ... الأسهل أن ترى الفيل الأبيض.

فيقول إيفان أليكسييفتش مادًّا ساقيه الطويلتين بحذائهما المدبب جدًّا: نعم، ولكن مَن المُذنِب؟ إذا لم تكونوا سعداء فالذنب ذنبكم! نعم، وماذا كنتم تظنون؟ الإنسان هو خالق سعادته. وبوسعكم، لو أردتم، أن تصبحوا سعداء، ولكنكم لا تريدون. أنتم تهربون من السعادة بإصرار!

– أمَّا غريبة! وكيف ذلك؟

– بسيطة! لقد سنَّت الطبيعة للإنسان أن يحب في فترة معينة من عمره، فإذا حانت هذه الفترة فلتحب بكل ما تملك. ولكنكم لا تطيعون الطبيعة، وتظلون في انتظار شيء ما. وبعد ذلك ... نصَّ القانون على أن الفرد الطبيعي ينبغي أن يتزوج ... فبدون الزواج لا توجد سعادة. فإذا جاء الوقت المناسب فلتتزوج، لا تُماطِل ... ولكنكم لا تتزوجون، وتَظلُّون في انتظار شيء ما! ثم إنه قد جاء في الكتاب المُقدَّس أن الخمر تُدخل البهجة في قلوب البشر ... فإذا كان مزاجك طيبًا وتريده أن يكون أحسن، إذن فلتذهب إلى البوفيه ولتشرب. المهم ألا تتفلسف، بل سر على التقليد! التقليد شيء عظيم!

– أنت تقول إن الإنسان هو خالق سعادته. أي خالق هو، بحق الشيطان، إذا كان يكفي مجرد ألم في سنَّة أو حماة شريرة لكي تطير سعادته رأسًا على عقب؟ كل شيء رهن بالصدفة. فلو انقلب القطار بنا الآن كما في حادث كوكويفكا[2] لقلتُ كلامًا آخر.

فيقول الزوج الجديد محتجًّا: هُراء! الكوارث لا تَحدُث إلا مرة في السنة. أنا لا أخشى أي حوادث؛ لأنه ليس هناك مبرر لحدوث هذه الحوادث. الحوادث نادرة! فلتذهب إلى الشيطان! أنا لا أريد حتى أن أتحدث عنها! يبدو أننا نقترب من محطة.

ويسأله بيوتر بتروفيتش: إلى أين أنت مسافر الآن؟ إلى موسكو، أم ستواصل إلى الجنوب؟

– سلامتك! كيف أواصل إلى الجنوب إذا كنت مسافرًا إلى الشمال؟

– ولكن موسكو ليست في الشمال.

ويقول إيفان أليكسييفتش: أعرف هذا، ولكننا الآن مسافرون إلى بطرسبرج!

---

[2] حادث انقلاب قطار عند قرية كوكويفكا عام ١٨٨٢م، راح ضحيته أكثر من ١٠٠ قتيل وجريح. (المُعَرِّب)

– عفوًا، إننا مسافرون إلى موسكو!

فيذهل الزوج الجديد: كيف إلى موسكو؟

– غريبة ... إلى أين اشتريت التذكرة؟

– إلى بطرسبرج.

– إذن دعني أهنئك. لقد ركبت قطارًا آخر.

وتمر فترة صمت، وينهض الزوج الجديد ويحملق في الجالسين ببلادة.

ويوضح له بيوتر بتروفتش الأمر: نعم، نعم. في «بولوجويه» قفزت إلى قطار آخر ... إذن فقد ركبتَ بعد الكونياك القطارَ المضاد.

يمتقع وجه إيفان أليكسييفتش، ويقبض على رأسه ويذهب ويجيء في العربة بسرعة.

ويقول ثائرًا: آه، يا لي من حمار غبي! يا لي من وغد، فلتخطفني الشياطين! ماذا سأفعل الآن؟ زوجتي في القطار الآخر! هناك وحدها، تنتظر، تعاني! آه، يا لي من مهرج أحمق!

ويتهالك الزوج الجديد على الكنبة، وينكمش كأنما داس أحدهم على إصبع قدمه المريضة.

ويتأوه:

– يا لي من بائس! ماذا سأفعل الآن؟ ماذا؟

ويخفف الركاب عنه: لا بأس، لا بأس ... بسيطة ... أرسل لزوجتك برقية، أما أنتَ فحاول أن تستقل القطار السريع. وبذلك تلحق بها.

فيبكي الزوج الجديد، «خالق سعادته»:

– القطار السريع! ومن أين أحصل على نقود للقطار السريع؟ كل نقودي مع زوجتي!

ويتهامس الركاب الضاحكون، ويتشاركون في جمع مبلغ من المال ويعطونه للسعيد.

أنيوتا

في أرخص غرفة من غرف البَنسيون المفروش «لشبونة» أخذ ستيبان كلوتشكوف، الطالب بالصف الثالث بكلية الطب يروح ويجيء من ركن إلى ركن وهو يستظهر علومه الطبية. وبسبب الاستظهار المستمر الشاق جَفَّ ريق فمه وتفَصَّد العرق على جبينه.

وبجوار النافذة التي غطى الجليد أطرافها بنقشه، وعلى مقعد بلا ظهر، جلست خليلته أنيوتا، وهي فتاة صغيرة الجسم، نحيلة، سوداء الشعر، في حوالي الخامسة والعشرين، شاحبة جدًّا، ذات عينين رماديتين وديعتين، جلسَت محنية الظَّهر وهي تُطرِّز يَاقة قميص رجالي بخيوط حمراء. كان العمل مستعجلًا ... ودقت ساعة الممر بصوت أبح معلنة الثانية بعد الظهر، بينما لم ترتب الغرفة بعد. كانت البطانية المُجعَّدة، والوسائد المبعثَرة، والكُتب، والحُلَّة، والوعاء الكبير القذر المملوء بمياه الغسيل الصابونية، والتي كانت تعوم فيها أعقاب السجائر، والقاذورات على الأرض ... كان ذلك كله يبدو كأنه تَجمَّع في كوم واحد، وخُلط وجُعِّد عن عَمْد.

وقال كلوتشكوف وهو يستظهر بصوت عالٍ: الرِّئَة اليمنى تَتكوَّن من ثلاثة فصوص ... حدودها! الفَص العلوي عند الجدار الأمامي للصدر يصل إلى الضلع الرابع والخامس، وعلى السطح الجانبي حتى الضلع الرابع وعند الجدار الخلفى حتى Spina scapulae.[١]

ورفع كلوتشكوف عينيه نحو السقف وهو يحاول أن يَتصوَّر ما قرأه لتوِّه. وعندما لم يصل إلى تصوُّر واضح أخذ يَتحسَّس ضلوعه العليا من خلال الصديري.

---

[١] حتى شوكة عظمة اللوح (باللاتينية). (المُعَرِّب)

وقال: هذه الضلوع تشبه مفاتيح البيانو؛ ولكي لا يختلط عليَّ الحساب لا بد أن أَتعوَّدها، سيكون عليَّ أن أدرسها على الهيكل البشري وعلى شخص حيٍّ … تعالي يا أنيوتا، هيا أسترشد بك!

تركَت أنيوتا التطريز، ونزعَت بلوزتها، وانتصبَت. وجلس كلوتشكوف قبالتها، وقطَّب حاجبيه، وأخذ يعد ضلوعها.

– هم … الضلع الأول لا أستطيع أن أتحسَّسه … إنه خلف الترقوة … أما هذا فهو الضلع الثاني إذن … حسنًا … وهذا الثالث … وهذا الرابع … هم … حسنًا … ما لك تنكمشين؟

– أصابعك باردة!

– طيب، طيب، لن تموتي، كُفِّي عن التَّململ، إذن فهذا هو الضلع الثالث، وهذا الرابع … يبدو من مَظهرك أنك هزيلة، ومع ذلك لا أكاد أعثر على ضلوعك. هذا هو الضلع الثاني … وهذا الثالث … كلا، هكذا سيختلط عليَّ الأمر ولن أَتصوَّر بوضوح … ينبغي أن أرسمها … أين قطعة الفحم؟

تناول كلوتشكوف قطعة الفحم، ورسم بها على صدر أنيوتا عدة خطوط متوازية تتفق والضلوع.

رائع، كل شيء واضح تمامًا، حسنًا، والآن أستطيع أن أدق بأصابعي، هيا انهضي!

نهضت أنيوتا ورفعَت ذقنها، وانهمك كلوتشكوف في الدَّق بأصابعه واستغرق تمامًا في هذا الأمر حتى إنه لم يلاحظ أن شفتي أنيوتا وأنفها وأصابعها ازرقَّت من البرد. وكانت أنيوتا ترتَجِف وهي تخشى أن يلحظ طالب الطب رَجْفَتها فيكف عن الرسم بالفحم وعن الدَّق، ثم ربما يرسب في الامتحان.

وقال كلوتشكوف بعد أن كفَّ عن الدق: كل شيء واضح الآن. اجلسي هكذا ولا تمسحي الخطوط، أما أنا فسأستظهر قليلًا.

وعاد طالب الطب يتمشى ويستظهر، وجلسَت أنيوتا مُنكمِشة، بخطوط الفحم السوداء كالوشم على صدرها، وراحت تُفكِّر، وعمومًا لم تكن تتحدث إلا قليلًا، وكانت دائمًا تبقى صامتة وتفكر، وتفكر.

طوال السنوات الست أو السبع من تَقلُّبها في البنسيونات المفروشة عرفَت حوالي خمسة أشخاص من أمثال كلوتشكوف، وقد تخرجوا جميعًا في الجامعة، وأصبحوا الآن ذوي مكانة، وكأناس مُحترَمين فقد نَسَوها بالطبع منذ أمد بعيد. واحد منهم يعيش في

باريس، واثنان يعملان طبيبين والرابع مُصوِّر، أما الخامس فيقال حتى إنه أصبح أستاذًا، وكلوتشكوف هو السادس ... وقريبًا يتخرج هو أيضًا، ويصبح ذا مكانة. مَستقبَله بلا شك رائع، وسيصبح كلوتشكوف، على الأرجح، شخصية كبيرة، ولكن الحاضر سيئ تمامًا؛ فليس لديه تبغ ولا شاي، ولم يبقَ من السُّكَّر سوى أربع قطع. ينبغي أن تنتهي من التطريز بأسرع ما يمكن، وتسلمه لصاحبة الطلب مقابل خمسة وعشرين كوبيكا، ثم تشتري شايًا وتبغًا.

وتردَّد من وراء الباب:

– هل يمكن أن أدخل؟

وألقت أنيوتا بمنديل صوفي على كتفيها بسرعة. ودخل المصوِّر فيتيسوف.

وقال مخاطبًا كلوتشكوف وهو ينظر نظرة وحشية من تحت الشعر المتهدل على جبينه:

– لي عندك رجاء، اصنع معروفًا، أَعِرني فتاتك الرائعة لمدة ساعتين! إنني أرسم لوحة، ولا أستطيع أبدًا بدون موديل!

فقال كلوتشكوف موافقًا: أوه، بكل سرور! اذهبي يا أنيوتا.

فدمدَمَت أنيوتا بصوت خافِت: وما الذي لم أَره هناك!

– طيب كَفى! إنه يطلبك من أجل الفَن، وليس من أجل تفاهات. فلماذا لا تساعدينه إذا كان في وُسعك؟

وأخذَت أنيوتا ترتدي ثيابها.

وسأله كلوتشكوف: وماذا ترسم؟

– بسيشة[٢] موضوع جيد، ولكني لا أُوفَّق في رسمه، مُضطر إلى الرسم من موديلات مختلِفة. بالأمس رسمتُ واحدة بِسيقان زرقاء، سألتُها: لماذا ساقاك زرقاوان؟ فقالت: لأن الجورب يبهت. وأنت، ما زلتَ تستظهر؟ يا لك من سعيد، لديك صبر.

– الطب شيء لا يمكن أن تُحصِّله بدون استظهار.

– هم ... لا مؤاخذة يا كلوتشكوف، ولكنك تعيش عيشة فظيعة، كالخنازير! الشيطان يعلم كيف تعيش.

[٢] في الأساطير اليونانية هي تجسيد للروح البشرية في صورة فتاة فاتنة الجمال بجناحي فراشة. (المُعَرِّب)

– ماذا تقصد؟ لا يمكن أن أعيش بصورة أخرى ... أنا لا أتلقى من والدي إلا اثني عشر روبلًا في الشهر، وبهذه النقود يستحيل أن تعيش عيشة لائقة.

فقال المصور وهو يمتعض باشمئزاز: هذا مفهوم ... ومع ذلك من الممكن أن تعيش أفضل ... الشخص الراقي ينبغي أن يكون محبًّا للجمال ... أليس كذلك؟ أما هنا فالشيطان يعلم ماذا لديك! الفِراش غير مرتَّب، وهذه الزبالة والقاذورات ... وعَصيدة الأمس ما زالت في الطبق ... إخص!

فقال طالب الطب مُحرَجًا: هذا صحيح، ولكن أنيوتا لم تَتمكَّن اليوم من تنظيف الغرفة؛ فهي مشغولة طوال الوقت.

وعندما خرج المصوِّر وأنيوتا؛ استلقى كلوتشكوف على الكنبة ومضى يستظهر وهو راقد، ثم غافَله النعاس. وحينما استيقظ بعد ساعة وضع رأسه بين قبضتيه واستغرق في التفكير عابسًا. تذكَّر ما قاله المصور من أن الإنسان الراقي ينبغي أن يكون محبًّا للجمال، فبدَا له جو الغرفة الآن بغيضًا ومنفِّرًا بالفعل. وكأنما رأى بعين العقل مُستقبَله حين يستقبل الزبائن المرضى في غُرفة المكتب، ويشرب الشاي في غرفة الطعام الواسعة بصحبة زوجته، المرأة المُحترَمة ... فأصبح هذا الوعاء بماء الغسيل القذر الذي تسبح فيه أعقاب السجائر كريه المنظر إلى حدٍّ لا يُعقَل. وبدَت له أنيوتا أيضًا قبيحة، مُهملة الثياب بائسة ... فقرَّر أن يفترق عنها على الفور، مَهما كان الأمر.

وحينما عادَت من عند المصور وخلعَت معطفها، نهض وقال لها بجدية:

– اسمعي يا عزيزتي ... اجلسي وأَصغِي إليَّ، ينبغي أن نفترق! باختصار أنا لا أريد أن أعيش معك بعد الآن.

عادَت أنيوتا من عند المصور مُتعَبة مُنهَكة. ومن طول الوقوف كموديل ضَمر وجهها وهَزَل فأصبح ذقنها أكثر حدة. ولم تَقُل شيئًا ردًّا على كلمات طالب الطب بل فقط ارتعشَت شفتاها.

وقال طالب الطب: على أي حال، كنا سَنفترِق عاجلًا أم آجلًا، أنتِ فتاة جيدة، طيبة، أنتِ لستِ غبية فسوف تفهمين ... ارتدت أنيوتا المعطف ثانية، ولفَّت تطريزها بورقة في صمت، وجمَعَت الخيوط والإبر. ووجدَّت اللفة ذات قطع السكر الأربع على النافذة، فوضعتها على الطاولة بجوار الكتب.

– هذا ... سُكَّرك ... قالت بصوت خافِت واستدارَت لتخفي دموعها.

وسألها كلوتشكوف: طيب، ولماذا تبكين؟

وتمشَّى في الغرفة مُحرَجًا، ثم قال: حقًّا أنتِ غريبة … أن تُدركين أنَّنا لا بد أن نفترق. لا يمكن أن نبقى معًا إلى الأبد.

كانت قد جمعَت كل صُررها الصغيرة، واستدارت نحوه لكي تودِّعه، فشعَر بالشفقة عليها.

وقال في نفسه:

– «ربما أدعها تبقى أسبوعًا آخر هنا. نعم، بالفعل فلتبقَ قليلًا، وبعد أسبوع آمُرها أن تذهب.»

وصاح بها بصرامة، محنقًا من ضعف إرادته:

– ما لك واقفة؟ إذا كنتِ ستذهبين فلتذهبي، وإذا لم تَشائي فَلْتخلعِي المعطف ولتبقي! ابقي!

خلعَت أنيوتا المعطف في صمَت وسكون، ثم تمخَّضَت أيضًا بسكون، وتَنهَّدَت، واتَّجهَت دون صوت إلى موقعها الدائم، إلى المقعد بجوار النافذة.

وشد الطالب كتابه إليه، وأخذ يسير من جديد من ركن إلى ركن، وأخذ يستظهر:

– الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة فصوص، الفصُّ العلوي عند الجدار الأمامي للصدر يصل إلى الضلع الرابع والخامس.

وصاح أحدهم في الطرقة بأعلى صوته: يا جريجوري، هاتِ شايًا!

كلخاس

استيقَظ الممثِّل الكوميدي فاسيلي فاسيليفتش سفيتلوفيدوف، وهو عجوز مُمتلِئ الجسم، قوي البَدن، في الثامنة والخمسين من عمره، وتطلَّع حوله بدهشة. فعلى جانبي مرآة صغيرة أمامه كانت تشتعل بقايا شمعتَين. وأضاء اللهب الثابت الكسول بوهن غرفة صغيرة بجدران خشبية مطلية معبَّأة بدخان السجائر وعتمة الغبش. وظهرَت في كل ما يحيط به آثار اللقاء القريب بين ديونيس وملبومينا[1] ذلك اللقاء الذي تم سرًّا، ولكنه كان عاصفًا وقبيحًا كالرذيلة؛ فعلى الأرض وفوق الكراسي تناثَرَت سُترة وسروال، وأوراق صحف ومعطف ذو بطانة زاهية وقبعة أسطوانية، وعمَّت الفوضى والاضطراب المائدة؛ فقد ازدحمَت هنا واختلطَت الزجاجات الفارغة والأكواب، وثلاثة أكاليل، وعلبة سجائر مذهبة، وحامِل كوب، وورقة يانصيب رابحة من سحب القرض الثاني مُبلَّلة الحافَّة، وعلبة بدبوس ذهبي. وكان هذا الخليط المتنافِر مُغطًّى بسخاء بأعقاب السجائر ورمادها، وبُقطع صغيرة من رسالة مُمزَّقة. أما سفيتلوفيدوف نفسه فكان جالسًا على كرسي فوتيل وفي حلة كلخاس[2] وقال الممثل الكوميدي وهو يتطلع حوله: يا ربي، إنني في غرفة الملابس! أما حكاية! متى نعستُ يا تُرَى؟

وأصاخ السمع. كان الصمت مطبقًا كصمت القبور. وذكَّرَته علبة السجائر وورقة اليانصيب الرابحة على الفور بأن اليوم كان يوم حفلته «البنيفيس»[3] وأنه حظيَ بنجاح

[1] ديونيس: إله الخمر والمرح، وملبومينا: ربة التراجيديا في الأساطير الإغريقية. (المُعَرِّب)

[2] الكاهن كلخاس: إحدى شخصيات أوبريت «هيلينا الرائعة» لأوفينباخ ... مُقامِر عِربِيد يعشق الذهب. (المُعَرِّب)

[3] حفلة يخصص إيرادها «أو جزء منه» لصالح الممثل. (المُعَرِّب)

كبير، وأنه شرب الكثير من الكونياك والنبيذ الأحمر في فترات الاستراحة مع محبيه الذين كانوا يقتحمون عليه غرفة الملابس.

وكرَّر تساؤله:

– متى نعستُ يا تُرى؟ آه، يا لي من عجوز مُخرِّف! ماذا أيها الكلب العجوز؟ ألهذه الدرجة تسكر حتى تنام جالسًا في المقعد؟ شاطر!

وأحس الممثل الكوميدي بالمرح. انفجر في ضحك ثمل يتخلله السعال، وتناول إحدى الشمعتين، وخرج من غرفة الملابس. كانت خشبة المسرح خاوية ومظلمة. ومن عمق الخشبة وجانبيها، ومن الصالة هب نسيم خفيف ولكنه محسوس. كانت تيارات الهواء تجول كالأرواح فوق الخشبة وهي تتصادم وتدوِّم وتداعب لهيب الشمعة. وتَراقَص اللهيب وتَلوَّى في جميع الاتجاهات مُلقيًا ضوءًا ضعيفًا تارة على صف الأبواب المُفضِية إلى غُرَف الملابس، وتارة على الكواليس الحمراء حيث كان ثمة دلو، وتارة على إطار كبير مُلقًى وسط الخشبة.

وصاح الممثل: يجوركا، يجوركا، أيها الشيطان، بتروشكا! نام الشياطين عليهم اللعنة! يجوركا!

ورد الصدى: آ ... آ ... آ.

وتذكَّر الممثل أنه قد منح كلًّا من يجوركا وبتروشكا ثلاثة روبلات ليشربا فودكا بمناسبة «البنيفيس». ومن غير المُحتمَل، بعد هذه المنحة السخية، أن يمكثا في المسرح للمبيت.

تأوَّه الممثِّل وجلس على كرسي بلا مَسند، ووضع الشمعة على الأرض. كان رأسه ثقيلًا ثملًا، وقد بدأت الكمية الهائلة التي شربها من البيرة والنبيذ والكونياك «تحترق» لتوِّها في جسده كله، وأحس بالضعف والخوار بسبب نومه جالسًا.

ودمدم وهو يبصق:

سرية خيالة باتت في فمي ... آه، يا لي من عجوز أحمق! ما كان يجب أن أشرب! ما كان يجب! ظَهري يؤلمني، ورأسي يكاد ينفجر، وجسدي كله يرتجف ... إنها الشيخوخة.

ونظر أمامه ... كانت تلوح بالكاد كوشة الملقِّن والمقصورات الخاصة وحاملات النوت الموسيقية، أما الصالة كلها فكانت تبدو كحفرة سوداء بلا قرار، كشِدق مفغور تطل منه ظلمة باردة صارمة ... كانت الصالة عادة متواضعة مريحة، إلا أنها بدَت الآن، ليلًا، عميقة

بلا حدود، مُقفِرة كالقبر، قاسية ... وحدَّق الممثل في الظلام ثم في الشمعة ومضى يقول بتذمر:

نعم، الشيخوخة ... مَهما لفَفتُ ودُرت، وتصنَّعتُ الشجاعة، ومَهما تَغابَيت، فقد بلغتُ الثامنة والخمسين ... خلاص! قُل على الحياة السلام! نعم يا فاسنكا[٤] ... لقد خدمْت على الخشبة ٥٣ سنة، ولكني فيما يبدو أرى المسرح ليلًا لأول مرة ... يا لها من مُفارَقة، إي والله ... نعم، لأول مرة! شيء مرعِب، يا للشيطان ... وصاح وهو ينهض: يجوركا!

ورد الصدى: آ ... آ ... آ.

ودوَّت مع الصدى في وقت واحد أجراس صلاة الصبح في مكان بعيد، وكأنما انبعثت من أعماق الشِّدْق المَفغُور. ورسم كلخاس علامة الصليب ثم صاح:

بتروشكا! أين أنتم أيها الشياطين؟ يا إلهي، لماذا أذكر اسم الشيطان؟ دع عنك هذه الكلمات، كفَّ عن الشراب فقد هَرِمْتَ، آن أن تموت! في الثامنة والخمسين يذهب الناس لصلاة الصبح، يستعدون لملاقاة الموت ... وأنت ... أوه يا إلهي!

ودمدم: الرحمة يا رب، هذا مُرعِب! لو قضيتُ الليلة هنا بهذه الصورة فقد أموت من الخوف. هذا هو المكان الحقيقي لتحضير الأرواح!

وازداد رعبًا عند ذِكْر كلمة «الأرواح» ... أثارَت التيارات المتجوِّلة وذبذبة البقع الضوئية خياله وألهبَته إلى أقصى درجة ... فانكمَش وضَمر، وانحنى ليلتقط الشمعة، وللمرة الأخيرة تَطلَّع خِلسة وبِخوف طفولي إلى الحفرة المظلِمة. كان وجهه الذي شوَّهه المكياج مُتبلدًا خاليًا من أي معنًى تقريبًا. وقبل أن تَصِل يده إلى الشمعة، قَفز واقفًا وحمْلَق في الظلام بنظرة جامدة. وقف صامتًا حوالي نصف دقيقة، ثم أمسك برأسه وخبط بقدميه وقد تَملَّكه فزع غير عادي.

وصرخ الممثل بصوت حادٍّ غير طبيعي: مَن أنت؟ مَن أنت؟

في إحدى المقصورات الخاصَّة وقف شَبح بشري أبيض، وعندما كان الضوء يسقط ناحيته يُصبح من الممكن أن تُميِّز فيه يدين ورأسًا بل ولحية بيضاء.

وكرر الممثل بصوت يائس: مَن أنت؟

رفع الشبح الأبيض ساقه وعبَر حاجز المقصورة وقفز إلى موضع الأوركسترا، ثم سار نحو خشبة المسرح بلا صوت كالظل.

[٤] تدليل من الاسم الكامل فاسيلي. (المُعَرِّب)

وتَمتَم وهو يصعد إلى الخشبة: إنه أنا.

فصرخ كلخاس وهو يتراجع: مَن؟

– أنا ... أنا ... نكيتا إيفانيتش ... المُلقِّن. عفوًا، لا داعي للقلق.

تَهالَك الممثِّل على المقعد خائر القوى وطأطأ رأسه. كان يَرتجِف وقد أفقَدَه الرعب صوابه.

اقترب منه رجل طويل، معروق، أصلع، بلحية شيباء، حافي القدمين وفي الملابس الداخلية فقط، وقال: إنه أنا! إنه أنا! الملقِّن.

فنطَق الممثل وهو يمسح براحته على جبينه ويتنفس بصعوبة: يا إلهي ... أهو أنت يا نيكيتوشكا؟[٥] ... لماذا ... لماذا أنت هنا؟

– أنا هنا أبيت في المقصورة الخاصة ... ليس عندي مكان آخر للمبيت ... لكن أرجو ألا تقول لأليكسي فوميش.

– ها أنت ذا يا نيكيتوشكا ... دمدم الممثِّل الخائر مادًّا يده المرتعشة نحوه ... يا إلهي، يا إلهي! ... طَلَبُوني للظهور ست عشرة مرة، وحمَلُوا لي ثلاثة أكاليل وهدايا كثيرة ... كانوا جميعًا مُعجَبين، ولكن لم يُوقِظ أحد العجوز السَّكران ولم يحمله إلى البيت. أنا عجوز يا نيكيتوشكا ... عمري ٥٨ سنة ... مريض! روحي الضعيفة تتعذَّب.

وهمَّ الممثِّل نحو الملقِّن، وأطبق على يده وبدنه كله يرتعش.

ودمدم وكأنما يهذي: لا تتركني يا نيكيتوشكا ... أنا عجوز، ضعيف ... على وشك الموت ... أنا خائف!

فقال يا نيكيتوشكا برقة: آن لك أن تذهب إلى البيت يا فاسيلي فاسيليتش!

– لن أذهب. لا بيتَ لي. كلَّا، كلَّا!

– رُحماك يا رب! لقد نسيت أين تسكن.

– لا أريد أن أذهب إلى هناك، لا أريد ... دمدم الممثل في لوعة؛ هناك أنا وحيد ... ليس عندي أحد يا نيكيتوشكا، لا أهل، ولا زوجة، ولا أولاد ... وحيد كالريح في الخلاء ... لو مُتُّ فلن يذكرني أحد.

---

[٥] تدليل من الاسم الكامل نيكيتا. (المُعَرِّب)

انتقلَت عدوى الرعشة من الممثِّل إلى نيكيتوشكا ... كان العجوز الثَّمل المنفعل يهز يد الملقن وهو يعصرها بعصبية ويلوثها بخليط المكياج والدموع. وانكمش نيكيتوشكا من البرد وطوى كتفيه.

ودمدم كلخاس: أنا خائف من وحدتي ... ليس هناك مَن يلاطفني أو يعزيني، أو يضعني، أنا الثمل، في الفراش. لمن أنا؟ من بحاجة إليَّ؟ من يحبني؟ لا أحد يحبني يا نيكيتوشكا.

– الجمهور يحبك يا فاسيلي فاسيليتش.

– الجمهور انصرف، وهو الآن نائم ... كلَّا، لا أحد بحاجة إليَّ، لا أحد يحبني ... لا زوجة لي ولا أطفال.

– يا سلام، وجدتَ ما تأسف عليه.

– ولكني إنسان، حيٌّ ... أنا نبيل يا نيكيتوشكا، من أصل كريم ... قبل أن أسقط في هذه الحفرة كنتُ في الخدمة العسكرية، في سلاح المدفعية. كنتُ فتًى وأي فتًى! كنتُ جميلًا، مُندفِعًا، جريئًا ... وأيُّ ممثل كنت! يا إلهي، يا إلهي! أين ذهب ذلك كله؟ أين ذلك العهد؟

نهض الممثِّل مُعتمدًا على يد المُلقِّن، وطرَفَت عيناه بشدة كأنه خرج من الظلام إلى غرفة ساطعة النور. وسالَت على خديه دموع غزيرة مُخلِّفة خطوطًا من أصباغ المكياج.

واستطرد يهذي:

– يا له مِن عهد! نظرتُ لتوِّي إلى هذه الحفرة فتذكَّرتُ كل شيء ... كل شيء! هذه الحفرة ابتلعَت ٣٥ سنة من عمري يا نيكيتوشكا! انظر إليها الآن فأرى كل شيء بأدق تفاصيله كما أرى وجهك! ... أذكر عندما كنتُ ممثلًا شابًّا، وبدأَت تتملَّكني وقدة الحماس، أحبَّتني إحداهن لأدائي ... كانت جميلة، رشيقة كشجرة حور، فتية، بريئة، ذكية، حارة كفجر صيفي! كنتُ على يقين من أنه لو اختفَت الشمس من السماء فستَبقَى الأرض رغم ذلك منيرة؛ لأنه ما كان بوسع أي ظلام أن يصمد أمامها!

كان كلخاس يَتحدَّث بحرارة وهو يهز رأسه ويده ... وأمامه وقف نيكيتوشكا يُصغي إليه حافيًا وفي ملابسه الداخلية. ولفَّهما كليهما الظلام الذي لم يكن ضوء الشمعة الواهن قادرًا على تبديده. كان ذلك مشهدًا غريبًا، غير عادي، لم يرَ مثله أي مسرح في العالم، ولم يكن هناك من مشاهدين سوى الحفرة السوداء الصماء.

ومضى كلخاس يقول مختنقًا: لقد أحبَّتْنِي، ثم ماذا؟ أذكر وقفتي أمامها كما أقف أمامك الآن ... كانت رائعة في تلك المَرَّة كما لم تكن أبدًا من قبل، وكانت تنظر إليَّ بعينين

لن أنساهما حتى الممات! الرقة، المخمل، بريق الشباب، العمق! كنتُ ثملًا بالنشوة، سعيدًا، فجثوتُ أمامها على ركبتي سائلًا السعادة.

التقط الممثِّل أنفاسه وقال بصوت خائر: قالت لي: اترك المسرح! هل تفهم؟ كانت تستطيع أن تحب ممثلًا، أما أن تصبح زوجته فلا، مستحيل! أذكر أنني في ذلك اليوم كنتُ أمثل الـ ... كان دورًا حقيرًا، دور مُهرِّج. وكنتُ أمثِّل بينما أحشائي تتمزق أسًى وقلقًا ... لم أهجر المسرح، كلَّا، ولكن الحقيقة تكشَّفَت لي آنذاك! أدركتُ أني عَبد، لُعبة في أيدي أناس فارغِي البال، وأنه ليس هناك فن مقدَّس، بل كل ذلك هذيان وخداع. فَهِمتُ ما هو الجمهور! ومنذ ذلك الوقت لم أَعُد أصدق التصفيق ولا الأكاليل ولا الإعجاب! نعم يا أخي! المتفرِّج يصفق لي، ويشتري صورتي بروبل، ومع ذلك فأنا غريب بالنسبة إليه، أنا عنده قذارة، غانية تقريبًا! وهو يريد التعرف بي إرضاء لغروره، ولكنه لن يهين نفسه بتزويجي أخته أو ابنته! أنا لا أصدقه، أَمقُته، إنه غريب بالنسبة إليَّ!

فقال الملقن بوجل: آن لك أن تعود إلى البيت.

فصاح كلخاس مهددًا الحفرة السوداء بقبضته: أَفهمُهم تمام الفهم! من يومها فَهمتُ ... سقطت الغشاوة عن عيني شابًّا فرأيتُ الحقيقة ... ودفعتُ ثمن هذه الصحوة غاليًا يا نيكيتوشكا ... بعد تلك الواقعة، بعد تلك الفتاة، أصبحتُ أَهِيم بلا معنًى، أعيش دون جدوى، ولا أنظر للمستقبَل ... لعبتُ أدوار المُهرِّجِين، وسخرْتُ، وأفسدتُ العقول ... ابتذلتُ لساني وشوَّهتُه، أضعتُ نفسي وكرامتي ... إيه، إيه! التهمَتنِي هذه الحفرة. لم أشعر بذلك قبلًا، أما اليوم ... عندما استيقظْت، نظرتُ إلى الوراء، فإذا ورائي ٥٨ سنة! الآن فقط أحسستُ بالشيخوخة! ضاع العمر!

وظل كلخاس يرتعش ويختنِق ... وبعد ذلك بفترة، عندما قاده نيكيتوشكا إلى غرفة الملابس، وأخذ ينزع عنه ملابسه، تداعى كلخاس وخار، ولكنه لم يكف عن الدمدمة والبكاء.

البربوط[1]

صباح صيفي، والجو ساكِن، إلا من أزيز جُنْدب على الشاطئ، وفي مكان ما يُزقزِق عصفور صغير بِوجَل. وفي السماء تقف سُحب زُغبية جامدة، تُشبه نُدَف الثلج المُبعثَر ... وبجوار حَمَّام يُجرَى بناؤه، وتحت أغصان الصفصاف الخضراء يتخبط في الماء النَّجَّار جيراسيم، وهو فلاح طويل نحيف، بشعر أحمر مُجعَّد، ووجه مُغطًّى بالشعر. ويزحر ويزفر، ويغمز بعينيه بشدة، وهو يحاول أن يستخرج شيئًا ما من تحت جذور الصفصاف. ووجهُه مُغطًّى بالعرَق. وعلى بُعد ذراع من جيراسيم يقف غائصًا في الماء حتى زوره النجار لوبيم، وهو فلَّاح شاب أحدَب، بوجه مُثلَّث وعينين ضيقتين صينيتين. وكل من جيراسيم ولوبيم يَقفان بالقمصان والسراويل. وكلاهما أزرقُّ جلده من البرد؛ لأنهما يقفان في الماء منذ أكثر من ساعة.

ويصيح لوبيم الأحدب وهو يرتعش كالمحموم: ما لك تتحسس بيدك كالأعمى؟ شغَّل مخك!

أَمسِكه، أَمسِكه وإلا أفلتَ هذا الملعون، أَمسِكه قلتُ لك!

فيقول جيراسيم بصوت أبح مكتوم صادر لا من حلقه بل من أعماق بطنه: لن يفلتَ ... إلى أين يذهب؟ انحشر تحت الجذر ... يا له من أملس، هذا الشيطان، لا تعرف من أين تمسكه.

– أَمسِكه من خَشْمه، من خَشْمه!

---

[1] البربوط: سمَك نهري من فصيلة القد. (المُعَرِّب)

– خياشيمه لا تظهر ... مهلًا ... أمسكته من موضع ... من شفته أمسكته ... إنه يعض، هذا الشيطان!

– لا تشده من شفته، لا تشده وإلا أفلَت! أَمسِكه من خَشْمه، من خَشْمه أمسكه! عدت تتحسس بيدك كالأعمى! أمَّا فلاح غبي، رحمتك يا رب! أَمسِكه!

فيقلده جيراسيم مشاكسًا: «أمسكه» ... حضرته عامل ريِّس ... تعالَ أَمسِكه أنت، أيها الشيطان الأحدب ... ما لك واقفًا؟

– لو كنتُ أقدر لأمسكتُه ... وهل أستطيع بجسمي هذا أن أنزل تحت الشاطئ؟ المياه عميقة هناك!

– لا يهم أنها عميقة ... اسبح.

ويضرب الأحدب بذراعيه ويسبح حتى يبلغ جيراسيم، ويتشبَّث بالأغصان. وما إن يحاول الوقوف على قدميه حتى يغوص في الماء ويبقبق.

ويقول وحدَقَتا عينيه تدوران بغضب: ألَم أَقُل لك عميقة؟ أجلس على رقبتك يعني؟

– ضع قدميك على جذر ... الجذور هناك كثيرة ... كدرجات السلم.

ويتحسس الأحدَب بكعبه حتى يعثر على جذر، فيقف عليه بعد أن يتشبَّث بعدة غصون معًا ... ويحفظ توازنه، وبعد أن يَتمركَز في الموقع الجديد ينحني محاولًا ألا يدخل الماء فمه، ويروح يفتش بيده اليمنى بين الجذور. وتَشتبِك يده بالأعشاب المائية، وتنزلق على الطحلب الذي يغطي الجذور، ثم تصطدم بمخلب سرطان حادَّة.

– لم يكن ينقصنا سواك أيها الشيطان! يقول لوبيم ويلقي السرطان بغضب إلى الشاطئ.

وأخيرًا تَعثُر يده على يد جيراسيم، فتهبط معها حتى تصل إلى شيء أملس بارد.

ويبتسم لوبيم قائلًا: ها هو ذا! كبير هذا الشيطان ... افتح أصابعك فسوف أُمسِكه ... من خَشْمه ... حاسِب، لا تَدفعْ بكوعك ... حالًا ... سأُمسِكه ... انتظر حتى أقبض عليه ... لقد انحشر هذا الشيطان تحت الجذر بعيدًا ... لا أصل إلى رأسه ... ليس هناك إلا بطن ... اقتل البعوضة على رقبتي ... آه تلسَعُني! سأُمسِكه ... حالًا ... من خَشْمه ... تعالَ من الجنب، ادفعه، ادفعه! انغزه بأصبعك!

نفخ الأحدب شِدْقَيه، وكتم أنفاسه، وحمَلقَت عيناه، وبدا كأنه يوشك على دس أصابعه «تحت خشمه»، إلا أن الأغصان التي كان متشبثًا بها بيده اليسرى تتكسَّر فجأة، فيفقد توازنه و... ويهوي في الماء! وتنطلق دوائر مُتموِّجة، مُبتعدًا عن الشاطئ وكأنها مذعورة، وتتصاعد من موضِع السقوط الفقاقيع. ويطفو الأحدب وهو يزفر ويتشبَّث بالأغصان.

ويدمدم جيراسيم بصوته الأبح: المصيبة أن تَغرَق وأُصبح أنا المسئول! اخرُج إلى الشيطان من هنا! أنا سأسحبه!

وينشب السُّباب ... والشمس تحمى وتحمى، وتصبح الظلال أقصر وتنكمش على نفسها كقرون القوقعة ... وتَتصاعَد من الأعشاب الطويلة التي سخَّنَتها الشمس رائحة عسلية قوية. وعمًّا قريب ينتصف النهار بينما لا يزال جيراسيم ولوبيم يتخبطان في الماء تحت الصفصاف. ولا يكف الصوت «الباص» الأبح، و«التينور» الرفيع المَقرُور عن تعكير سكون النهار الصيفي.

– اسحبه من خَشِمه، اسحبه! انتظر سأدفعه! أين تدس كل هذه القبضة؟ بأصبعك لا بقبضتك يا بهيم! تعالَ من الجنب! من الشمال ادخل، من الشمال، في اليمين حفرة، حاسب وإلا تَعشَّى بك عفريت الماء! اسحبه من شفته.

وتُسْمَع فرقعة سوط ... وعلى الشاطئ المنبسط يسير قطيع نحو المورِد في كسل، يَسوقه الراعي يفيم. يسير الراعي، هذا العجوز المتهالِك ذو العين الواحدة والفم المُلتَوي، مُطأطئ الرأس ينظر تحت أقدامه. وتصل إلى النهر الشياه أولًا، ثم تتبعها الخيول، ومن خلفها البقر.

ويسمع الراعي صوت لوبيم: ادفعه من تحت! مُرِّر إصبعك! هل أنت أطرش؟ إخص!

فيصيح يفيم: ماذا تُطارِدون يا إخوان؟

– بربوطًا! لا نستطيع إخراجه. انحشر تحت الجذر!

– ادخل من الجنب! ادخل، ادخل!

ويزرُّ يفيم عينه الواحدة مُحدِّقًا في الصيادَّيْن لحظة، ثم يخلع حذاءه «اللابتي»[٢] ويلقي بالكيس عن كتفه، وينزع قَميصه. ولا يستطيع أن يصبر حتى يخلع سرواله فينزل به إلى الماء وهو يرسم علامة الصليب ويحافظ على توازنه بيديه النحيلتين السمراوين ... ويسير حوالي خمسين خطوة على القاع الطيني، ثم يمضي سابحًا.

ويصيح:

انتظِروا يا فتيان! انتظروا! لا تَتعجَّلوا بإخراجه وإلا أفلتَ ... لا بد من المهارة!

[٢] حذاء كان يُصنَع من لحاء الأشجار وينتعله فقراء الفلاحين فيما مضى في روسيا. (المُعَرِّب)

وينضم يفيم إلى النَّجارَين، وأخذ ثلاثتهم يتزاحمون في مكان واحد وهم يدفعون بعضهم بعضًا بالمرافق والركب ويزحرون ويسبون ... ويشرق لوبيم الأحدب بالماء فيُجلجِل في الجو سُعال حادٌّ مُتقلِّص.

ويُسمع صياح من الشاطئ: أين الراعي؟ يفيم! يا راعِ أين أنت؟ القطيع دخل البستان! اطرده، اطرده من البستان! اطرده! أين هذا الشقي العجوز؟

وتُسمَع أصوات رجال، ثم صوت امرأة ... ويخرج من وراء سياج البستان السادة الإقطاعي أندريه أندريتش مرتديًا روبًا من الحرير الفارسي وممسكًا بجريدة في يده ... وينظر مستفهمًا نحو الأصوات الآتيه من النهر، ثم يُسرِع الخطى نحو الحمَّام.

ماذا هنا؟ من يصيح؟ يسأل بصرامة وهو يرى من خلال أغصان الصفصاف رءوس الصيادين الثلاثة المبللة: عمَّ تبحثون هنا؟

ويتمتم يفيم دون أن يرفع رأسه: سم ... كة ... نصطاد.

– سأريك كيف تصطاد! القطيع دخل البستان وهو يصطاد السمك! متى تنتهون من بناء الحَمَّام أيها الشياطين؟ منذ يومين تعملان، فأين النتيجة؟

فيزحر جيراسيم: سيكو ... ن جاهزًا ... الصيف طويل، ستَتمكَّن من الاستحمام يا صاحب السعادة ... بررر، لا نستطيع إخراج البربوط من هنا ... دخل تحت الجذر وكأنما في جحر، لا وراء ولا قدام.

– بربوط؟ يسأل السيد وعيناه تبرقان ... إذن هيا أخرجوه بسرعة!

– فَلتُعطنا نصف روبل ... ونتركه لك ... بربوط كبير ... سمين كزوجة التاجر ... يساوي نصف روبل يا صاحب السعادة ... جزاء على تعبنا ... لا تعصره يا لوبيم لا تعصره وإلا هلك! ارفعه من تحت! ارفع الجذر إلى أعلى يا رجل أنت ... ما اسمك؟ إلى أعلى لا إلى أسفل أيها الشيطان! لا تَخبطَا بأرجلكما!

وتمضي خمس دقائق، ثم عشر ... ولا يستطيع السيد أن يصبر أكثر، فيصيح ملتفتًا نحو الدار: يا فاسيلي! يا فاسكا! نادُوا فاسيلي.

ويأتي الحُوذي فاسيلي ركضًا، يمضغ شيئًا ما ويتنفس بصعوبة.

فيأمره السيد: انزل إلى الماء ... ساعِدْهم في إخراج البربوط ... لا يستطيعون إخراج بربوط!

وينزع فاسيلي ملابسه بسرعة وينزل إلى الماء.

ويتمتم: حالًا، حالًا ... أين البربوط؟ حالًا ... في لمح البصر! اذهب أنت يا يفيم! لا مكان لعجوز مثلك هنا، لا تتدخل في أمر لا يخصك! أين هنا البربوط؟ أنا حالًا ... ها هو ذا! ارفعوا أيديكم!

– شاطر صحيح ... بدونك نعرف ... ارفعوا أيديكم قال ... طب هيا أخرجه!

– وهل يمكن إخراجه هكذا لا بد من شده من رأسه!

– ورأسه تحت الجذر! يا لك من غبي!

– كفى نباحًا وإلا أريتك! يا وغد!

فيتمتم يفيم: في حضرة السيد تَسبُّ بهذه الكلمات ... لن تخرجوه يا جماعة! انحشر هناك بمهارة!

– انتظروا، أنا قادم ... يقول السيد ويبدأ في نزع ملابسه على عجل: أربعة حمقى ولا يستطيعون إخراج بربوط!

وبعد أن ينزع أندريه أندريتش ملابسه، يقف قليلًا ليبرد جسمه، ثم ينزل إلى الماء، ولكن تَدخُّله لا يفيد بشيء.

وأخيرًا يقول لوبيم: لا بد مِن قطع الجذر! اذهب يا جيراسيم وأحضر الفأس! هاتوا الفأس!

ويقول السيد عندما تَتردَّد تحت الماء ضربات الفأس على الجذر: لا تقطع أصابعك! امش يا يفيم من هنا! انتظروا، أنا الذي سأخرج البربوط! أنتم لستم.

وها هو ذا الجذر قد اجتُثَّ إلى نصفه. ويكسرونه قليلًا، ويشعر أندريه أندريتش بسرور بالِغ أن أصابعه تَدخُل في خياشيم البربوط.

– إنني أشده يا جماعة! لا تَتزاحَموا ... قِفُوا ... أنا أسحبه!

ويظهر فوق صفحة الماء رأس بربوط كبير، ثم جسمه الأسود بطول ذراع. ويحرك البربوط ذيله بصعوبة محاولًا أن يتملَّص.

– دَعْكَ من هذا يا أخي ... لا يمكن أن تُفلِت! وقعت؟ هكذا!

وترتسم على الوجوه كلها ابتسامة عسلية. وتمر دقيقة في تأمُّل صامِت.

ويُتمتِم يفيم وهو يحك صدره: بربوط عظيم! حوالي عشرة أرطال.

فيقول السيد موافقًا: نعم ... انظر إلى كبده كم هي ممتلئة ... تكاد تقفز من داخله ... آه!

وفجأة يأتي البربوط بحركة حادة مُباغِتة بذيله إلى أعلى، ويسمع الصيادون صوت ارتطام شديد بالماء ... ويمد الجميع أيديهم، ولكن بعد فوات الأوان ... إذ لم يعد للبربوط أثر.

الصياد

قيلولة قائظة خانِقة. ولا سحابة في السماء ... والعُشب الذي أحرقَته الشمس يبدو كئيبًا بائسًا، فحتى لو سقط المطر فلن تعود إليه الخضرة ... والغابة تقف بأشجارها صامتة، جامدة، وكأنما تُحدِّق ذؤاباتها في نقطة ما، أو تنتظر حدوث شيء.

وعلى حافَّة الغابة يسير رجل طويل القامة، ضيِّق المنكبَين، في حوالي الأربعين من عمره، في قميص أحمر وبَنطال مُرقَّع من بناطيل سيده، وحذاء طويل كبير. يسير على الطريق في كسل وبخطوات مُتراخِية. وعن يمينه تلُوح الغابة الخضراء، وعن يساره وحتى الأفق يمتد بحر ذهبي من الحِنطَة الناضجة ... والرجل أحمر الوجه، عرقان، وعلى قفاه الأشقر الجميل تستقر عمرة بيضاء بمقدمة مستطيلة كمقدمات عمرات الجوكية، والظاهر أنها هدية من أحد السادة أهداها له في لحظة كرم حاتمي. ومن كَتِفه يتدَّلى كيس صيد يرقد فيه محشورًا دِيك بَرِّي. ويمسك الرجل في يديه ببندقية بماسورتين مرفوعة الزناد، ويزرُّ عينيه مُحدِّقًا في كلبه العجوز الهزيل الذي يركض أمامه ويتشمم الأحراش. والسكون من حوله مطبق، لا يعكره صوت ... لقد أختبأ من الحر كل ما هو حيٌّ.

وفجأة يسمع الصياد صوتًا خافتًا:

– يجور فلاسيتش!

فينتفض، ويلتفتُ خلفه، ثم يقطِّب حاجبيه. وبجواره، وكأنما انشقت عنها الأرض، تقفُ امرأة شاحبة الوجه، في حوالي الثلاثين، مُمسِكة بمنجل في يدها. وتحاول أن تُحدِّق في وجهه، وتبتسم بخجل.

فيقول الصياد متوقفًا وهو ينزل الزناد ببطء: آه، أهو أنتِ يا بيلاجيا؟ هم! كيف جئت إلى هنا؟

– هنا تعمل نساء من قريتنا، وأنا معهن ... عاملات يا يجور فلاسيتش.

– طيب ... يهمهم يجور فلاسيتش، ثم يواصل سيره ببطء.

وتتبعه بيلاجيا. يسيران في صمت حوالي عشرين خطوة.

– لم أَرَك من مدة طويلة يا يجور فلاسيتش ... تقول بيلاجيا وهي تتطلع بحنان إلى كتفي الصياد المتحرِّكَين وظهره: من يوم أن دخلتَ البيت في عيد الفصح لتشرب ماء، من يومها لم نَرَك. في عيد الفصح جِئتَنا لدقيقة ... وفوق ذلك كنتَ أنتَ ... في حالة سُكْر ... شتمتَني وضربتَني وانصرفتَ ... وما أكثر ما انتظرتُك! كَلَّ بصري من النظر وأنا أنتظرُك. إيه يا يجور فلاسيتش! طل عليَّ ولو مرة!

– وما الذي أفعله عندك؟

– صحيح ليس هناك ما تَفعلُه ... عندك حق ... ومع ذلك فهناك البيت وأموره ... تعالَ انظر ... فأنتَ السيد ... آه، اصطدتَ ديكًا. يا يجور فلاسيتش! ألا تجلس لتستريح قليلًا؟

تقول بيلاجيا ذلك وهي تضحك كالبلهاء وتتطلع إلى أعلى، إلى وجه يجور ... وينضح وجهها بالسعادة.

– أَجلِس؟ مُمكن ... يقول يجور بنبرة لا مبالية، ويختار موضعًا بين شجرتي شوح: ما لك واقفة؟ اجلسي أنتِ أيضًا!

وتجلس بيلاجيا على مسافة منه تحت الشمس اللافحة وتُخفي بيدها فمَها المبتسم وهي تخجل من فرحتها. وتمر دقيقتان من الصمت.

ثم تقول بيلاجيا بصوت خافِت: طُلَّ علينا ولو مرة!

فيتنهَّد يجور وينزع عمرته، ويمسح بكمه جبينه الأحمر ويقول: وما الداعي؟ لا حاجة إلى ذلك البَتَّة؛ إذا جئتُ لساعة أو ساعتين فهذا تعَب لا طائل منه ... سأثيرك فقط ... أما الإقامة الدائمة في القرية فلا تطيقها روحي ... أنتِ تعرفين أنني رجل مُدلَّل ... يلزمني أن أنام على سرير، وأتناول شايًا جيدًا، وبحاجة إلى أحاديث مُهذَّبة ... أنا بحاجة إلى وسائل الرفاهية ... فماذا لديك في قريتك غير الفقر والهباب؟ لن أتحمل يومًا واحدًا. ولو صدر إليَّ، مثلًا، أمر يحتم عليَّ العيش عندك لأحرقتُ الدار أو انتحرت، أنا مدلل من صغري، ولا حيلة لي في الأمر.

– وأين تعيش الآن؟

– عند السيد ديمتري إيفانيتش، أعمل صيادًا. أقدم الطيور البرية لمائدته ... ولكنه عمومًا يستبقيني للمتعة.

– هذا العمل لا يليق بمقامك يا يجور فلاسيتش ... الناس تنظر إليه كَلَهْو، بينما تعتبره أنت حِرفة ... تراه عملًا حقيقيًّا.

فيقول يجور وهو يتطلع إلى السماء حالمًا: أنتِ لا تفهمين ذلك يا غبية. لم تفهمي ولن تفهمي أبدًا أي رجل أنا ... أنا في رأيك رجل طائش، ضال، أما الذين يفهمون فأنا بالنسبة إليهم أحسن قَنَّاص في الناحية. السادة يدركون ذلك، بل وكتبَت عني إحدى المجلات. لا يوجد نِد لي في مجال الصيد ... أما كوني أحتقر مِهنتكم الفلاحية فليس ذلك لأني مدلل أو مُتكبِّر، إنك تعرفين، أنني منذ صغري لم أعرف عملًا غير البندقية والكلاب، ولو أخذوا مني البندقية لأمسكتُ بالسِّنَّارة، ولو أخذوا السِّنَّارة فسأصطاد بيديَّ. وكنتُ أكسب أيضًا من الخيل، كنتُ أَطوف بالأسواق عندما يكون معي نقود. وأنت تعرفين أن الفلاح إذا ما وهَب نفسه للصيد أو للخيل فعلى المِحْراث السلام. وإذا تَقمَّصَت الإنسانَ روح الحرية فلن يستطيع أحدٌ إخراجَها منه. وأيضًا إذا وَهَب أحد السادة نفسه للتمثيل أو أي نوع آخر من الفنون، فلن يصبح أبدًا موظفًا أو إقطاعيًّا. أنتِ يا امرأة لا تفهمين، وهذا شيء يتطلب الفهم.

– أنا فاهمة يا يجور فلاسيتش.

– معنى ذلك أنك لا تفهمين طالما تشرعين في البكاء.

– أنا ... أنا لا أبكي ... تقول بيلاجيا مستديرة عنه بوجهها: حرام يا يجور فلاسيتش! ابقَ ولو يومًا واحدًا معي أنا التَّعيسة. اثنتا عشرة سنة مرَّت منذ أن تزوَّجتُك و... ولم يكن بيننا حُب ولا مرة واحدة! أنا ... أنا لا أبكي!

ويدمدم يجور وهو يَحكُّ ذراعه: حُب ... لا يمكن أن يكون بيننا أي حب. أنا وأنت مُتزوِّجان بالاسم فقط، فهل فعلًا نحن كذلك؟ أنا بالنسبة إليك رجل مُتوحِّش، وأنت بالنسبة إليَّ امرأة بسيطة لا تفهم. هل نحن متزوجان؟ أنا رجل حُر، مُدلَّل، جوَّال، وأنتِ كادحة، فلاحة، تعيشين في القذارة، محنية الظهر دائمًا. أنا أعتبر نفسي في الصيد أول الجميع، أما أنت فتنظرين إليَّ بإشفاق ... فهل نحن زوجان؟

فتقول بيلاجيا وهي تشهق بالبكاء: ولكننا مُتزوِّجان يا يجور فلاسيتش!

– متزوِّجان بالإكراه ... هل نسيت؟ اشكري الكونت سرجي بافليتش على ذلك و... نفسك، فبسبب الغيرة من أني أرمي أحسن منه ظَل الكونت يسقيني الخمر شهرًا كاملًا ليسكرني، ومن الممكن دفع السكران لا إلى الزواج فَحسْبُ بل وإلى اعتناق دِين آخر. وهكذا أراد أن ينتقم مني فزوَّجَني منكِ وأنا سكران ... زوَّج الصياد المحترِف براعية ماشية! كنتِ

تعرفين أنني سكران، فلماذا قَبِلْت؟ أنتِ لستِ عبدة، وكنتِ تستطيعين أن ترفضي! طبعًا زواج مُربِّية الماشية بصياد مُحترِف شيء مشرِّف، ولكن كان ينبغي أن يكون لديك نظر. حسنًا تَعذَّبي الآن وابكي. الكونت يضحك وأنت تبكين ... اضربي الحائط برأسك.

وتحل لحظة صمت، وتطير فوق طرف الغابة ثلاث بطات برية، ويتطلع يجور إليها ويتابعها بنظره إلى أن تصبح ثلاث نقاط لا تكاد أن تُرى وتهبط بعيدًا وراء الغابة.

ثم يحوِّل نظره عن البَطَّات إلى بيلاجيا ويسألها: وبم تعيشين؟

– الآن أخرج للعمل، أما في الشتاء فآخذ طفلًا من الملجأ وأطعمه بالبزازة. ويعطونني روبلًا ونصف في الشهر.

– هكذا.

ويَعود الصمت من جديد، وتتناهى من الشريط المحصود أغنية تنقطع في بدايتها، فالحَر لا يدع مجالًا للغناء.

ثم تقول بيلاجيا: يقولون إنكَ بَنيتَ لأكولينا بيتًا جديدًا.

ويصمت يجور.

إذن فقلبُك يميل إليها.

فيقول الصياد وهو يتمطى: هذا هو حظُّك، وتلك سعادتُك! اصبري يا يتيمة، طيب، وداعًا، أطلت في الكلام ... ينبغي أن أكون مساء في بولتوفو.

وينهض يجور، ويتمطَّى، ويتقلَّد البندقية. وتنهض بيلاجيا.

وتسأل بصوت خافِت: ومتى ستأتي إلى القرية؟

– لا داعي. لن آتي أبدًا وأنا مُفيق، أما وأنا سكران فلا فائدة مني لك، عندما أكون سكران أصبح غضوبًا ... وداعًا!

– وداعًا يا يجور فلاسيتش.

ويضع يجور العمرة على مؤخرة رأسه ويدعو الكلب بمصة من شفتيه ويواصل طريقه. وتقف بيلاجيا في مكانها تُشيِّعه بنظراتها ... وترى عظام ظهره المتحركة وقفاه الفتي وخطوته البطيئة اللا مبالية فتمتلئُ عيناها بالحزن والرِّقَّة الحانية ... وتطوف نظراتها بقوام زوجها النحيل الطويل وتلاطُفه وتُهدهِده ... وكأنما يحس هو بهذه النظرة فيتوقَّف ويلتفتُ ... يقف صامتًا، ولكن بيلاجيا تشعر من وجهه وكتفيه المرتفعتين أنه يريد أن يقول شيئًا ما. فتقتربُ منه بوجل وتُحدِّق فيه بعينين ضارعتَين.

فيقول لها وهو يستدير: خُذي!

ويمد لها روبلًا مُجعَّدًا وينصرف بسرعة.

وتأخذ منه الروبل آليًّا وهي تقول: الوداع يا يجور فلاسيتش!

ويسير في طريق طويل مستقيم كالحزام المشدود ... وتقف هي شاحبة جامدة كالتمثال، وتلتهم بعينها كل خطوة من خطواته. ها هو ذا لون قميصه الأحمر يندمج بلون سرواله الغامق، ولا تبين خطواته، ولا تميز الكلب عن حذائه. لا ترى سوى العمرة فقط، ولكن ... ينعطف يجور فجأة يمينًا إلى الغابة فتختفي العمرة في الخضرة.

– الوداع يا يجور فلاسيتش!

تهمس بيلاجيا وتشب على أطراف أصابعها؛ كي ترى ولو مرة أخرى العمرة البيضاء.

في البيت الريفي

«أنا أحبك. أنتَ حياتي، سعادتي، كل ما أملك! اغفر لي اعترافي، ولكنني لا أقوى على العذاب في صمت. أنا لا أرجو منك المشاركة، بل العطف. تعالَ اليوم في الساعة الثامنة مساء إلى العريشة القديمة ... لا أرى لزومًا للتوقيع باسمي، لكن لا تخشَ من رسالة مجهولة، أنا شابة وسيمة ... فماذا تريد أيضًا.»

قرأ المُصطاف بافل إيفانيتش فيخودتسيف، وهو رجل متزوِّج، مستقيم، هذه الرسالة ثم هزَّ كتفيه، وحكَّ جبينه في استغراب.

وقال في نفسه: «ما هذا بحق الشيطان؟ أنا رجل متزوج، وفجأة أتلقى هذه الرسالة الغريبة ... الحمقاء! تُرى مَن كاتِبُها؟»

قلَّب بافل إيفانيتش الرسالة أمام عينيه، ثم قرأ ثانية، وبصق.

وقال في نفسه مقلدًا عبارة الرسالة في سخرية: ««أنا أحبك» ... تظن أنها وجدَت صبيًّا! إذن فسوف أجري ركضًا لألقاك في العريشة! إنني يا سيدتي نسيت من زمان هذه القصص الغرامية وكل هذه الفلور دامور ...[1] هم! ... لا بد أنها امرأة طائشة منحرِفة ... آه من هؤلاء النساء! أي لعوب، أستغفر الله، ينبغي أن تكون لكي تَكتُب رسالة كهذه إلى رجل غريب، وفوق ذلك متزوِّج! انحلال ما بعده انحلال!»

خلال ثماني سنوات من الحياة الزوجية نسيَ بافل إيفانيتش المشاعر الرقيقة، ولم يكن يَتلقَّى أي رسائل، اللهم إلا بطاقات التهنئة، ولذلك فرغم محاولته التظاهر بالرصانة أمام نفسه فإن الرسالة المذكورة أربكته بشدة وأثارته.

---

[1] زهرة الحب، من الفرنسية: Fleur d'amour. (المُعَرِّب)

وبعد ساعة من تُسلُّمها رقد على الكنبة وهو يفكر:

«بالطبع أنا لستُ صبيًّا ولن أجري إلى هذا الراندي فو الأحمق، ولكن من الطريف أن أعرف، تُرى مَن كَتبها؟ هِمْ ... الخط حريمي بلا شك ... والرسالة مكتوبة بصدق وحرارة، ومن ثمَّ يُستبعَد أن تكون نكتة ... ربما كانت امرأة مضطربة عقليًّا أو أرملة ... الأرامل عمومًا رَعناوات وشاذَّات. هِم ... ولكن يا تُرى من تكون؟»

زاد من صعوبة حل هذه المسألة أنه لم يكن لدى بافل إيفانيتش في البلدة الريفية كلها مِن المعارف النسائية سوى زوجته.

وفكر مستغربًا: «غريبة ... «أنا أحبك» ... متى تمكَّنت من حبي؟ امرأة مدهشة! هكذا أَحبَّت، بلا مُقدِّمات، حتى دون أن تَتعرَّف بي أو تعرف أي رجل أنا ... يبدو أنها صبية جدًّا ورومانسية إذا كان في وُسِعها أن تعشق من نظرتَين أو ثلاث ... ولكن ... من هي؟»

وفجأة تذكَّر بافل إيفانيتش أنه بالأمس، وأول أمس أيضًا، عندما كان يتنَزَّه في ميدان البلدة، التقى عدة مرات بشقراء شابَّة، كانت تختلس إليه النظر بين الحين والحين، وعندما جلس على الأريكة، جلسَت بالقرب منه.

وفكر فيخودتسيف: «هي؟ غير معقول! وهل يمكن لمخلوق رهيف، نُوراني أن يحب قرموطًا عجوزًا سقيمًا مثلي؟ لا، هذا مستحيل!»

وفي أثناء الغداء حدَّق بافل إيفانيتش في زوجته ببلادة وهو يفكر:

«إنها تَكتُب أنها شابة ووسيمة ... إذن فليسَت عجوزًا ... هِم ... لو أردنا الصدق، وبصراحة، فأنا لستُ عجوزًا ودميمًا إلى حد يمنع من الوقوع في غرامي ... أليست زوجتي تحبني؟ وفضلًا عن ذلك فالحب أعمى، والقرد في عين أمه غزال ...»

وسألَته زوجته: فيمَ تفكر؟

فكذب قائلًا: أبدًا ... لا شيء ... يبدو عندي صداع.

وقرَّر أنه من الغباء أن يعير اهتمامًا لشيء تافه كهذه الرسالة الغرامية، وسخر منها ومن كاتِبَتِها، ولكن يا للأسف! ما أقوى الشيطان الوسواس. وبعد الغداء تمدد بافل إيفانيتش على سريره، وبدلًا من أن ينام أخذ يفكر:

«ولكنها، في الغالب، تُؤمِّل في مجيئي! يا لها من حمقاء! نعم، أتخيَّل كيف ستنفعل وترتعش أردافُها المستعارَة عندما لا تجدني في العريشة! ولكني لن أذهب ... ما لي وما لها!»

ولكن أكرر، ما أقوى الشيطان الوسواس.

فبعد نصف ساعة فكَّر المُصطاف: «ولكن ماذا لو ذهبْت؟ ... هكذا ... حب استطلاع؟ أذهب وأنظر من بعيد لأعرف من هي ... من الطريف فعلًا لو أُلقي نظرة! شيء مُضحك لا أكثر وبالفعل، لماذا لا أضحك قليلًا إذا كانت هناك فرصة لذلك؟»

ونهض بافل إيفانيتش من سريره وبدأ يرتدي ثيابه.

– إلى أين تتأنَّق هكذا؟ سألته زوجتُه وقد لاحظَت أنه يرتدي قميصًا نظيفًا ورابطة عنق حديثة.

– أبدًا ... أريد أن أتنزَّه قليلًا ... يبدو عندي صداع ... هِم.

تأنَّقَ بافل إيفانيتش، وانتظر بداية الساعة الثامنة، وخرج من البيت، ودق قلبه عندما لاحت لناظريه على خلفية خضراء ساطعة غمرها ضوء الشمس الغاربة جموع المُصطافِين والمصطافَات الأنيقة.

وفكَّر وهو يختلس النظر بخجل إلى وجوه المصطافات:

«تُرى مَن منهن؟ ولكني لا أرى الشقراء ... هِم ... إذا كانت هي صاحبة الرسالة، فإذن هي الآن جالسة في العريشة.»

ودلف فيخودتسيف إلى ممر بين الأشجار بدت في نهايته «العريشة القديمة» من خلف أوراق أشجار الزيزفون الباسقة ... ومضى نحوها على مهل.

وفكَّر وهو يتقدم مترددًا: «سأطل من بعيد ... ما لي أخاف؟ أنا لست ذاهبًا إلى راندي فو! يا لي من أحمق! أقدم بجرأة! وماذا لو دخلتُ العريشة؟ لا، لا ... لا داعي!»

وازدادَت دقَّات قلب بافل إيفانيتش ... وعلى الرغم منه، تَخيَّل لا إراديًّا عتمة العريشة ... ومضَت في خياله الشقراء الرشيقة في فستان أزرق فاتح، وبأنف أقعى ... وتصوَّر كيف تقترب منه بوجل، وهي تخجَل من حبها، وبدنُها كله يرتعش، وأنفاسُها تتردَّد بحرارة و... وفجأة تُطوِّقه بذراعيها في عناق عنيف.

وفكَّر وهو يطرد من رأسه الأفكار الحرام: «لو لم أكن متزوجًا لهان الأمر ... وعمومًا ... لا مانع أن تُجرِّب ذلك مرة في العمر، وإلا فقد تموت دون أن تدري ما هذا ... وزوجتي ... حسنًا، ماذا سيحدث لها؟ الحمد لله لم أبتعد عنها خطوة واحدة طوال ثماني سنوات ... ثماني سنوات من الخدمة المثالية! يكفيها هذا ... شيء محنق. طيب، ماذا لو خنتها نكاية بها؟»

اقترَب بافل إيفانيتش مرتَعِش البدن مبهور الأنفاس من العريشة المغلَّفة بأغصان الكروم البرية، وأطلَّ داخلها ... وهبت عليه رطوبة وروائح عطنة.

وفكر وهو يدخل العريشة: «يبدو ليس هناك أحد ...»، وعلى الفور رأى شبحًا بشريًّا في ركن العريشة.

كان شبح رجل ... وعندما حدَّق بافل وعرف فيه شقيق زوجته، الطالب ميتيا، الذي يعيش عندهم في البيت الريفي.

ودمدم بصوت ساخر:

– آه ... أهو أنت؟ ونزع قبعته وجلس.

فأجاب ميتيا: نعم، أنا.

مرَّت دقيقتان في صمت.

ثم قال ميتيا: اعذرني يا بافل إيفانيتش إذا رجوتك أن تتركني بمفردي ... إنني أفكر في موضوع رسالة علمية و... ووجود أي شخص هنا يشوش عليَّ.

فقال بافل إيفانيتش بِدَعَة: فلتذهب إلى الممر المظلم ... في الهواء الطَّلق يَسهل التفكير، ثم إنه ... يعني ... أريد أن أنام قليلًا على هذه الأريكة ... الجو هنا ليس حارًّا.

فدمدم ميتيا بسخط: أنت تريد أن تنام وأنا أريد أن أفكِّر في الرسالة ... الرسالة أهم.

وحلَّ الصمت من جديد ... وإذا ببافل إيفانيتش، الذي ترك لخياله العنان وأصبح يسمع بين الحين والحين وقع خطوات، يقفز فجأة ويقول بصوت باكٍ: إنني أرجوك يا ميتيا! أنت أصغر مني وينبغي أن تستجيب لرجائي ... إنني مريض و... وأريد أن أنام ... اذهب!

– هذه أنانية ... لماذا ينبغي أن تبقى أنت لا أنا؟ لن أذهب ... هذه مسألة مبدأ.

– أرجوك! فلأكن أنانيًّا، طاغية، أحمق ... إنني أرجوك! مرة في حياتي أرجوك! استجب!

فهزَّ ميتيا رأسه سلبًا.

وفكر بافل إيفانيتش: «يا له مِن وغد! لن يتم الراندي فو في حضوره! مستحيل في حضوره!»

اسمع يا ميتيا، أرجوك آخر مرة ... بَرْهِن على أنك إنسان ذكي، عطوف ومثقف!

فهزَّ ميتيا كتفيه: أنا لا أفهم إلحاحك عليَّ! قلتُ لك لن أذهب يعني لن أذهب ... سأبقى هنا كمبدأ.

وفي تلك اللحظة أطل في العريشة فجأة وجه نسائي ذو أنف أقعى. وعندما رأى الوجه ميتيا وبافل إيفانيتش عبس واختفى.

وفكَّر بافل إيفانيتش وهو ينظر إلى ميتيا بحقد: «ذهبت! رأت هذا الوغد فذهبت! ضاع كل شيء».

وانتظر فيخودتسيف قليلًا ثم نهض وارتدى قبعته وقال: أنتَ حيوان، وغد، سافل! نعم! حيوان! هذه خسة و... حماقة! كل شيء بيننا انتهى!

فدمدم ميتيا وهو ينهض أيضًا ويرتدي قبعته: سعيد جدًّا! أتعرِف أنكَ بحضورك الآن ارتكبتَ في حقي عملًا دنيئًا لن أغفره لك طول العمر!

وخرج بافل إيفانيتش من العريشة وقد أعماه الغضب، ومضى نحو بيته الصيفي بخطوات سريعة ... ولم يُهدِّئ ثائرته حتى منظر المائدة المُعدَّة للعشاء.

قال في نفسه منفعلًا: «مرة في حياتي تُتاح لي هذه الفرصة فيفسدونها عليَّ! إنها الآن تشعر بالإهانة ... إنها محطمة!»

وفي أثناء العشاء دفن بافل إيفانيتش وميتيا وجهيهما في الأطباق وصمتا مُكفَهرَّيْن ... كانا يمقتان بعضهما البعض من صميم قلبيهما.

وهاجم بافل إيفانيتش زوجته: ما لكِ تبتسمين؟ الحمقاوات وحدَهن يبتسمن بلا سبب!

فنظرت الزوجة إلى وجه زوجها الغاضب وانفلتَت منها ضحكة وسألته: ما هذه الرسالة التي تَسلَّمتَها صباح اليوم؟

فارتبك بافل إيفانيتش: أنا؟ ... لم أَتسلَّم أي رسالة ... أنت تختلقين ... هذه تهيؤات.

– دعك من المراوغة! اعترِف بأنك تَسلَّمتَها! هذه الرسالة أنا التي أرسلتها! أقسم لك! ها ... ها!

تَضرَّج بافل إيفانيتش وانحنى فوق الطبق، ودمدم: مزاح سخيف.

– وماذا أفعل ... كان ينبغي أن نغسل الأرضية اليوم. فكيف نطردكما من البيت؟ بهذه الطريقة فقط ... لا تغضب مني، يا عزيزي ... ولكي لا تشعر بالملل في العريشة أرسلتُ لميتيا رسالة مماثلة! هل كنتَ في العريشة يا ميتيا؟

ضحك ميتيا ضحكة قصيرة، ولم يَعد ينظر إلى غريمه بحقد.

توافِه الحياة

توجَّه نيقولاي إيليتش بلِيايف، أحد أصحاب العقارات في بطرسبرج، ومن المتردِّدِين كثيرًا على سباق الخيل، وهو رجل شاب، في حوالي الثانية والثلاثين، ممتلئ الجسم، وردي البشرة، توجَّه ذات مساء إلى السيدة أولجا إيفانوفنا إيرنينا التي كان يعاشرها، أو التي كانت له معها — على حد تعبيره — قصة طويلة مُملَّة. وبالفعل، فالصفحات الأولى من هذه القصة، تلك الصفحات التي كانت شائقة مُلهِمة، قد فرغ من قراءتها منذ أمد بعيد، وامتدَّت الصفحات الآن ببطء، خلوة من أي شيء جديد أو شائق.

وعندما لم يجد بطلنا أولجا إيفانوفنا في البيت، استلقى على أريكة في غرفة الجلوس، وشرع ينتظرها.

وسمع صوتًا طفوليًّا يقول:

– مساء الخير يا نيقولاي إيليتش. ماما ستعود قريبًا. لقد ذهبت مع سونيا إلى الخياطة.

في غرفة الجلوس ذاتها استلقى على الكنبة أليوشا ابن أولجا أيفانوفنا. وهو صبي في حوالي الثامنة، رشيق، مُعتنًى به، يرتدي سُترة مخملية وجوربًا طويلًا من التريكو الأسود حسب أحدث موضة. كان راقدًا على وسادة من الحرير الأطلسي، ويبدو أنه كان يُقلِّد لاعب الأكروبات الذي رآه مؤخرًا في السيرك، فقد كان يرفع عاليًا ساقيه بالتناوب. وعندما تتعب ساقاه الرشيقتان، يطلق العنان ليديه، أو يقفز بحدة ويجثم على أربع محاولًا أن يقف على يديه. وكان يفعل ذلك كله بوجه في غاية الجدية، وهو يَزحر بمعاناة، وكأنما كان هو نفسه غير راضٍ؛ إذ وهبه الله هذا الجسد القَلِق.

فقال بلِيايف: آه، مرحبًا يا صديقي، أهو أنت؟ لم ألاحظ وجودك. هل ماما بصحة طيبة؟

تشقلب أليوشا الذي أمسك بمشط قدمه اليسرى بيده اليمنى واتَّخذ وضعًا غير عادي تمامًا، ثم قفز واقفًا، وأطل على بليايف من خلف أباجورة كبيرة منفوخة.

وقال وهو يهز كتفيه: ماذا أقول لك؟ ماما في الواقع لا تشعر بنفسها في صحة طيبة أبدًا فهي امرأة، والمرأة، يا نيقولاي إيليتش لديها دائمًا شيء ما مريض.

ولَمَّا لم يكن لدى بليايف ما يفعله، فقد أخذ يتأمَّل وجه أليوشا. فطوال فترة معرفته بأولجا إيفانوفنا لم يُعِر الصبي أدنى اهتمام، ولم يلاحظ وجوده أبدًا ... مجرد صبي يُلوِّح لناظريه، أما ما سبب وجوده هنا، وأي دور يؤديه؟ فهذا ما لم يشأ، لأمر ما، أن يفكر فيه.

وفي عتمة الغسق ذكَّره وجه أليوشا ذو الجبين الشاحب والعينين السوداوين غير البرَّاقتَين، ذَكَّره على غير توقُّع بأولجا إيفانوفنا عندما كانت في أولى صفحات القصة. أحس برغبة في ملاطفة الصبي.

فقال له: تعالَ هنا يا صغير! دعني أنظر إليك عن قرب، وقفز الصبي من فوق الكنبة وركض إلى بليايف، ووضع نيقولاي إيليتش يده على كتف الصبي النحيلة وقال: حسنًا. ماذا؟ كيف الحال؟

ماذا أقول لك؟ كان الحال في السابق أفضل بكثير.

– لماذا؟

– بسيطة جدًّا! في السابق كنتُ أنا وسونيا ندرس الموسيقى والقراءة فقط، أما الآن فعلينا أن نحفظ أشعارًا بالفرنسية. أنتَ حلقتَ منذ وقت قريب؟

– نعم، منذ وقت قريب.

– لقد لاحظتُ ذلك، أصبحَت لحيتُك أقصر. اسمح لي بأن ألمسها ... ألا يؤلمك؟

– كلَّا، لا يؤلمني.

– وما السبب أنك عندما تشدَّ شعرة واحدة تشعر بالألم، وعندما تشد شعرًا كثيرًا لا تشعر أبدًا بأي ألم؟ ها ... ها! أتدري، خسارة أنك لا تطلق سوالفك. لو حلقتَ هنا قليلًا، أما هنا، من الجنبين، فتترك الشعر.

والتصق الصبي ببليايف وراح يعبث بسلسلته ... وقال: عندما أدخل المدرسة ستشتري لي ماما ساعة. وسأطلب منها أن تشتري لي سلسلة مثل هذه ... أوه، يا لها من مُدلَّاة! بابا عنده مُدلَّاة مثلها بالضبط، ولكن عندك هنا خطوط أما فعنده حروف ... وفي الوسط عنده صورة ماما. أصبح لدى بابا الآن سلسلة أخرى، ليست حلقات، بل شريط.

– ومن أين عرفت؟ هل تقابل بابا؟

– أنا؟ مم ... لا! أنا ... لا.

أحمرَّ أليوشا وأخذ يخدش المدلَّاة بظفره باهتمام وهو في ارتباك شديد من اكتشاف كذبه.

وحدق بلياييف في وجهه مليًّا ثم سأله: هل تقابل بابا؟

– لـ ... لا!

– لا، خَبِّرني بصراحة ... فأنا أرى من وجهك أنك تكذب ... ما دمتَ قد ثرثرتَ فلا داعي إذن للمراوَغة. قل، هل تراه؟ خبرني كأصدقاء.

واستغرق أليوشا في التفكير، ثم سأل: ألن تقول لماما؟

– وهل هذا معقول؟!

– كلمة شرف؟

– كلمة شرف.

– أَقْسِم!

– أوه يا لك من صعب! من تظنني؟

تلفَّتَ أليوشا حواليه، واتسعت عيناه وقال هامسًا: لكن أستحلفك ألا تقول لماما ... وعمومًا لا تقل لأحد لأنه سر. لو عرفَت ماما — لا قدر الله — فسيحل العقاب بي وبسونيا وببيلاجيا ... حسنًا، اسمع. أنا وسونيا نقابل بابا كل ثلاثاء وجمعة، عندما تصحبنا بيلاجيا للتنزُّه قبل الغداء، نذهب إلى محل حلوى «أبفل»، وهناك يكون بابا في انتظارنا ... وهو دائمًا يجلس في غرفة مُستقِلَّة، أتدري؟ تلك الغرفة التي بها طاولة مرمرية وطفاية على شكل إوزة بدون ظهر.

– وماذا تفعلون هناك؟

– لا شيء! في البداية نتبادل التحية، ثم نجلس جميعًا إلى الطاولة ويضيِّفنا بابا قهوة وشطائر. أتدري؟ سونيا تأكل الشطائر باللحم، أما أنا فلا أطيق شطائر اللحم! أنا أحب الشطائر بالكرنب والبيض، ونأكل حتى الشبع، إلى درجة أننا فيما بعد، في أثناء الغداء، نحاول أن نأكل أكثر حتى لا تلاحظ ماما أننا سبق أن أكَلْنا.

– وعمَّ تتحدثون هناك؟

– مع بابا؟ عن كل شيء. وهو يُقبِّلنا ويُعانقُنا، ويروي لنا مختلف النكات والحوادث المضحكة. أتدري، إنه يقول إننا عندما نكبر سوف يأخذُنا إليه، وسونيا لا تريد، أما أنا فموافِق. بالطبع سأشتاق إلى ماما، ولكني سأكتب لها رسائل! شيء غريب ... سيكون

بإمكاني أن أزورها في الأعياد، أليس كذلك؟ ويقول بابا أيضًا إنه سيشتري لي حصانًا. شخص طيب جدًّا! أنا لا أدري لماذا لا تدعوه ماما للعيش معنا وتُحرِّم علينا مقابلته؛ إنه يحب ماما جدًّا، ودائمًا يسألنا عن صِحَّتها وعمَّا تفعله. وعندما كانت مريضة أمسك رأسه بيديه هكذا و... أخذ يهرول ... ودائمًا يطلب منا أن نُطيعها ونحترمها. اسمع، هل صحيح أننا تُعساء؟

– هِم ... ولماذا؟

– بابا يقول هذا: أنتم أطفال تعساء. غريب أن تسمع منه هذا الكلام! يقول: أنتم تعساء، وأنا تعيس، وماما تعيسة، صلُّوا لله من أجْلِكم. ومن أجْلِها.

وتوقَّفَت نظرة أليوشا على طائر مُحنَّط واستغرق في التفكير.

وقال بلیایف بصوت كالخوار:

– هكذا ... إذن فأنتم تَعقدُون المؤتمرات في مُحلَّات الحلوى. وماما لا تعرف؟

– لا ... ومن أين تعرف؟! بيلاجيا لا يمكن أن تقول لها. وأول أمس ضيَّفنا بابا كمثرى. حلوة كالمربى! أنا أكلتُ اثنين.

– هم ... وهذا ... اسمع، وبابا لا يقول عني شيئًا؟

– عنك؟ ماذا أقول لك؟

حدَّق أليوشا في وجه بلیایف متفحصًا ثم هزَّ كتفيه: لا يقول شيئًا ذا بال.

– وتقريبًا، ماذا يقول؟

– ألن تغضب؟

– هل هذا معقول؟! أهو يَسبُّني؟

– لا يَسبُّك، ولكن، أتدري ... غاضب عليك. يقول إن ماما تعيسة بسببك، وإنك ... قضيتَ عليها. إنه كما تعلم غريب! إنني أحاول أن أُفهمه أنك طيب، ولا تصرخ في ماما أبدًا، ولكنه يهز رأسه.

– إذن فهو يقول إنني قضيتُ عليها؟

– نعم، لا تغضب يا نيقولاي إيليتش!

نهض بلیایف، ووقف قليلًا، ثم أخذ يذرع غرفة الجلوس. ودمدم وهو يهز كتفيه ويبتسم بسخرية.

– هذا غريب و... مضحك! هو المذنب في كل شيء ومع ذلك فأنا الذي قضيت عليها، هه؟ انظروا، يا له من حمل وديع. إذن فقد قال لك إنني قضيت على أمك؟

– نعم، ولكن ... لقد قلت إنك لن تغضب!

– أنا لست غاضبًا و... وليس هذا شأنك! لا، هذا ... إن هذا مضحك! أنا الذي وقعت في مطب، ثم إذا بي أنا المذنب!

ودق جرس الباب. فوثب الصبي من مكانه وانطلق خارجًا. وبعد دقيقة دخلت غرفة الجلوس سيدة ومعها طفلة صغيرة ... كانت تلك أولجا إيفانوفنا، والدة أليوشا. وتبعها أليوشا وهو يقفز ويغني بصوت عالٍ ويهز ذراعيه. وأومأ بلیایف برأسه محييًا، ثم واصل سيره في الغرفة.

ودمدم وهو يزفر: طبعًا، مَن غيري الآن يمكن توجيه الاتهام إليه؟ إنه محق! إنه زوج مهان!

فسألَت أولجا إيفانوفنا: عمَّ تتحدث؟

– عمَّ؟ إذن فلتسمعي المواعظ التي يلقيها زوجك الموقر! لقد ظهر أنني وغد شرير، قضيت عليك وعلى الأولاد. كلكم تعساء، وأنا السعيد الوحيد! سعيد إلى درجة فظيعة، فظيعة!

– أنا لا أفهم يا نيقولاي عمَّ تتحدث!

فقال بلیایف مشيرًا إلى أليوشا: فلتسمعي إذن هذا السنيور الصغير!

احمرَّ أليوشا، ثم امتقع فجأة، وتقلص وجهه كله من الفزع. وهمس بصوت عالٍ: نيقولاي إيليش! هس!

ونظرَت أولجا أيفانوفنا بدهشة إلى أليوشا، ثم إلى بلیایف، ثم إلى أليوشا مرة أخرى.

واستطرد بلیایف يقول: هيَّا اسأليه! خادمتُك بيلاجيا، هذه الحمقاء، تتردَّد على محلات الحلوى وتُرتِّب اللقاءات هناك مع الوالد المحترم. ولكن ليست هذه القضية، القضية هي أن الوالد المحترَم ضحية، أما أنا فشرِّير، سافِل، حطَّمتُ حياتكم.

فتأوه أليوشا: نيقولاي إيليتش! لقد أعطيتني كلمة شرف!

فأشاح بلیایف بيده: إيه، دعني! الأمر الآن أهم من أي كلمات شرف. ما يثير سخطي هو الرياء، والكذب!

فقالت أولجا أيفانوفنا، وقد ترقرقت الدموع في عينيها: أنا لا أفهم!

وخاطبَت ابنها: اسمع يا لولكا، هل تقابل أباك؟

بيد أن أليوشا لم يكن يصغي إليها، بل كان يُحدِّق في بلیایف بارتياع وقالت الأم: مستحيل، سأذهب إلى بيلاجيا وأستجوبها.

وخرجت أولجا إيفانوفنا.

فقال أليوشا وبدنه كله يرتجف: اسمع، ألم تعطني كلمة شرف؟

فأشاح بلبايف نحوه بيده ومضى يذرع الغرفة. كان مستغرقًا في غضبه ولم يَعُد يلاحظ وجود الصبي كما في السابق. لقد كان — وهو الرجل الجادُّ الكبير — في شغل عن الصبي. أما أليوشا فقد انزوى في الركن، وأخذ يروي لسونيا بارتياع كيف خدع. كان يرتجف ويتلجلج، ويبكي ... كانت تلك أول مرة في حياته يصطدم بالكذب وجهًا لوجه، وبهذه الفظاظة. لم يكن يعرف من قبل أنه يُوجَد في هذه الدنيا، بالإضافة إلى الكمثرى الحلوة والشطائر والساعات الثمينة؛ كثير من الأشياء الأخرى التي لا أسماء لها في لغة الأطفال.

الأعداء

في حوالي الساعة العاشرة من مساء مظلم في شهر سبتمبر تُوفِّيَ بالدفتيريا الابن الوحيد لدى الطبيب الريفي الدكتور كيرلوف، الطفل أندريه ذو الأعوام الستة. وعندما جثَت زوجة الدكتور على ركبتيها أمام سرير الصبي المَيِّت وقد دهمَتها أول نوبة يأس، دوَّى في المدخل بحدة رنين الجرس.

كان الخدَم جميعًا قد صرفوا منذ الصباح بسبب الدفتيريا. فذهب كيرلوف ليفتح الباب بنفسه، كما هو، بدون سترة، في صديري مفكوك الأزرار، ودون أن يمسح وجهه المبلل ويديه المبلَّلتَين اللتين كَواهما حامض الكربوليك. كان المدخل مُظلمًا فلم يُميِّز في الشخص القادم سوى قامة متوسطة وملحفة بيضاء، ووجه كبير بالِغ الشحوب إلى درجة بدَا معها أن المدخل أضاء قليلًا بظهوره.

وسأل القادِم بسرعة:

– الدكتور موجود؟

فأجاب كيريلوف: أنا موجود. ماذا تريدون؟

– آه، أهو أنت؟ سعيد جدًّا! قال القادم بفرح وأخذ يبحث في الظلام عن يد الدكتور حتى وجَدَها فضغط عليها بقوة بين كفيه ... سعيد جدًّا ... جدًّا! إننا معارف! أنا أبوجين ... تشرَّفتُ برؤيتكم صيفًا عند آل جنوتشيف. سعيد جدًّا إذ وجدتُك ... أتوسَّل إليك أن تأتي معي الآن ... زوجتي في حالة خطيرة ... معي عربة.

بدا واضحًا من صوت القادم وحركاته أنه كان في حالة انفعال شديدة. كان يتكلم بسرعة وبصوت مرتَعِش وهو لا يكاد يقوى على كتم لهاثة، وكأنما أفزعه حريق أو كلب مسعور، ولاحت في حديثه نبرة جبن غير مفتعلة. وككل المذعورِين والمذهولِين كان يتكلم بجمل قصيرة حادة ويتفوه بكلمات زائدة كثيرة لا دخل لها إطلاقًا بالموضوع.

ومضى يقول:

– خشيت ألا أجدك ... تعذَّبتُ كثيرًا وأنا في الطريق إليك ... أرجوك البس ثيابك وهيا بنا ... حدث ذلك هكذا: جاءني بابتشينسكي، ألكسندر سيميونوفوفتش، أنت تعرفه ... وتحدَّثْنَا ... ثم جلسنا نشرب الشاي. وفجأة صرخَت زوجتي، وأمسكَت بقلبها وسقطَت على ظهر الكرسي. وحملناها إلى الفراش و... دلكت صدغيها بالنشادر، ورششتها بالماء ولكنها ترقد كالميتة ... أخشى أن يكون ذلك أنورسما[١] ... هيا بنا ... لقد مات والدها بالأنورسما.

كان كيريلوف يصغي صامتًا، وبدا وكأنه لا يفهم الروسية. وعندما ذكر أبوجين مرة أخرى بابتشينسكي ووالد زوجته، وراح من جديد يبحث في الظلام عن يد الدكتور، هز هذا رأسه وقال بتبلُّد وهو يمط كل كلمة: عفوًا، أنا لا أستطيع أن أذهب ... منذ خمس دقائق ... مات ابني.

فهمس أبوجين وهو يتراجع خطوة: كيف؟ يا إلهي، في أي ساعة مشئومة جئت! يا له من يوم منحوس ... منحوس بصورة غريبة! ما هذا التوافُق ... كأنما عن عمد!

أمسك أبوجين بمقبض الباب وطأطأ رأسه متفكرًا. ويبدو أنه كان مترددًا ولا يدري ما يفعل؟ هل ينصرف، أم يواصل الإلحاح على الدكتور؟

ثم قال بحرارة وهو يشد كيريلوف من ذراعه: اسمع، إنني أفهم حالتك تمامًا! ويشهد الله كم أخجل وأنا أسعى في هذه اللحظة إلى الاستحواذ على اهتمامك، ولكن ماذا أفعل؟ احكم بنفسك إلى من أستطيع أن أتوجه؟ ليس هنا طبيب غيرك ... أتوسل إليك أن تأتي معي! أنا لا أطلب شيئًا لنفسي ... لست أنا المريض!

وساد الصمت. استدار كيريلوف مُولِّيًا ظهره إلى أبوجين، ووقف قليلًا ثم خرج ببطء من المدخل إلى الصالة. وبدَا من مشيته الآلية غير الواثقة، ومن الاهتمام الذي سوَّى به الأباجورة الكثة على المصباح المنطفئ في الصالة والذي قَلَّب به صفحات كتاب سميك مُلقًى على الطاولة، أنه لم يكن لديه في هذه اللحظة أي نوايا أو رغبات، ولم يكن يفكر في شيء وربما لم يعد يذكر أن هناك شخصًا غريبًا ينتظر في المدخل. ويبدو أن عتمة الصالة وسكونها قد زادَا من ذهوله. وعندما سار من الصالة إلى غرفة مكتبه كان يرفع قدمه

[١] تمدُّد مَرضِي في شرايين القلب. (المُعَرِّب)

اليمنى أعلى مما ينبغي، ويبحث بيديه عن قوائم الأبواب، وفي تلك اللحظة أفصحَت هيئته كلها عن نوع من الحيرة وكأنما دخل شقة غريبة، أو أنه سَكِر بشدة لأول مرة في حياته فاستسلم في حيرة لهذا الإحساس الجديد. وعلى أحد جدران غرفة المكتب، وعبر خِزانات الكتب امتد شريط ضوئي عريض. وكان هذا الضوء قادمًا مع رائحة الكربوليك والأثير الثقيلة الخانقة من الباب الموارب المُفْضِي من المكتب إلى غرفة النوم … وغاص الدكتور في الكرسي أمام الطاولة. ونظر بعينين ناعستين إلى كُتُبه المُضاءة حوالي دقيقة، ثم نهض ومضى إلى غرفة النوم.

وهنا، في غرفة النوم، أطبق سكون الموت. كان كل شيء، بأدق تفصيلاته، يدل بجلاء على العاصفة التي مرَّت منذ قليل، وعلى الإرهاق، ثم خلد كل شيء الآن إلى الراحة. وأضاءت الغرفة بسطوع الشمعة الموضوعة على الكرسي في زحمة القوارير والعُلب والبرطمانات، والمصباح الكبير على الكومودينو. وعلى السرير، بجوار النافذة مباشرة، تمدَّد الصبي بعينين مفتوحتين وتعبير دهشة على وجهه. كان ساكنًا بلا حراك، ولكن بدَا أن عينيه المفتوحتين تُظلمان أكثر مع كل لحظة وتَغوصان داخل الجمجمة. وجثَت أمه على ركبتيها أمام السرير وقد وضعَت يديها على جسده ودفنَت وجهها في طَيَّات الفراش. كانت مثل الصبي ساكنة، ولكن أي حركة حية تجلَّت في ثنايا جسدها وفي ذراعيها! كانت مُلتصِقة بالسرير بكل كيانها، وبقوة ونهم، كأنما كانت تخشى أن تتحرَّك فتُخلَّ بهذا الوضع الساكن المريح الذي وجدته أخيرًا لجسدها المُنهَك. كان كل شيء جامدًا … البطاطين، والخِرق، الطسوت، وبِرك المياه على الأرضية، والفرش والملاعق المتناثرة في كل مكان، وزجاجة المحلول الجيري البيضاء، والهواء نفسه، الخانق الثقيل … وبدَا كل ذلك غارقًا في السكينة.

توقَّف الدكتور بجوار زوجته، ودس يديه في جيبي سرواله وأمال رأسه جانبًا وحدَّق في ابنه. وكان وجهه يعبر عن اللامبالاة، ومن القطرات الدقيقة فحسب التي كانت تلمع في لحيته كان واضحًا أنه بكى منذ قليل. لم يكن في الغرفة ذلك الرعب الذي يراود الذِّهن عند الحديث عن الموت. ففي ذلك الجمود الشامل، وفي وضع الأم، وفي لامبالاة وجه الدكتور كان ثَمَّة شيء جذاب، يأسر القلب، وهو بالذات ذلك الجمال المرهَف الذي لا يكاد يلحظ للمأساة الإنسانية، ذلك الجمال الذي لن يعرف الناس قريبًا كيف يفهمونه ويصفونه، والذي لا يحسن التعبير عنه، فيما يبدو، سوى الموسيقى. وكان هذا الجمال ملموسًا أيضًا في السكون الجهم. وكان كيريلوف وزوجته صامتين، لا يبكيان، كأنما يدركان، إلى جانب وطأة المصاب، كل وجدانية وضعهما؛ فكما انقضى شبابهما في حين ما، يمضي الآن، مع رحيل ولدهما،

إلى الأبد وبلا رجعة حقهما في إنجاب الأطفال! فالدكتور في الرابعة والأربعين، وقد شاب شعره وأصبح أشبه بالعجوز. أما زوجته المُنطفِئة المريضة ففي الخامسة والثلاثين. ولم يكن أندريه ابنهما الوحيد فحسب، بل والأخير أيضًا.

وعلى عكس زوجته كان الدكتور يَنتمِي إلى ذلك الطراز من الشخصيات التي تشعر في حالة الألم النفسي بالحاجة إلى الحركة. فبعد أن وقف بجوار زوجته حوالي خمس دقائق، خرج من غرفة النوم وهو يرفع قدمه اليمنى عاليًا، ودَلَف إلى غرفة صغيرة تشغل نصفها كنبة كبيرة عريضة. ومنها انتقل إلى المطبخ. وتسكع قليلًا بجوار الفرن وفراش الطاهية، ثم انحنى وخرج من باب صغير إلى المدخل.

وهنا رأى ثانية الملحفة البيضاء والوجه الشاحب.

وتنهد أبوجين وهو يمسك بمقبض الباب وقال: أخيرًا! فَلنرحلْ لو سمَحْت!

انتفض الدكتور، ثم تَطلَّع إليه فتذكَّر ... وقال له وهو يستعيد حيويته: اسمع، لقد قلتُ لك إنني لا أستطيع الذهاب! ما أغرب هذا!

فقال أبوجين بصوت ضارع واضعًا يده على صدره: يا دكتور، أنا لستُ بليد الإحساس، وأُقدِّر وضْعَك تمامًا ... كم آسى لك! لكني لا أطلب شيئًا لنفسي ... زوجتي تحتضر! لو أنك سمعتَ تلك الصرخة ورأيتَ وجهها، لأدركتَ سبب إلحاحي! يا إلهي، لقد ظننتُ أنك ذهبتَ لترتدي ثيابك! الوقت ضيق يا دكتور! فلنذهب أرجوك.

فقال كيريلوف ببطء: لا أستطيع أن أذهب!

وخطا نحو الصالة.

ومضى أبوجين في أثره ومسك بكمه.

– لديك فجيعة، أنا أُدرِك ذلك، ولكني لا أدعوك لعلاج أسنان ولا لوضع تقرير فني، بل لإنقاذ حياة بشرية، ومضى يتوسل إليه كالشحاذ ... هذه الحياة فوق أي فجيعة شخصية! حسنًا، إنني أسألك النَّخوة، أسألك بطولة! باسم المحبة الإنسانية!

فقال كيريلوف بعصبية: المحبة الإنسانية سِكِّين ذو حَدَّين. وبِاسم المحبة الإنسانية نفسها أرجوك أن تتركني. حقًّا شيء غريب! أنا لا أكاد أقوى على الوقوف بينما تخوفني بالمحبة الإنسانية! أنا لا أصلح لشيء الآن ... لن أذهب مَهما كان، وكيف أترك زوجتي؟ لمن؟ كلَّا، كلَّا.

ولوح كيريلوف بيديه وعاد أدراجه.

ومضى يقول بفزع: لا ... لا تطلب! اعذرني ... نعم، حسب المجلد الثالث عشر لمجموعة القوانين يتوجَّب عليَّ أن أرحلَ معك، ومن حقك أن تجرجرني من قفاي ... هيا، تَفضَّل جرجِرني، ولكن أنا غير صالح ... لا أقدر حتى على الكلام ... اعذرني.

فقال أبوجين وهو يمسك الدكتور من كمه ثانية: لا داعي لأن تتحدث معي بهذه اللهجة يا دكتور. دَعْنَا من هذا المجلد الثالث عشر! ليس من حقي أبدًا أن أُجبِرَك على شيء. إذا شئتَ أن ترحل فلترحل، وإذا لم تشأ سامحك الله. لكني لا أخاطب إرادتك بل أخاطب مشاعرك. هناك امرأة شابة تحتضر! لقد قلتَ إن ابنك مات الآن، فمن غيرك يستطيع أن يفهم بلواي؟

كان صوت أبوجين يرتعش من الانفعال. وكان في هذه الرعشة وفي نبرة الصوت من قوة الإقناع أكثر مما في كلماته. كان أبوجين صادقًا، ولكن اللافت للانتباه أنه مَهما قال من عبارات، فقد كانت كلها تبدو جوفاء، بلا نبض، أو زاهية بصورة لا تليق وكأنما تهين جَوَّ شقَّة الدكتور والمرأة المحتضَرَة بعيدًا. وحتى هو أحس بذلك؛ ولهذا فقد حاول بكل قواه، خشية ألا يُفهم، أن يضفي على صوته نعومة ورِقَّة كي يُؤثِّر في الطبيب إن لم يكن بالكلمات، فبصدق النَّبرة على الأقل. وعمومًا فالكلمات مَهما كانت جميلة وعميقة فإنها لا تؤثر إلَّا في ذوي النفوس اللامبالية ولا تستطيع دائمًا أن ترضي السعداء أو التعساء. ويبدو أن أسمى تعبير عن السعادة أو التَّعاسة هو في أغلب الأحوال الصمت؛ فالعشاق يفهمون بعضهم بعضًا عندما يصمتون، أما الخُطبة الحارة المشبوبة المُلقاة على القبر فلا تُؤثِّر إلا في الغرباء، بينما تبدو لأرملة المتوفى وأولاده باردة تافهة.

وقف كيريلوف صامتًا. وعندما تَفَوَّه أبوجين ببضع عبارات أخرى عن رسالة الطبيب السامية، وعن التضحية بالنفس وما إلى ذلك، سأله الطبيب عابسًا: هل المسافة بعيدة؟

– حوالي ٣١–٤١ فرسخًا. خيولي ممتازة يا دكتور! أعدك بشرفي أن أحملك إلى هناك وأعود بك في ساعة واحدة. ساعة واحدة فقط!

أثَّرَت الكلمات الأخيرة على الدكتور بأقوى من الاستشهاد بمحبة البشر ورسالة الطبيب. ففكر قليلًا ثم قال متنهدًا: حسنًا، لنذهب!

ومضى نحو مكتبه بسرعة، بخطوات أصبحت واثقة، ثم عاد بعد قليل في سترة طويلة. وساعده أبوجين المسرور وهو يدور حوله ويحك الأرض بقدميه على ارتداء المعطف وخرج معه من البيت.

كان الجو في الخارج مظلمًا وإن كان أخف ظلمة من المدخل. وبدت في الظلام بوضوح قامة الدكتور الطويلة المحنية بلحيته الطويلة الضيقة وأنفه المعقوف. أما أبوجين، فقد

أصبح ظاهرًا منه الآن، بخلاف شحوبه؛ رأسه الكبير وعليه طاقية طلابية صغيرة لا تكاد تغطي يافوخه. وكانت المِلحَفة تلوح من الأمام فقط، أما من الخلف فقد اختفَت خلف شعره المرسَل.

ودمدم أبوجين وهو يساعد الدكتور على ركوب العربة: ثِق يا دكتور أنني سأعرف كيف أقدر شهامتك. سنصل بسرعة. هيا يا لوقا، يا عزيزي، انطلق بأسرع ما يمكن! أرجوك!

وساق الحوذي العربة بسرعة. ساروا في البداية بحذاء صف من المباني البائسة على امتداد فناء المستشفى، وساد الظلام إلا في عمق الفناء؛ حيث انبعث ضوء ساطع في إحدى النوافذ عبر الحديقة، ولاحت ثلاث نوافذ في الطابق الأعلى من مبنى المستشفى أكثر شحوبًا من الجو. ثم دلفت العربة في ظلام كثيف، وفاحت رائحة رطوبة فطرية وتناهى همس الأشجار. وجفلت الغربان النائمة وسط أوراق الشجرة وقد أيقظها ضجيج العجلات وأطلقت نعيقًا شاكيًا قلقًا، كأنما كانت تعلم أن الدكتور قد مات ابنه وأن أبوجين زوجته مريضة. ثم ومضت أشجار متفرقة ثم حرش، وتلألأت بركة جهمة ارتمت فوقها ظلال طويلة سوداء، وانسابت العربة في سهل منبسط. وتناهى نعيق الغربان مكتومًا بعيدًا من ورائهم، ثم سرعان ما تلاشى تمامًا.

ظل كيريلوف وأبوجين صامِتَين طوال الوقت. مرة واحدة تنهَّد أبوجين بعمق وتمتم: يا لَه من عذاب! إنك لا تحب أقرباءك إلى هذه الدرجة إلا عندما تواجه بخطر فقدانهم.

وعندما عَبَرَت العربة النهر بهدوء، انتفض كيريلوف كأنما أفزعته طرطشة الماء وتململ بقلق.

ثم قال بأسى: اسمع، اتركْنِي أرجوك. سآتي إليك فيما بعد. أريد فقط أن أرسل الممرض إلى زوجتي إنها وحدها!

لزم أبوجين الصمت. ومرَّت العربة فوق الشاطئ الرملي وهي تهتز وتصطك بالأحجار، ثم واصلت سيرها. واستبدت الوحشة بكيريلوف فنظر حوله بقلق. على ضوء النجوم الشحيح لاح من خلفهم الطريق وصفصاف الشاطئ المتلاشي في الظلام. وإلى اليمين ترامى سهل منبسط بلا حدود كالسماء أيضًا. وفي أطرافه البعيدة تناثَرت أضواء كابية هنا وهناك ربما من غازات مستنقعات تحترق. وإلى اليسار، بحذاء الطريق، امتدَّ تل مدغل بالأحراش الخفيفة، وفوق التل انتصب بلا حراك هلال كبير أحمر، تلفُّه غلالة ضبابية رقيقة، وتحيط به سحب صغيرة، بدت كأنها ترقبه من جميع الجهات وتحرسه كي لا يغيب.

ولاح في الطبيعة كلها شيء ما ميئوس منه ومريض وكابدت الأرض، مثل امرأة ساقطة تجلس وحدها في غرفة مظلمة وتحاول ألا تفكر في الماضي، كابدت ضنى ذكريات الربيع والصيف، وأخذَت تنتظر في فُتور وتبَلُّد مجيء الشتاء المحَتَّم. وحيثما جال البصر تبدَّت الطبيعة حفرة مُظلِمة سحيقة الأغوار وباردة، حفرة لن يستطيع الخروج منها لا كيريلوف، ولا أبوجين، ولا الهلال الأحمر.

وكلما اقتربت العربة من الهدف ازداد فروغ صبر أبوجين. كان يتململ، ويقفز واقفًا، وينظر إلى الأمام من فوق كتفي الحوذي. وحينما توقفت العربة أخيرًا عند سلم المدخل المغطى بكسوة مخططة جميلة، وعندما نظر إلى النوافذ المضاءة في الطابق الثاني، أصبح مسموعًا اضطراب أنفاسه. وقال وهو يدخل مع الدكتور إلى الردهة ويفرك راحتيه بانفعال: لو حدث لها شيء ف ... لن أحتمل. ثم أضاف وهو يصيخ السمع إلى السكون: ولكني لا أسمع جلبة، إذن فالأمور على ما يرام حتى الآن.

لم تسمع في الردهة أصوات أو وقع أقدام، وبدَا البيت كله نائمًا رغم الأنوار الساطعة. وأصبح الآن في وسع الدكتور وأبوجين، اللذين لم يرَيَا بعضهما البعض إلا في الظلام، أن يتأمل كل منهما الآخر. كان الدكتور طويلًا، محني القامة، مهمَل الثياب، ولم يكن جميل الوجه، وكانت شفتاه الغليظتان كشفاه الزنوج، وأنفه المعقوف، ونظرته الذابلة اللا مبالية تعبر عن شيء حاد منفر وقاسٍ.

وكان رأسه المشعث، بصدغيه الغائرين، والشيب المبكر في لحيته الطويلة الضيقة، التي كان ذقنه يلوح من بين شعرها، ولون بشرته الرمادي الشاحب، وحركاته الخرقاء الحادة ... كان كل ذلك يبعث بغلاظته على الاعتقاد بأنه عانى من الفاقة والبؤس، وأرهقته الحياة والناس. ولم يكن من الممكن أن تصدق، عندما تنظر إلى قامته الجافة، أن لدى رجل كهذا زوجة، وأنه يمكن أن يبكي على ابنه المتوفى. أما أبوجين فكان شيئًا آخر. كان رجلًا متين الجسم، رصينًا، أشقر، كبير الرأس، وكانت تقاطيع وجهه ضخمة ولكنها ناعمة، ولباسه أنيقًا حسب آخر موضة. ولاح في قامته، وفي سترته المزررة المحبوكة، وفي عرفة المسدل، وفي وجهه، شيء ما نبيل كما في الأسود. وكان يسير منتصب الرأس، منفوخ الصدر، ويتحدث بنغمة «باريتون» لطيفة، وتجلت في الطريقة التي نزع بها ملحفته وسوَّى بها شعر رأسه رشاقة مرهفة، نسائية تقريبًا. وحتى شحوبه، والذعر الطفولي الذي كان يتطلع به إلى أعلى الدرج وهو يخلع ملابسه الثقيلة، لم يفسدا هيئته، ولم ينتقصا من الشبع والصحة والثقة التي كان جسمه يطفح بها.

وقال وهو يصعد الدرج: ليس هناك أحد ولا أسمع شيئًا. ليس هناك جلبة. استر يا رب!

وقاد الدكتور من الردهة إلى صالة كبيرة لاح فيها معزف أسود وتدلت من سقفها نجفة ملفوفة في كيس أبيض. ومن هنا دَلَفا معًا إلى غرفة جلوس صغيرة ولكنها مريحة جدًّا وجميلة ومعبأة بعتمة وردية لطيفة.

وقال أبوجين: اجلس هنا يا دكتور ... سأعود حالًا. سأذهب لأنظر وأنبههم.

وبقيَ كيريلوف وحده. ويبدو أن فخامة غرفة الجلوس والعتمة المريحة، ووجوده هو نفسه في بيت غريب وغير معروف، هذا الوجود الذي كان أشبه بمغامرة، كل ذلك لم يحرك فيه شيئًا. جلس في المقعد وأخذ يتأمل يديه اللتين كواهما حامض الكربوليك. ولمح أباجورة قانية الحمرة، وصندوق فيولنشيلو، ونظر بطرف عينه إلى الجهة التي كانت تصدر منها تكتكة ساعة فلاحظ ذئبًا مُحنَّطًا، وكان مهيبًا وشبعان مثل أبوجين نفسه.

ساد الهدوء ... وفي مكان ما في الغرفة المجاورة صاح أحدهم بصوت عالٍ: «آه»، ورن باب زجاجي، وربما باب صوان، ثم هدأ كل شيء. وانتظر كيريلوف حوالي خمس دقائق، ثم كفَّ عن تأمل يديه، ورفع عينيه إلى الباب الذي اختفى أبوجين خلفه.

عند عتبة ذلك الباب وقف أبوجين، ولكنه كان أبوجين آخر. اختفت من وجهه دلائل الشبع والرشاقة المرهفة، وشوه وجهه ويديه ووقفته تعبير بشع لا يعرف إن كان من الرعب، أم من الألم البدني المضني. كان أنفه وشفتاه وشواربه وكل ملامحه تتحرك، وبدا كأنها تريد أن تنفصل عن وجهه، أما عيناه فكأنما كانتا تضحكان ألمًا.

وتقدم أبوجين بخطوات ثقيلة واسعة إلى وسط الغرفة، وانحنى وتأوه وهز قبضتيه: خدَعَتْني! صاح مشددًا على آخر الكلمة: خدعتني! هَرَبَتْ! ادَّعت المرض وأرسلتني في طلب الدكتور فقط؛ لكي تهرب مع هذا المهرج بابتشينسكي! يا إلهي!

اقترب أبوجين من الدكتور بخطوات ثقيلة، ومدَّ نحو وجهه قبضتيه البيضاوين الطريتين وهو يهزهما، ومضى يقول: هربت! خدعتني! فما الداعي لهذا الكذب؟ يا إلهي! يا إلهي! ما الداعي لهذا التحايل القذر، لهذه التمثيلية الشيطانية الأفعوانية؟ ماذا فعلت لها؟ هربت!

وطفرت الدموع من عينيه. ودار على قدم واحدة، ومضى يذرع الغرفة. أصبح الآن بسترته القصيرة، وسرواله العصري الضيق الذي بدت فيه ساقاه نحيلتين بما لا يتفق مع جسمه، وبرأسه الكبير وعرفه، أصبح شبيهًا بالأسد إلى حد كبير. وأشرق وجه الدكتور اللا مبالي بفضول. فنهض وطاف على أبوجين بعينيه وسأله: عفوًا، ولكن أين المريضة؟

– المريضة! المريضة! صرخ وهو يضحك ويبكي ويواصل هز قبضتيه: هذه ليست مريضة بل ملعونة! ياللدناءة! ياللوضاعة! الشيطان نفسه لا يمكن أن يهتدي إلى شيء أحط من ذلك! أبعدتني لكي تهرب، تهرب مع مهرج، مع بهلوان بليد، مع عاهر! يا إلهي، كان أفضل لو ماتت! لن أحتمل! أنا لن أحتمل!

شد الدكتور قامته. وطرفت عيناه وامتلأتا بالدموع، وتحركت لحيته الضيقة يمينًا ويسارًا، مع فكه.

وسأل وهو يلتفت حوله بفضول: عفوًا، كيف هذا؟ ابني مات، وزوجتي تعاني الفجيعة، وحيدة في البيت ... وأنا لا أكاد أقوى على الوقوف، لم أنم ثلاث ليالٍ ... ثم ماذا؟ يضطرونني إلى اللعب في كوميديا مبتذلة، لعب دور الديكور! أنا ... أنا لا أفهم!

بسط أبوجين إحدى قبضتيه، وقذف على الأرض برسالة مجعدة وداس عليها بقدميه كما يداس على حشرة بُغية سَحْقِها. وقال من بين أسنانه المُطبقة وهو يهز إحدى قبضتيه أمام وجهه، وبتعبير شخص داس أحدُهم على إصبع قدمه المريضة: وأنا لم أرَ شيئًا ... لم أفهم! لم ألاحظ أنه يزورنا كل يوم. لم ألاحظ أنه جاء اليوم في عربة! لماذا جاء في عَربة؟ لم أفْطِن، يا لي من زكيبة!

ودمدم الدكتور: لا أفهم ... ما معنى هذا؟ هذه سخرية بالناس، امتهان للعذاب الإنساني! هذا شيء لا يعقل ... أول مرة في حياتي أرى هذا!

هز الدكتور كتفيه وأشاح بيديه بدهشة مُتبلِّدة لإنسان بدأ يفهم لِتوِّه فقط أنه أهين إهانة بَالِغة، وهو لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل، فتهالَك على المقعد بإعياء.

ومضى أبوجين يقول بصوت باكٍ: لِنفرِض أنكِ لم تَعُودي تُحبِّينني وأحببتِ شخصًا آخر، لك الله، ولكن ما الداعي للخداع؟ ما الداعي لهذه الحيلة الدنيئة الغادرة؟ ما الداعي؟ وعلامَ؟ ماذا فعلتُ لك؟ اسمع يا دكتور، قال بحرارة وهو يقترِب من كيريلوف: لقد كنتَ بالصدفة شاهدًا على بلواي. ولن أخفي عنك الحقيقة أقسم لك أنني أحببتُ هذه المرأة، أحببتُها بخنوع كالعبد. من أَجْلها ضحَّيْت بكل شيء: تخاصمتُ مع أهلي، هجرتُ الوظيفة والموسيقى، وغفرتُ لها ما لم أكن أستطيع أن أغفره حتى لأمي أو أختي ... لم أنظر إليها أبدًا نظرة شزرة ... لم يبدُر عني أي مبرر، فلماذا هذا الكذب؟ أنا لا أطالِبُها بالحُب. ولكن ما الداعي لهذا الخداع المُقرِف؟ إذا كنتِ لا تُحبِّين فلتقولي ذلك مباشرة، بشرف، خاصة أنت تعرفين نظرتي إلى هذه الأمور.

كان أبوجين يفضي بما في قلبه للدكتور بصدق، والدموع تملأ عينيه، وجسده كله يرتعش. كان يتكلَّم بحرارة ضامًّا كِلتا يديه إلى قَلبِه، ويُفشي كل أسراره العائلية دون أدنى

تردُّد، بل بدَا وكأنه سعيد بأن هذه الأسرار قد انطلقَت أخيرًا لتخرج من صدره. ولو أنه تكلَّم هكذا ساعة أو ساعتين، ولو أنه فَضفَض عن نفسه لأحسَّ قطعًا بارتياح. ومن يدري، فلو أن الدكتور أصغى إليه، وواساه بِمودَّة فربما، وكما يحدث كثيرًا، أَذعَن لبلواه دون تَذمُّر، ودون أن يرتكِب حماقات لا داعي لها ... ولكن الأمور سارَتْ بشكل آخر. فبينما كان أبوجين يَتكلَّم تَغيَّر الدكتور المهان تغيُّرًا ملحوظًا. تراجعَت اللامبالاة والدَّهشة من على وجهه شيئًا فشيئًا لِيحل مَحلَّها تعبير الإهانة المُرَّة والسخط والغضب. أصبحَت ملامحه أكثر حِدَّة وخشونة ونفورًا. وعندما قَرَّب أبوجين من عينيه صورة امرأة شابة بوجه جميل، ولكنه جافٌّ غير مُعبِّر كوجه الراهبة، وسأله: هل تستطيع بالنظر إلى هذا الوجه أن تَتصوَّر أنه يمكن أن يُعبِّر عن الكذب؟ قفز الدكتور فجأة، ولمعَت عيناه، وقال وهو يضغط على كل كلمة بخشونة: لماذا تقول لي كل هذا؟ أنا لا أرغب في سماعه! لا أرغب!

صرَخ وهو يدق الطاولة بقبضته: لستُ بحاجة إلى أسرارك المبتذَلة، عليها اللعنة! إياك أن تقول لي هذه الأشياء الوضيعة! أم أنك تظن أنني لم أُهَن بما فيه الكفاية؟ أنني خادم يمكن إهانته بلا نهاية؟ نعم!

تراجَع أبوجين مُبتعدًا عن كيريلوف وهو يُحدِّق فيه بذهول. ومضى الدكتور يقول ولحيته تهتز: لماذا جئتَ بي إلى هنا؟ إذا كُنتم من الشبع تتزوجون، ومن الشبع تركبكم الشياطين فتختلقون الميلودرامات، فما دَخْلِي أنا؟ ما لي أنا بقصصكم الغرامية؟ دعوني وشأني! تَمرَّنوا على المشاجرات النبيلة، تَصوَّروا أنكم أصحاب أفكار إنسانية، اعزفوا (ونظر الدكتور إلى صندوق الفيولنشيلو) اعزفوا على الكونترباص، وعلى البوق، اسمنوا كالديوك المعلوفة، لكن إياكم والسخرية بكرامة الناس! إذا لم يكن في وسعكم أن تحترموها فاعفوها على الأقل من اهتمامكم!

فسأل أبوجين وهو يَتضرَّج: اسمح لي، ما معنى هذا؟

– معناه أنه من الحقارة والانحطاط أن تهزءوا بالناس إلى هذه الدرجة! إنني طبيب، وأنتم تعتبرون الأطباء والعمال عمومًا، الذين لا ينبعث منهم روائح العطور والدعارة، تَعتبرونهم خدمًا لكم وقَلِيلي الذوق، حسنًا، فلتعتبروهم كما تشاءون، لكن أحدًا لم يعطكم الحق في أن تجعلوا من شخص يعاني قطعة ديكور!

– كيف تجرؤ على أن تقول لي هذا؟ سأل أبوجين بصوت خافِت واحمرَّ وجهه ثانية من الغضب في هذه المرة.

– بل كيف جرؤتَ أنتَ على المجيء بي إلى هنا، لأسمع هذه الأشياء الوضيعة، وأنت تعلم مدى فجيعتي؟ صرخ الدكتور ودَق الطاولة بقبضته ثانية: من الذي أعطاك الحق في السخرية بآلام الآخرين إلى هذا الحد؟

فصرخ أبوجين: أنتَ جُنِنت! ليس هذا كرم أخلاق! أنا نفسي تعيس جدًّا و... و.

فضحك الدكتور ضحكة احتقار قصيرة وقال: تعيس ... دع هذه الكلمة فهي لا تخصك. فالعاطِلون الذين لا يجدون ما يسددون به كمبيالاتهم يعتبرون أنفسهم أيضًا تعساء. والديك المعلوف الذي يخنقه الدهن، أيضًا تعيس. يا للنفوس الحقيرة!

فصرخ أبوجين محتدًّا: قف عند حدِّك يا سيد! مثل هذه الكلمات تستوجب ... الضرب! فاهم؟

ودس أبوجين يده في جيبه بسرعة وأخرج منه محفظته، واستل منها ورقتين ماليتين وألقى بهما إلى المائدة.

وقال ومنخاراه يرتعشان: خُذ، هذه أتعابك!

فصاح الدكتور وهو يكنس النقود بيده من فوق الطاولة إلى الأرض: إياك أن تعرض عليَّ نقودًا! الإهانة لا يدفع ثمنها نقودًا!

وقف أبوجين والدكتور وجهًا لوجه، وأخَذَا في سَورة الغضب يكيلان بعضهما لبعض الإهانات الباطلة. ويبدو أنهما لم يَتفوَّها في حياتهما أبدًا، ولا حتى في الهذيان، بمثل هذه الكلمات الظالمة القاسية والخرقاء. لقد تَكشَّفَت في كل منهما بقوة أنانية التُّعساء؛ فالتُّعساء أنانِيُّون، شِرِّيرون، ظالمون، قُساة، وأقل من الحمقى قدرة على فَهْم بعضهم بعضًا. التَّعاسة لا تجمع بين الناس بل تُفرِّقهم، وحتى في تلك الأحوال التي قد يخيل لك فيها أن تَشابُه البلوى ينبغي أن يربط بين الناس، يُرتَكَب من المظالم والشرور أكثر بكثير مما في أوساط الهانئين نسبيًّا.

وصاح الدكتور وهو يختنق: لِتأمر بتوصيلي إلى البيت!

فقرع أبوجين الجرس بِحدَّة. وعندما لم يأتِ أحد تلبية لطلبه قرع الجرس ثانية ثم ألقى به على الأرض في غضب. وارتطم الجرس بالبساط بصوت مكتوم وصدر عنه أنين شاكٍ كأنما لفظ آخر أنفاسه ... وجاء الخادم.

فانفجر فيه أبوجين وهو يشد قبضتيه: أين اختفيتم أيها الملاعين؟ أين كنتَ الآن؟ امشِ من هنا وقُل لهم أن يعدُّوا العربة لهذا السيد، ويعدُّوا لي الحنطور!

وصاح عندما استدار الخادم لينصرف: انتظر! إياك أن يبقى إلى الغد أي واحد من الخونة في البيت! كلكم مَطرودون! سأستأجر غيركم أيها الأوغاد!

لزم أبوجين والدكتور الصَّمت في انتظار العربات. وعادت إلى الأول مظاهر الشبع والرشاقة الرهيفة. وأخذ يذرع غرفة الجلوس وهو يهز رأسه برشاقة، ويُدبِّر — فيما يبدو — أمرًا ما. لم تخمد سَورة غضبه بعد، ولكنه حاول أن يبدو كأنه لا يلاحظ عدوه … أما الدكتور فكان واقفًا، مُرتكزًا بإحدى يديه على حافَّة الطاولة وهو ينظر إلى أبوجين بذلك الاحتقار العميق الوقح بعض الشيء والقبيح، الذي لا ينظر به سوى الفاجعة والبؤس عندما يريان أمامهما الشبع والرفاهية.

وفيما بَعْد، عندما استقل الدكتور العربة ورحل، ظلَّت عيناه تنظران بنفس الاحتقار. كان الجو مُظلِمًا، أشد ظلامًا بكثير مما كان منذ ساعة. واختفى الهلال الأحمر خلف تل، وانتشرتِ السحب التي كانت تحرسه واستقرَّت بجوار النجوم بُقعًا داكنة. ودقَّ الحنطور ذو الفوانيس الحمراء بعجلاته على الطريق ولحق بالدكتور وسبقه. كان يركبه أبوجين الذي رحل ليحتج ويرتكِب حماقات ما.

وظل الدكتور طوال الطريق يُفكِّر لا في زوجته ولا في ابنه أندريه، بل في أبوجين وسُكَّان البيت الذي تركه منذ قليل. وكانَت أفكاره ظالمة وقاسية بصورة لا إنسانية. كان في تفكيره يدين أبوجين وزوجته وبابتشينسكي وكل من يعيشون في العتمة الوردية ويَتضوَّعون عطرًا، وظل طوال الوقت يَمقتهم ويحتقرهم إلى حد الألم في القلب. واستقر في ذهنه اعتقاد راسخ حول هؤلاء الأشخاص.

وسوف يمر الزمن، وسوف تمر فجيعة كيريلوف، بيد أن هذا الاعتقاد الظالم، غير الجدير بالقلوب البشرية لن يزول، وسيبقى في ذهن الدكتور حتى الممات.

مغنية الكورس

ذات مرة، عندما كانت أكثر صِبًا وجمالًا وأقوى صوتًا، جلس عندها في البيت الصيفي في السندرة، عشيقها نيقولاي بتروفتش كولباكوف. كان الجو حارًّا وخانقًا إلى درجة لا تُطاق. وقد فرغ كولباكوف لتوِّه من الغداء ومن شُرْب زجاجة كاملة من الخمر الرديء، وكان مِزاجُه معتلًّا وصحَّتُه مُتوعِّكة. كان كلاهما يضجر وينتظر انحسار الحر حتى يَخرُجا للتَّنزُّه.

وفجأة، وعلى غير انتظار، قرع جرس الباب، فقفز كولباكوف، الذي كان بلا حُلَّة وفي شبشب ونظر إلى «باشا».

فقالت المغنية: ربما كان ساعي البريد، أو إحدى صديقاتي.

لم يكن كولباكوف ليخجل من صديقة «باشا» أو من ساعي البريد، ولكنه — على أي حال — غرف ملابسه تحت إبطه ومضى إلى الغرفة الداخلية، بينما هَرَعت «باشا» لتفتح الباب؛ ولدهشتها الشديدة لم يكن على العتبة لا ساعي البريد ولا صديقتها، بل امرأة لا تعرفها، شابَّة جميلة، ترتدي ملابس مُحترَمة، وتشير كل الدلائل إلى أنها من بيئة راقية. كانت المرأة الغريبة شاحبة، تلهث كأنها ارتقت درجًا عاليًا.

وسألتها «باشا»: أي خِدمة؟

لم تَرُد السيدة فورًا، خَطَت خطوة إلى الأمام، وتَفحَّصَت الغرفة ببطء، ثم جَلسَت مُتهالِكة كأنما لا تستطيع الوقوف من التعب أو المرض. ثم أخذت تُحرِّك شفتيها الشاحِبَين فترة طويلة وهي تحاول أن تلفظ شيئًا ما. وأخيرًا سألَت وقد رَفعَت إلى «باشا» عينَين واسعتَين بجفنَين أحمرَين من البكاء: هل زوجي عندك؟

– أي زوج؟ تَمتمَت «باشا» وفجأة تَملَّكها الرعب إلى درجة تَثلَّجت معها أطرافها: أي زوج؟ كرَّرَت وقد بدأَت ترتعش.

– زوجي ... نيقولاي بتروفتش كولباكوف.

– لا ... لا يا سيدتي ... أنا لا أعرف أي زوج.

ومرَّت دقيقة صَمْت. مسحت المرأة المجهولة شفتَيها الشاحبتَين بمنديلها عِدَّة مَرَّات، ولكي تَتغلَّب على الرَّجفَة الداخلية كتَمَت أنفاسها، أما «باشا» فوقَفت أمامها مُتسمِّرة بلا حراك وهي تَتطلَّع إليها بحيرة وخوف، وسألتِ السيدة بصوت أصبح حازمًا، وابتسمت ابتسامة غريبة: إذن تقولين إنه ليس هنا؟

– أنا ... أنا لا أعرف عَمَّن تسألين.

فدَمدَمَت المرأة المجهولة وهي تُلقي على «باشا» نظرة حِقْد وتَقَزُّز: أنتِ لئيمة، مُنحطَّة، حقيرة ... نعم، نعم ... لئيمة. يُسعدني جدًّا أنني أستطيع، أخيرًا، أن أقول لك هذا!

وشَعرَت «باشا» أنها تثير في نفس هذه المرأة المُتَّشِحة بالسواد وذات العينَين الغاضِبتَين والأنامل الدقيقة البيضاء، إحساسًا بأنها شيء كَريه بَشِع، فتملَّكها الخَجل من خدَّيها الأحمرَين المنتفخَين ومن النَّمَش على أنفها، ومن قُصَّتها المُنسَدِلة على جبينها والتي لا تَستجيب أبدًا للتَّمشُّط إلى أعلى. وخُيِّل إليها أنها لو كانت نحيفة، بدون مساحيق وبدون قُصة لكان من الممكن إخفاءُ سُوء سلوكها، ولَمَّا خافَت وخَجِلت إلى هذا الحد من الوقوف أمام هذه المرأة المجهولة الغامضة.

واستطردت السيدة تسأل: أين زوجي؟ على العموم سيان إن كان هنا أم لا، ولكنِّي يجب أن أقول لك إنه تم اكتشاف تبديد أموال وإنهم يَبحثُون عن نيقولاي بتروفيتش ... يريدون إلقاء القبض عليه ... انظري ماذا فعلْتِ به!

نهضت السيدة وتمشَّت في الغرفة بانفعال شديد ... ونظرت إليها «باشا» وقد عَجزَت من الخوف عن فَهْم شيء.

وقالت السيدة: سوف يَعثُرون عليه اليوم ويعتقلونه ... وشَهقَت باكية، وتجلَّت الإهانة والحزن في هذا الصوت. أنا أعرف مَن الذي دفع به إلى هذه الفظاعة! أنتِ لئيمة، حقيرة! مخلوق كَرِيه، مُرتزِق! «والْتَوَت شَفَتا المرأة وتَقلَّص أنفها من التَّقزُّز». أنا عاجزة ... اسمعي أيتها المرأة المُنحطَّة! أنا عاجزة، أنتِ أقوى مني، ولكن لي من يدافع عني وعن أولادي! الربُّ يرى كل شيء! إنه عادل! سينتَقِم منكِ لكل دمعة من دموعي، ولكل ليالي السُّهاد! سيأتي اليوم الذي تتذكرينني فيه!

وسادَ الصَّمت من جديد. كانت السيدة تَرُوح وتجيء في الغرفة وهي تَلوِي ذراعيها، بينما ظَلَّت «باشا» تُحدِّق فيها ببلادة وحيرة وعَدَم فَهْم وتتوقَّع منها شيئًا ما رهيبًا.

وفجأة قالت وهي تنخرط في البكاء: أنا لا أعرف شيئًا يا سيدتي!

فصاحَتِ السيدة وحدجتها بنظرة غاضبة لاهبة: كذابة! أنا أعرف كل شيء! أعرفُك من زمان! أعرف أنه في الشهر الأخير كان يتردَّد عليك كل يوم!

– نعم. وماذا في ذلك؟ يزورني ضيوف كثيرون، أنا لا أجبر أحدًا على المجيء. كل واحد حُر فيما يفعله.

– إنني أقول لك: تم اكتشاف تبديد أموال! اختَلس أموال عُهدة وبدَّدها! من أَجْل واحدة ... مِثلك، من أجْلِك أقْدَم على جريمة. وقالت السيدة بنبرة حازمة وهي تتوقَّف قُبَالة «باشا»: اسمعي، لا يمكن أن تكون لديك مبادئ، أنتِ تعيشين فقط لتجلبي الشَّرَّ، وهذا هو هدفك، ولكني لا أظن أنكِ بلغتِ من الانحطاط إلى الدرجة التي لم يبقَ فيها لديك أَثر لإحساس إنساني! إن لديه زوجة وأطفالًا ... لو حكموا عليه وسَجنوه فسنموت أنا والأولاد جوعًا ... افهمي هذا! ولكن توجد وسيلة لإنقاذه وإنقاذنا من البؤس والفضيحة. لو أنا أعدتُ اليوم تسعمائة روبل فَسيَدعونه وشأنه. تسعمائة روبل فقط!

فسألت «باشا» بصوت خافِت: أي تسعمائة روبل؟ أنا ... أنا لا أعرف ... لم آخذ شيئًا.

– أنا لا أطلب منك تسعمائة روبل ... فليسَت لديكِ نقود، كما أنني لا أطمع في أملاكك. أنا أطلب شيئًا آخر ... الرجال عادة ما يهدون للنساء من أمثالك أشياء ثمينة. أعيدي فقط الأشياء التي أهداها لك زوجي!

فهتفَت «باشا» وقد بدأت تدرك: يا سيدتي، لم يهدِ لي أي شيء!

– فأين ذهبتِ النقود؟ لقد بدَّد مالي وماله ومال العُهدة ... فأين ذهب هذا كله؟ اسمعي، إنني أرجوك! لقد كنتُ غاضبة ووجَّهتُ إليك إساءات كثيرة ولكني أعتذر. أنا أعرف أنكِ تَمقتينَني، ولكن إذا كنتِ قادرة على الشفقة فضعي نفسك في مكاني! أتوسل إليك، أعطيني الأشياء!

– هِمْ ... قالت «باشا» وهزَّت كتفيها: بكل سرور، ولكن أقسم لك بالله إنه لم يُهدِ لي أي شيء. صَدِّقيني، ثم ارتبكَت المُغنِّية وقالت: على العموم أنتِ على حق. لقد أهداني ذات مرة قطعتين. تفضلي، خذيهما إذا شئت.

وسحبَت «باشا» أحد أدراج التسريحة، وأخرجت منه سوارًا ذهبيًّا مجوفًا، وخاتمًا صغيرًا بحجر عقيق. وقالت وهي تمدهما للضيفة: تفضلي!

وتضَرَّج وجه السيدة وارتعش. لقد أحسَّت بالإهانة. وقالت: ما هذا الذي تعطينه لي؟ إنني لا أطلب منك صدقة، بل أطلب ما ليس ملكك ... ما اعتصرتِه، مستغِلَّة وضعك، من

زوجي ... من هذا الرجل الضعيف البائس ... يوم الخميس، عندما رأيتُك مع زوجي عند المرفأ، كنتِ تضعين بروشات وأساور غالية. إذن فلا معنى لأن تُمثِّلي معي دور الحَمل الوديع! إنني أرجوك للمرة الأخيرة: هل ستعطينني الأشياء أم لا؟

فقالت «باشا» وقد بدأت تغضب: يا لكِ من غريبة حقًّا! أؤكد لك أنني لم آخذ من زوجك نيقولاي بتروفتش أي شيء سوى هذا السوار والخاتم. لم يكن يأتي إليَّ إلا بفطائر حلوة.

فضحكت السيدة المجهولة بسخرية: فطائر حلوة ... الأولاد في البيت لا يجدون ما يأكلونه، وها هنا يأكلون فطائر حلوة. إذن فأنت ترفضين رفضًا قاطعًا إعادة الأشياء؟

وعندما لم تتلقَّ السيدة ردًّا جلسَت وهي تُحدِّق في شيء ما.

ثم قالت: وما العمل الآن؟ إذا لم أحصل على تسعمائة روبل فسوف يهلك، وأنا والأولاد أيضًا سنهلك. ترى هل أقتل هذه الحقيرة أم أركع أمامها على ركبتي؟

ودفنَت السيدة وجهها في المنديل وأعولت.

وتردد صوتها من خلال الدموع: أرجوك! أنتِ نهبتِ زوجي ودمرتِه، هيَّا أَنقذِيه ... ليس بقلبك شفقة عليه، ولكن الأولاد ... الأولاد ... ما ذنبهم؟

وتخيَّلَت «باشا» الأولاد الصغار وهم يقفون في الطريق يبكون من الجوع؛ فأجهشَت هي أيضًا بالبكاء.

وقالت: وماذا أستطيع يا سيدتي؟ أنت تقولين إنني حقيرة نهبتُ نيقولاي بتروفتش، ولكني أقسم لك، والله شاهد، إنني لم أستفد منه شيئًا ... في كورسنا موتيا وحدها التي لديها عشيق غني، أما نحن جميعًا فنأكل لقمتنا بالكفاف. نيقولاي بتروفتش سيد مُتعلِّم ومهذَّب، ولهذا كنتُ أستقبله فلا يمكننا ألا نستقبل الضيوف.

– أنا أطلب الأشياء! أعطيني الأشياء! إنني أبكي ... أتذلَّل ... تَفضَّلي، سأركع على ركبتي! تفضلي!

صرخت «باشا» رعبًا وأشاحت بيديها. وأحسَّت أن هذه السيدة الشاحبة الجميلة، التي تتحدث بعبارات سامية، كما في المسرح، تستطيع بالفعل أن تركع أمامها على ركبتها، وبالذات بدافع الكبرياء، والنبل، ولكي تعلي من قدرها وتحط من قدر المغنية.

وارتبكت «باشا» مهرولة وهي تمسح دموعها وتقول: حسنًا، سأعطيك الأشياء! تَفضَّلي! ولكنها ليست من نيقولاي بتروفتش ... أهداها لي ضيوف آخرون ... فليكن كما تشائين.

وسحبَت الدرج العلوي للكومودينو، وأخرجت منه بروشًا بفصوص من الماس، وعقدًا من المَرجان، وعدة خواتم، وسوارًا، وأعطت كل ذلك للسيدة.

واستطردَت «باشا» تقول وقد أهانها التهديد بالركوع على الركبتين: خُذيها إذا شئتِ، ولكني لم أستفد من زوجك شيئًا. خذي، اشبعي! وإذا كنتِ مُحترَمة ... وزوجته الشرعية، فلتمسكي به إلى جوارك ... يعني! أنا لم أَدْعُه إليَّ، هو الذي جاء بنفسه.

نظرت السيدة من خلال دموعها إلى الأشياء التي قدمت لها وقالت: ليس هذا كل شيء ... هذه لا تبلغ قيمتها حتى خمسمائة روبل.

فألقَت «باشا» من الكومودينو في حدة بساعة ذهبية وعلبة سجائر، وأزرار أساور قميص، وقالت وهي تباعد ذراعيها: ليس عندي شيء آخر ... فَتِّشي إذا شئت! فتنهَّدت الضيفة، ولفَّت الأشياء في منديلها بأصابع مرتعشة، وخرجت دون أن تنبس بكلمة، بل حتى لم تومئ برأسها.

وفتح باب الغرفة المجاورة، ودخل كولباكوف. كان شاحبًا ورأسه ينتفض في عصبية، كأنما تناول لتوه دواء مرًّا. وترقرَقَت عيناه بالدموع. وهاجمته «باشا»: ما الأشياء التي أهديتَها لي؟ متى كان ذلك لو سمحت؟

فدمدم كولباكوف وهز رأسه: الأشياء ... الأشياء أمر تافه! يا إلهي! لقد بكَت أمامك، تذلَّلَت.

فصرخت «باشا»: إنني أسألك: أي أشياء أهديتَها لي؟

– يا إلهي، هي الشريفة الأَبِيَّة، الطاهرة ... أرادَت أن تركع على ركبتيها أمام ... أمام هذه العاهرة! أنا الذي أوصلتها إلى هذا الحد! أنا سمحتُ بهذا!

وأمسك رأسه بين يديه وتأوه: لا، لن أغفر لنفسي هذا أبدًا! لن أغفر! وصاح بنفور وهو يتراجع عن «باشا» ويصدها بيدين مرتعشتين: ابتعدي عني ... يا حقيرة! أرادت أن تركع على ركبتيها ... وأمام من؟ أمامك! أوه يا إلهي!

وارتدى ملابسه بسرعة، واتَّجَه نحو الباب وهو يتحاشى «باشا» بتقزُّز، وخرج.

استَلْقَت «باشا» في الفراش وأخذَت تَنتحِب بصوت عالٍ. كانت تشعر الآن بالأسف على أشيائها التي أعطَتْها في لحظة تَهوُّر، كما كانت تشعر بالإهانة. وتذكَّرت كيف ضربها أحد التجار منذ ثلاث سنوات دون سبب أو ذنب، فَعلَا نَحيبُها.

في البيت

جاء رسول من آل جريجوريف يَطلب كتابًا، ولكنِّي قلتُ إنَّكم لستُم في المنزل. وحمل ساعي البريد جرائد ورسالتين. وبالمناسبة يا يفجيني بتروفتش أرجو أن تُولوا اهتمامكم إلى سيريوجا. فقد لاحظتُ اليوم، وأول أمس، أنه يُدخِّن. وعندما بدأتُ أُوبِّخه سدَّ أذنيه كالعادة وأخذ يغني بصوت عالٍ لكيلا يسمع ما أقول.

كان يفجيني بتروفتش بيكوفسكي وكيل نيابة الناحية، قد عاد لتوه من جلسة المحكمة وفرَغ من نزع قفازه في غرفة مكتبه، فنظر إلى المُربِّية التي كانت تُبلغه هذا التقرير وضحك.

وقال وهو يهز كتفيه: سيريوجا يُدخِّن ... إنني أتخيل منظر هذا الصغير والسيجارة في فمه! ولكن كم عمره؟

– في السابعة. قد يبدو لكم هذا غير جِدِّي، ولكن التدخين في سِنِّه عادة سَيِّئة ومُضرَّة، والعادات السيئة ينبغي القضاء عليها في بدايتها.

– أنت على حق تمامًا. ومن أين يحصل على التبغ؟

– من درج مكتبكم.

– حقًّا؟ في هذه الحالة أرسليه إليَّ.

وبعد انصراف المربِّية جلس بيكوفسكي في المقعد أمام مكتبه، وأغمض عينيه وأخذ يفكر. ولسبب ما رسم في خياله صورة لابنه سيريوجا وفي فمه سيجارة ضخمة طويلة، وتلفُّه سُحب دخان السجائر، فجعلته هذه الصورة الكاريكاتيرية يبتسم. وفي الوقت نفسه أثار وجه المربِّية الجاد المهموم في نفسه ذكريات الماضي البعيد، المنسي تقريبًا، عندما كان التدخين في المدرسة أو في غرفة الأطفال يثير في نفوس المدرسين والآباء رعبًا غريبًا، غير

مفهوم تقريبًا. كان ذلك رعبًا بالفعل. وكانوا يضربون الأولاد بقسوة، ويَفصلونَهم من المدرسة، ويُفسدُون عليهم مُستقبَلهم، رغم أن أحدًا من المدرِّسِين أو الآباء لم يكن يعلم بالضبط ما هو الضرر من التدخين وما هي الجريمة في ذلك. وحتى أذكى الأشخاص لم يتردَّد في مكافحة الرذيلة التي لم يكونوا يفهمونها. وتذكَّر يفجيني بتروفيتش ناظر مدرسته، ذلك العجوز المثقف جدًّا والطيب القلب والذي كان يتملكه الرعب إلى درجة الشحوب عندما يضبط تلميذًا يُدخِّن، فيجمع على الفور مجلس المُربِّين ويحكم على المذنِب بالفصل. يبدو أن تلك هي طبيعة قانون الحياة المشترَكة: فكلما ازداد الشر غموضًا أصبحَت مقاومتُه أكثر ضراوة وفظاظة.

وتذكَّر وكيل النيابة اثنين أو ثلاثة من المفصولِين، وتابَع مَجرى حياتهم بعد ذلك، فلم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير بأن العقاب كثيرًا ما يعود بِشرٍّ أكثر من الجريمة نفسها. فالجسم الحيُّ يملك القدرة على التكيُّف السريع والتعود والتأقلُم مع أي وسط، وإلا لكان على الإنسان أن يشعر في كل لحظة بمدى انعدام الحكمة في أساس نشاطه الحكيم، وبضآلة الحقيقة المستوعبة والثقة، حتى في تلك الأنشطة المسئولة وذات الآثار الخطيرة كالنشاط التربوي، والقانوني والأدبي.

أخذَت مثل هذه الأفكار الخفية الغائمة، والتي لا تُراود إلا الذهن المُتعَب ساعة الراحة، تدور في رأس يفجيني بتروفتش. كانت تظهر من حيث لا يعرف ولسبب لا يدريه، وتبقى في رأسه قليلًا، فتبدو وكأنها تَزحَف فوق المخ دون أن تغوص عميقًا فيه. وبالنسبة إلى الأشخاص الذين يَتوجَّب عليهم أن يفكروا بطريقة رسمية، وفي اتِّجاه واحد لساعات طويلة وربما لأيام، تمثل مثل هذه الأفكار المنزلية الحرة نوعًا من الراحة والاستجمام اللذيذ.

كانت الساعة حوالي التاسعة مساء. وفوق غرفة المكتب، في الطابق الثاني، وراء السقف، كان شخص ما يسير من ركن لركن، وأعلى من ذلك، في الطابق الثالث تردَّد عزف ثنائي على البيانو. وأَضفَت خطوات ذلك الشخص الذي كان، حسبما بدَا من مشيته العصبية، يُعذِّبه التفكير، أو يعاني من أَلَم في أسنانه، والأنغام الرَّتيبة، أَضفَت على هدوء المساء جوًّا ناعسًا يبعث على الاستسلام للتفكير الكسول. وعبر غُرفتَين تناهى حديث المُربِّية مع سيريوجا في غرفة الأطفال.

وأخذ الصبي يغني: با ... با وصل! با ... با وصد ... ل! با ... با ... با!

وصرخت المربية بصوت رفيع كطائر مذعور: votre père vous appelle, allez vite![1] إنني أخاطبك!

وقال يفجيني بتروفتش لنفسه: «ولكن ماذا أقول له؟»

وقبل أن يهتدي إلى شيء دخل غرفة المكتب ابنه سيريوجا؛ الصبي ذو الأعوام السبعة. كان شخصًا لا يمكن الحكم على جنسه سوى من ملبسه ... قليل الحجم، شاحب الوجه، هشًّا ... كان ذابل الجسم مثل نبات دفيئة، وبدَا كل شيء فيه رقيقًا وناعمًا جدًّا: حركاته، وشعره المجعد الخصلات، ونظرته، وسترته المخملية.

وقال بصوت ناعم وهو يعتلي ركبتي أبيه ويُقبِّله في عنقه بسرعة: مرحبًا بابا! هل دعوتَني؟

فأجاب وكيل النيابة وهو ينحيه عنه: اسمح لي، اسمح لي يا سيرجي يفجينيتش[2] قبل القُبلات ينبغي علينا أن نتحدَّث، ونتحدث بجدية ... إنني غاضب منك ولم أَعُد أحبك. نعم، فَلتعلَمْ يا أخي أنني لا أحبك، وأنكَ لستَ ابني ... نعم.

تطلع سيريوجا إلى أبيه باهتمام، ثم حوَّل نظره إلى الطاولة وهز كتفيه. ثم سأل بدهشة وعيناه تطرفان: وماذا فعلتُ لك؟ أنا لم أدخل مكتبَك اليوم ولا مرة، ولم ألمس شيئًا.

– اشتكَت لي نتاليا سيميونوفنا الآن من أنك تدخن ... هل هذا صحيح؟ هل تدخن؟

– نعم، دخَّنْت مَرة ... هذا صحيح!

فقال وكيل النيابة عابسًا ليخفي ابتسامته: انظر، ها أنتَ ذا فوق ذلك تَكذِب. لقد رأتْكَ نتاليا سيميونوفنا تُدخِّن مرتين. إذن فأنتَ قد ضُبِطتَ متلبسًا بثلاثة أعمال سيئة: فأنت تُدخِّن، وتأخذ تبغًا ليس لكَ من المكتب، وتكذب. ثلاثة ذنوب!

فقال سيريوجا متذكرًا بينما ابتسمَت عيناه: آه، نعم! هذا صحيح، صحيح! أنا دخَّنت مرتين: اليوم ومن قبل.

[1] والدك يدعوك، هيا بسرعة (بالفرنسية في الأصل). (المُعَرِّب)

[2] المخاطبة بالاسم بالاسم الكامل واسم الأب تستخدم مع الكبار للاحترام. ويريد الآن هنا أن يُضفِي على حديثه مع ابنه الصغير طابع الجِدِّيَّة. (المُعَرِّب)

– هل رأيت؟ إذن مَرتين وليس مرة واحدة ... أنا غير راضٍ عنك أبدًا، أبدًا! كنتَ صبيًّا طيبًا من قبل، أما الآن فأرى أنك فسَدتَ وأصبحتَ سيئًا. وسوَّى يفجيني بتروفيتش ياقة سيريوجا وفكر:

«ماذا أقول له بعد؟»

ثم استطرد يخاطبه: نَعم، هذا أمر سيئ. لم أكن أتوقَّع ذلك منك؛ فأولًا: لا يحق لك أن تأخذ تبغًا ليس ملكك. من حق كل إنسان أن يستخدم فقط ما يملكه، أما إذا استولى على ما ليس له فهو ... فهو إنسان سيئ! وفكَّر يفجيني بتروفتش: «ليس هذا هو المطلوب قوله!» فمثلًا نتاليا سيميونوفنا عندها صندوق ملابس، إنه صندوقها، ولا يَحِق لنا، أقصد أنا وأنت، أن نَمسَّه؛ لأنه ليس صندوقنا. أليس كذلك؟ وأنت لديك لُعب وصِور ... وأنا لا أستولي عليها، أليس كذلك؟ ربما كنتُ أريد أن أستولي عليها ... ولكنها ليست لي، بل لك!

فقال سيريوجا وقد رفع حاجبيه: خُذها إذا كنتَ تريد! لا تخجل يا بابا من فضلك، خذها! هذا الكلب الأصفر على مكتبك هو كلبي، ولكني لا أقول شيئًا ... فَلْيبق على مكتبك!

فقال بيكوفسكي: أنت لا تفهمني. هذا الكلب أنتَ أهديتَنِيه، فهو الآن ملكي، وبوسعي أن أفعل به ما أريد. ولكني لم أعطك التَّبغ! التَّبغ ملكي أنا!

وفكَّر وكيل النيابة: «ليس هذا ما ينبغي أن أُوضِّحه! ليس هذا أبدًا!» ولو أردتُ أنا أن أُدخِّن تبغًا ليس لي، فعليَّ قبل كل شيء أن أستأذن.

أخذ بيكوفسكي يشرح لابنه ما معنى المِلكية، وهو يشبك العبارة بالعبارة في كسل ويتصنع لهجة الأطفال. وكان سيريوجا يُصغي إليه باهتمام وهو يُحدِّق في صدره (كان يحب التحدُّث مع أبيه في أوقات المساء)، ثم اتَّكأ على طرف المكتب وزَر عينيه القصيرتَي النظر مُحدِّقًا في الأوراق والمحبرة. وطافت نظراته على المكتب ثم تَوقَّفت على زجاجة صمغ عربي. وسأل فجأة وهو يقرب الزجاجة من عينيه: بابا، ممَّ يصنع الصمغ؟

فأخذ بيكوفسكي الزجاجة ووضعها في مكانها وأكمل: وثانيًا أنت تُدخِّن ... وهذا شيء سيئ جدًّا! فإذا كنتُ أنا أدخن فهذا لا يعني أبدًا أن التدخين مسموح به. أنا أدخن وأعرف أن ذلك ليس من الحكمة، وأوبخ نفسي ولا أحبها بسبب ذلك ... وفكَّر بيكوفسكي: «يا لي من مُربٍّ مكَّار!» التَّبغ ضار جدًّا بالصحة، ومن يُدخِّن يمتْ مبكرًا. والتدخين ضَارٌّ بصفة خاصَّة بالصغار أمثالك. فصدرُك ضعيف، وأنتَ لم تصبح قويًّا بَعدُ، والتدخين يُصيب الضُّعفاء بالسُّل وغيره من الأمراض. عمُّك أجناتي مثلًا مات بالسُّل. لو لم يكن يُدخِّن فربما عاش حتى اليوم.

تَطلَّع سيريوجا مُفكِّرًا إلى المصباح، وتحسَّس الأباجورة بإصبعه وتنهد وقال: كان عَمِّي أجانتي يَعزِف جيدًا على الكمان! كمانه الآن عند آل جريجوريف!

واتكأ سيريوجا ثانية على طرف المكتب واستغرق في التفكير، وعلى وجهه الشاحِب استقَرَّ تعبير وكأنما كان يُصغي أو يتابع سَير أفكاره الخاصة. وبدَا في عينيه الواسعتَين اللتين لا تَطرِفان حزن أو شيء أشبه بالذعر. ربما كان يفكر الآن في الموت الذي اختطف منذ زمن قريب أُمَّه وعمه أجانتي. فالموت يحمل إلى العالم الآخر الأمهات والأعمام، بينما يبقى أولادهم وكمانَاتُهم على الأرض. ويعيش الموتى في السماء، في مكان ما قرب النجوم، وينظرون من هناك إلى الأرض. تُرى هل يتحملون ألم الفراق؟

وفكر يفجيني بتروفتش: «ماذا أقول له؟ إنه لا يصغي إليَّ. يبدو أنه لا يُعير أهمية لذنوبه ولا لحُجَجِي. كيف أقنعه؟»

ونهض وكيل النيابة وأخذ يذرع غرفة المكتب. وأخذ يفكر:

«في الماضي على أيامي كانت هذه المسائل تُحلُّ بمنتهى البساطة: كانوا يجلدون الصبي المُتلبِّس بالتدخين. وكان الجبناء وضعفاء القلوب يُقلِعون فعلًا عن التدخين. أما الأكثر شجاعة وذكاء فكانوا، بعد العلقة، يُخبِّئون التبغ في رقبة الحذاء العالي ويدخنون في الحظيرة. وعندما يضبطون الصبي في الحظيرة ويجلدونه ثانية، كان يذهب إلى شاطئ النهر ليدخن ... وهكذا دواليك حتى يكبر. كانت أمي تغدق عليَّ النقود والحلوى حتى لا أدخن. أما الآن فتعتبر هذه الوسائل تافهة ولا أخلاقية. فالمربِّي الحديث، وقد تسلح بالمنطق، يحاول أن يجعل الطفل يَتقبَّل المبادئ الخيِّرة لا بدافع الخوف أو الرغبة في التميز أو طمعًا في مكافأة، بل عن وعي.»

وبينما كان يتمشَّى ويفكر، اعتلى سيريوجا الكرسي الموضوع بجوار المكتب وبدأ يرسم. وحتى لا يلوث الأوراق الرسمية ويعبث بالمِحبرَة وُضِعَت على المكتب رزمة من الورق المقصوص خصوصًا له وقلمٌ أزرق. وقال وهو يرسم بيتًا ويلعب حاجبيه: جَرحَت الطباخة اليوم إصبعها عندما كانت تخرِّط الكرنب. وصرخَت عاليًا لدرجة أننا خِفْنَا جميعًا وركَضنَا إلى المطبخ. أما غبية! نَصحَتها نتاليا سيميونوفنا بأن تبلل إصبعها بالماء البارد، لكنها أخذت تمصه ... كيف يمكن أن تضع في فمها هذه الإصبع القذرة؟ أليس هذا عيبًا يا بابا؟

ثم روى بعد ذلك أنه في أثناء الغداء، أتى إلى الفناء عازف جوَّال ومعه فتاة كانت تغني وترقص على أنغام الموسيقى.

وفكَّر وكيل النيابة:

«إن لديه تَيَّار أفكاره الخاصة! لديه في رأسه عالمه الصغير الخاص، وبطريقته الخاصة يعرف ما هو المهم وغير المهم، ولا يكفي للاستحواذ على انتباهه وإدراكه أن تتصنع لهجته، وإنما ينبغي كذلك أن تعرف كيف تفكر بطريقته. كان من الممكن أن يفهمني تمامًا لو أنني بالفعل كنت آسفًا على التَّبغ، لو أنني غضبتُ وبكيت ... ولهذا فالأمَّهات لا غنى عنهن في التربية؛ لأنهن قادرات على الإحساس بما يحس به الأطفال، وعلى البكاء والضحك معهم ... ولن تصل إلى شيء بالمنطق والوعظ. حسنًا، فماذا أقول له؟ ماذا؟»

وبدَا ليفجيني بتروفتش غريبًا ومضحِكًا أنه، وهو القانوني المُحنَّك، والذي قضى نصف عمره في التمرُّس بشتى أنواع المنع والإنذار والعقوبة، أصبح مرتبِكًا تمامًا ولا يعرف ماذا يقول للصبي.

وأخيرًا قال: اسمع، أَعطِني كلمة شرف بأنك لن تدخن بعد الآن.

فقال سيريوجا مغنيًا، وهو يضغط بِشِدة على القلم وينحني فوق الرسم: كلـ ... م ... ة شر ... ف! كلـ ... مـ ... ة شر ... ف! رف ... رف.

وسأل بيكوفسكي نفسه: «وهل هو يَعرِف ما معنى كلمة شرف؟ كلا، إنني مربٍّ سيئ. لو أن أحدًا من المُربِّين أو من زملائي القضاة أطل الآن في رأسي لاعتبرني خرقة، بل وربما اتهمني بالإفراط في التَّحذلق ... ولكن المشكلة أن كل هذه القضايا الخبيثة تُحلُّ في المَدرَسة أو المحكمة على نحو أبسط بكثير مما في البيت. فأنت هنا تتعامل مع مخلوقات تحبها بجنون، والحب يفرض مُتطلَّباته ويُعقِّد المسألة. لو لم يكن هذا الصبي ابني، لو كان تلميذي أو أحد المُتهمِين لما ترددتُ هكذا، ولما تشتتَت أفكاري!»

جلس يفجيني بتروفتش إلى المكتب وتناوَل أحد رسومات سيريوجا. كان الرسم يصور منزلًا بسقف معوج ودخانًا يتصاعد من المدخنة حتى طرف الورقة على شكل تعرجات حادَّة كالبرق. وبجوار المنزل وقف جندي يحمل بندقية بَحْرِية على شكل رقم «٤»، وبنقطتين بدلًا من العينين.

وقال وكيل النيابة: الإنسان لا يمكن أن يكون أعلى من المنزل. انظر ... السَّقف لديك يصل إلى كتف الجندي.

وتسلق سيريوجا ركبته، وظل يتحرك طويلًا ليتخذ وضعًا مريحًا. وقال بعد أن تأمل رسمه: لا يا بابا! لو رسمتُ الجندي صغيرًا فلن تظهر عيناه.

فهل كان عليه أن يجادله؟ لقد اقتنع وكيل النيابة من واقع ملاحظاتِه اليومية لابنه أن لدى الأطفال، مثلما لدى الأقوام المتوحشة، نظرتهم الفنية الخاصة ومتطلباتهم المتميزة

التي تستعصي على فَهْم الكبار. وربما لو راقَب أحد الكبار سيريوجا بانتباهٍ لبدَا له صبيًّا شاذًّا. فقد كان يعتبر من الممكن والمعقول أن يرسم الناس أعلى من المنازل، ويُعبِّر بالقلم إلى جانب الأشياء، عن أحاسيسه الخاصة. فقد كان يصور مثلًا أنغام الأوركسترا على شكل بقع دخانية دائرية، ويصور الصفير على شكل خيط لولبي ... كان الصوت في مفهومه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالشكل واللون، فعندما يُلوِّن الحروف كان دائمًا يصبغ حرف «اللام» باللون الأصفر، وحرف «الميم» باللون الأحمر، وحرف «الألف» باللون الأسود، وهلم جرًّا.

وألقى سيريوجا بالرسم وتململ في جلسته ثانية متخذًا وضعًا مريحًا، ثم أخذ يعبث بلحية أبيه. في البداية مسدها بعناية، ثم فرق شعرها وأخذ يمشطه ليجعله مثل السوالف.

ودمدم: الآن أصبحتَ تشبه إيفان ستيبانوفتش. أما الآن فتشبه ... بوابنا. بابا، لماذا يقف البوابون بجوار الأبواب؟ لكي يمنعوا اللصوص من الدخول؟

أحسَّ وكيل النيابة بأنفاس سيريوجا على وجهه، وكان خده يلمس شعره بين الحين والحين، فأحس في قلبه بدفء ونعومة، كأنما لم تكن يداه فحسب بل وروحه كلها تستلقي على مخمل سترة سيريوجا. وحدَّق في عيني الصبي الواسعتين السوداوين، فخُيِّل إليه أنه قد أطلَّت عليه من الحدقتين الواسعتين أمه وزوجته وكل من أحبهم في يوم ما.

وقال في نفسه: «فلتحاول إذن أن تجلِدَه ... هيا ابتكِر عقابًا لو استطعت! كَلَّا، أين نحن من المربِّين؟ قبلًا كان الناس بسطاء، يفكرون أقل، ولذلك كانوا يحسمون القضايا بجرأة، أما نحن فنفكر أكثر من اللازم، والمنطق قد أغرقَنا تمامًا ... كلما كان الإنسان أكثر تطورًا وتفكيرًا وغوصًا في دقائق الأمور، أصبح أقل جرأة وأكثر وسوسة، وأشد وجلًا في التصدي للمسألة. وبالفعل، لو أمعنا التفكير، فأي شجاعة وثقة في النفس ينبغي أن تكون لدى المرء لكي يقدم على تعليم الآخَرِين، والحكم عليهم، وتأليف الكتب السميكة؟»

ودقت الساعة العاشرة.

فقال وكيل النيابة: حسنًا يا بُني، حان وقت النوم. ودِّعْني وانصرِف. فعبس سيريوجا وقال: لا يا بابا. سأبقى قليلًا. احكِ لي شيئًا. احكِ لي حكاية!

– طيب، لكن بعد الحكاية تذهب إلى الفراش فورًا.

كان من عادة يفجيني بتروفتش في الأمسيات الخالية أن يحكي الحكايات لسيريوجا. ومثل معظم الأشخاص العمليين لم يكن يحفظ قصيدة شعر واحدة، ولا يذكر حكاية واحدة، ولهذا كان يلجأ إلى الارتجال في كل مرة. وفي العادة كان يبدأ بالعبارة التقليدية: «كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان»، ثم يحشد كمًّا من الهراء البريء ولا يعرف أبدًا

عندما يبدأ كيف سيكون وسط الحكاية ونهايتها. كان يعتمد على الحظ والبديهة في رسم الصور والأشخاص والظروف. أما الموضوع والموعظة فينبثقان تلقائيًّا، دون علاقة بإرادة الراوي. وكان سيريوجا يهوى كثيرًا هذه القصص المرتجَلَة، ولاحظ وكيل النيابة أنه كلما جاء الموضوع بسيطًا دون تعقيد كان تأثيره على الصبي أقوى.

وبدأ يحكي وقد رفع نظره إلى السقف: اسمع ... كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، كان هناك ملك عجوز عجوز، بلحية شيباء طويلة و... وبشوارب هائلة. وكان يعيش في قصر زجاجي يلمع ويتلألأ في الشمس مثل قطعة كبيرة من الجليد النقي. أما القصر يا أخي فكان وسط حديقة ضخمة؛ حيث كانت تنمو ماذا؟ أشجار البرتقال ... والكمثرى ... والكرز ... وتزهر أزهار الأقحوان، والورود، والسوسن، وتنشد الطيور الزاهية الألوان ... نعم ... وكانت تتدلى من الأشجار أجراس زجاجية صغيرة، وعندما تهب الريح، ترن بصوت رقيق، يخلب الألباب. فالزجاج يصدر صوتًا أرق وأنعم من المعدن ... حسنًا، وماذا كان هناك أيضًا؟ كانت النافورات تتدفق في الحديقة ... أتتذكر النافورة التي رأيتها في دار خالتك سونيا الريفية؟ مثلها بالضبط كانت النوافير في حديقة الملك، ولكنها أكبر بكثير، وكانت تيارات الماء المتدفقة منها تصل إلى قمة أعلى شجرة حور.

وفكَّر يفجيني بتروفتش قليلًا ثم استطرد: وكان لدى الملك العجوز ابن وحيد، هو وريث العرش والمملكة. كان صبيًّا صغيرًا هكذا مثلك. وكان ولدًا طيبًا. لم يكن يتدلل أبدًا، وكان ينام مبكرًا، ولا يلمس شيئًا على المكتب ... وعمومًا كان ولدًا شاطرًا. لم يكن يعيبه إلا شيء واحد؛ لقد كان يدخن.

أصغى سيريوجا بتركيز وهو يُحدِّق في عيني أبيه بعينين لا تطرفان. ومضى وكيل النيابة يحكي وهو يفكر: «وماذا بعد؟» وبعد أن لتَّ وعجن كثيرًا، كما يقال، أنهى الحكاية هكذا:

– ومن التدخين مرض وليُّ العهد بالسل ومات وهو في العشرين من عمره. وأصبح الملك العجوز، المريض المهدم، بلا معين. ولم يعد هناك من يرعى شئون المملكة ويحمي القصر. فجاء الأعداء وقتلوا الملك العجوز، وهدموا القصر، ولم يعد فيه الآن كرز ولا طيور ولا أجراس ... هكذا يا أخي.

بدت هذه النهاية لفيجيني بتروفتش نفسه مضحكة وساذجة، إلا أن الحكاية بمجملها تركت في نفس سيريوجا أثرًا قويًّا. وعاد الحزن وشيء أشبه بالرعب يلف عينيه. وظل حوالي دقيقة يحدق في النافذة المظلمة وهو مُستغرِق في التفكير، ثم انتفض وقال بصوت متهدج: لن أُدخِّن مرة ثانية.

وبعد أن ودَّع أباه وانصرف لينام، أخذ الأب يذرع الغرفة بهدوء من ركن لركن وهو يبتسم.

وفكر في نفسه: «قد يقال إن ما أثر عليه هو الجمال والشكل الفني. فليكن، ولكن هذا ليس بشيء مطمئن. إنه مع ذلك ليس وسيلة حقيقية ... لماذا ينبغي تقديم الموعظة والحقيقة ليس بصورتهما المجردة، النيئة، بل بالخلطات، وبقشرة سكرية مذهبة كحبات الدواء؟ ليس هذا طبيعيًّا ... إنه خداع، تزوير ... تحايل.»

وتَذكَّر القضاة المحلِّفين الذين لا بد أن تُسمعهم «خطبة عصماء»، وعامة الناس الذين لا يستوعبون التاريخ إلَّا من خلال الملاحم والسير والروايات التاريخية، وتذكَّر نفسه، وهو الذي استقى خبرة الحياة لا من المواعظ والقوانين، بل من الحكايات والروايات والأشعار.

«ينبغي أن يكون الدواء حلوًا، والحقيقة جميلة ... وهذه النزوة قد أباحها الإنسان لنفسه منذ عهد آدم ... وعمومًا ... ربما كان كل ذلك طبيعيًّا وهكذا ينبغي للأمور أن تكون ... وهل تخلو الطبيعة من الخداع المفيد والأوهام.»

وشرع يعمل، بينما ظلَّت الأفكار المنزِليَّة الكسولة تَهوم في رأسه طويلًا. ولم تعد أنغام العزف تسمع، ولكن ساكن الطابق الثاني ظل يخطو من ركن لركن.

الصبيان

صاح أحدهم في الفناء: فولوديا وصل!

وصرخت نتاليا وهي تندفع إلى غرفة الطعام: فولوديا وصل! آه، يا إلهي!

وهروَلَت أسرة كوروليف التي كانت تنتظر وصول ابنها فولوديا بين لحظة وأخرى، إلى النوافذ. كانت هناك عربة واسعة تقف بجوار المَدخل، ومن الخيول الثلاثة البيضاء تَصاعَد بخار كثيف. كانت العربة خاوية؛ لأن فولوديا كان يقف الآن في المدخل وهو يَفك القلنسوة بأصابع محمرة من البرد. وكان معطفه المدرسي والكاب وخُفُّ حذائه وشعر فوديه مغطاة بالحبب الثلجي، وانبعثَت منه كله، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، رائحة صقيع لذيذ، بحيث تُراودك الرغبة وأنت تتطلع إليه أن تنتفض من البَرد وتقول: «برر!» واندفعَت أُمُّه وعَمَّته نحوه تُعانِقانه وتُقبِّلانه، وارتمَت نتاليا على قدميه وبدأَت تنزع حذاءَه اللباد، وأطلقَت شقيقاته صراخًا، وصَرَّت الأبواب واصطفَقَت، أما والد فولوديا، فقد هرول إلى الدهليز في الصديري وقد أمسك بمقص في يده، وصاح بخوف: كنا ننتظر مجيئك أمس! أكان السَّفر طيبًا؟ على ما يرام؟ آه، يا إلهي، هلَّا تركتموه يسلم على أبيه، أم أنني لستُ أباه، هه؟

– هَوْ! هَوْ!

نبح «ميلورد» الكلب الضخم الأسود بصوت غليظ، وهو يخبط بذيله على الأثاث والجدران.

واختلطَت كل الأصوات في صوت واحد شامل، فرح، استمرَّ حوالي دقيقتين. وعندما مرَّت أول موجة فرح، لاحظ آل كوروليف أنه بالإضافة إلى فولودي، كان هناك في الدهليز شخص صغير آخَر، مُلتَف بالمناديل والشيلان والقلنسوات ومُغطًّى بحبب الثلج. كان واقفًا في الركن بلا حِراك، يحجبه ظل مِعطف كبير من فراء الثعلب.

وسألتِ الأم بهمس: فُولديا، ومن هذا؟

واستدرك فولوديا فقال: آه! يشرفني أن أقدم لكم رفيقي تشيتشيفيتسين، التلميذ بالصف الثاني ... لقد أحضرتُه معي ليمكث في ضيافتنا قليلًا.

وقال الأب بفرح:

– تشرَّفْنا، أهلًا وسهلًا ... عفوًا، فإنني بملابس البيت بدون سترة ... تَفضَّل! يا نتاليا، ساعدي السيد تشيربيتسين على خَلْع ملابسه! يا إلهي، اطردوا هذا الكلب من هنا! يا للعنة!

وبعد قليل، جلس فولوديا وصديقه تشيتشيفيتسين إلى المائدة لتناول الشاي وقد أَذهلَهما صَخب اللقاء، وحُمْرَة البرد لم تذهب بَعْدُ من وجهيهما. وكانت شمس الشتاء تمر عَبْر الثلج وتعاريج الجليد على النوافذ وتَتراقَص على السَّماوَر وتغسل أشعتها الصافية في طبق الغسيل. كانت الغرفة دافئة، وأحس الصَّبِيَّان في جسديهما بالدفء يُصارِع البَرْد وكل منهما لا يريد أن يتنحى للآخر.

وقال الأب بصوت مُنغَّم، وهو يدير بين أصابعه سيجارة من التبغ الأشقر الغامق: ها هو ذا عيد الميلاد يقترب! ألم نكن في الصف منذ وقت قريب، عندما بكت أمك وهي تُودِّعك؟ وها أنت ذا قد عُدتَ ... نعم، الزمن يا أخي يمضي بسرعة! وقبل أن تفتح فمك دهشة تجد الشيخوخة قد دَهمَتك. كُلْ يا سيد تشيبيسوف، أرجوك، لا تستحِ! نحن بسطاء.

كانت شقيقات فولوديا الثلاث: كاتيا وسونيا وماشا — أكبرهن في الحادية عشرة — جالسات إلى المائدة لا يُحوِّلن أعينهن عن الشخص الجديد. كان تشيتشيفيتسين من عُمْر أخيهن وطوله، ولكنه لم يكن مثله مليئًا ولا أبيض، بل نحيلًا، أسمر، وجهُه مُغطًّى بالنمش، وكان شعره خشنًا مجعدًا، وعيناه ضيقتين، وشفتاه غليظتين، وعمومًا فقد كان قبيحًا جدًّا، ولولا أنه كان يرتدي سترة التلاميذ لكان من الممكن أن تَظنَّه ابن الطاهية. وكان عبوسًا وظَلَّ صامتًا طوال الوقت، ولم يبتسم مرة واحدة. وقرَّرَت الفتيات وهن ينظرن إليه، أنه على الأرجح شخص ذكي جدًّا وعالم. كان يُفكِّر طوال الوقت في شيء ما، وكان مشغولًا بأفكار حتى إنه كان ينتفض عندما يسألونه عن شيء ما، ويهز رأسه ويطلب إعادة السؤال.

ولاحظَت الفتيات أن فولوديان الذي كان دائمًا مرحًا وثرثارًا، أصبح قليل الكلام، ولم يبتسم ابتسامة واحدة، وكأنَّما لم يكن مسرورًا بعودته إلى البيت. وفي أثناء تناول الشاي لم يخاطب شقيقاته سوى مرة واحدة بكلمات غريبة؛ فقد أشار بإصبعه إلى السَّماوَر وقال: في كاليفورنيا يشربون الجن بدلًا من الشاي.

كان هو أيضًا مشغولًا بأفكار ما، ويبدو من النظرات القليلة التي تبادلها مع صديقه تشيتشيفيتسين أنه كان هناك بين الصبيين شيء مُشترَك.

وبعد تَناوُل الشاي ذهب الجميع إلى غُرفة الأطفال. وجلس الأب والبنات إلى المائدة وانكبُّوا على العمل الذي قطعه مَجيء الصَّبيَّين، كانوا يَصنعون أزهارًا وشرائط زينة من الورق المُلوَّن لتزيين شجرة عيد ميلاد، كان ذلك عملًا مُمتِعًا وصاخبًا. وكانت الفتياتُ يَستقبِلن كل زهرة جديدة بصيحات الإعجاب، بل وبصيحات الذُّعْر وكأن هذه الزهرة سَقطَت من السماء. وكان الأب أيضًا يُبدِي إعجابه، ويلقي أحيانًا بِالمِقصِّ على الأرض في غَضب؛ لأنه ليس حادًّا. وكانت الأم تُهروِل إلى غرفة الأطفال بوجه يبدو عليه الهم الشديد فتسأل: مَن أخذ مِقصِّي؟ هل أخذتَه مرة أخرى يا إيفان نيقولايفيتش؟

فيرد إيفان نيقولايفيتش بصوت باكٍ، ويرتمي بظهره على مَسند المقعد مُتخذًا وضع شخص مهان: يا إلهي، المقص يأخذونه مني!

ولكنه بعد دقيقة يعود إلى إبداء إعجابه.

كان فلوديا في المرات السابقة يشارك أيضًا في إعداد زينة شجرة عيد الميلاد، أو ينطلق إلى الفناء لِيتفرَّج على الحوذي والراعي وهما يصنعان تلًّا من الثلوج، ولكنه الآن، هو وتشيتشيفيتسين، لم يُلقِيَا بالًا إلى الورق المُلوَّن، ولم يَذهبَا إلى الإصطبل مرة واحدة، بل جلسَا بقرب النافذة وأخذَا يتهامسان. ثم فَتحَا الأطلس الجغرافي وصارَا يتأمَّلان خريطة ما.

وقال تشيتشيفيتسين بصوت خافِت: أولًا إلى بيرم ... ومن هنا إلى تيومين ... ثم تومسك ... ثم ... ثم ... إلى كامتشاتكا ... ومن هناك يَنقِلنا الأدِلَّاء بالقوارب عبر مضيق بيرينغ ... وها هي ذي أمريكا ... هنا الكثير من حيوانات الفراء.

وسأل فولوديا: وكاليفورنيا؟

– كاليفورنيا أسفل قليلًا ... المهم أن نصل إلى أمريكا، أما كاليفورنيا فليسَت بعيدة. ويمكننا أن نحصل على الطعام بالصيد والنهب.

وظل تشيتشيفيتسين طوال اليوم يَتحاشَى الفتيات، ويتطلع إليهن شزرًا. وبعد شاي المساء تصادَف أن بقيَ بمفرده مع الفتيات خمس دقائق لا أكثر. كان الصمت محرجًا. فسعل بصرامة، وفرَك يده اليسرى براحته اليمنى، ونظر إلى كَاتيا عابسًا وسأل: هل قرأتِ ماين ريد؟

– كلَّا، لم أقرأه ... اسمع، هل تجيد التزحلق على الجليد؟

كان تشيتشيفيتسين غارقًا في أفكاره، فلم يجب عن هذا السؤال، بل نفخ شدقيه بشدة، وأطلق زفرة وكأنه يشعر بحر شديد. ورفع عينيه مرة أخرى إلى كاتيل وقال: عندما

يركض قطيع البيسون عَبْر البمباس تَرتَج الأرض، وفي تلك الأثناء تَصهل الموستانغ وترفس بأرجلها وهي مذعورة.

وابتسم تشيتشيفيتسين بحزن وأضاف: والهنود الحمر أيضًا يُهاجمون القطارات. ولكن أسوأ شيء هو الموسكيتو والترميت[1]

– وما هذا؟

– إنها أشبه بالنمل ولكنها بأجنحة، ولدغتها مؤلمة، أَتعرفين مَن أنا؟

– السيد تشيتشيفيتسين.

– كلَّا. أنا مونتيغومو، مخلب الصقر، زعيم المُنتصِرين.

وتطلَّعت ماشا، أصغر الفتيات، إليه، ثم حوَّلت نَظرَها إلى النافذة التي كان المساء قد هبط وراءها، وقالت وهي شاردة: مساء الأمس طبَخْنا عدسًا.[2]

كانت عبارات تشيتشيفيتسين غير مفهومة أبدًا، وكذلك هَمسُه المستمِر مع فولوديا، وعدم انخراط فولوديا في اللعب واستغراقه في التفكير ... كل ذلك كان غامضًا وغريبًا. فأخذَت الشقيقتان الكبريان؛ كاتيا وسونيا، تُراقبان الصبِيَّين بيقظة ... وعندما أوى الصَّبيَّان إلى فِراشهما في المساء، تسلَّلت الفتاتان إلى باب غرفتيهما وأخذَتا تَسترقان السمع إلى حديثهما. أوه، ماذا سمعتُما! لقد كان الصبيان يَستعدَّان للهرب إلى مكان ما في أمريكا للبحث عن الذهب. كان لديهما كل ما يلزم للرحلة: مُسدَّس، ومُدْيتان، وخبز مجفف، وعدسة لإشعال النار، بوصلة، وأربعة روبلات. وعَلِمتَا أنه على الصبيين قطع عدة آلاف من الكيلومترات سيرًا على الأقدام، وسيكون عليهما في أثناء الطريق أن يُصارِعا النمور والمتوحِّشِين، ثم أن يُنقِّبا عن الذهب والعاج، ويَقتلا الأعداء، وينضمَّا إلى قراصنة البحر، ويَشربَا الجن، وفي نهاية المطاف أن يَتزوَّجا حَسناوَين وأن يَعمَلا في فِلاحة المَزارع. كان فولوديا وتشيتشيفيتسين يَتحدَّثان بحماس وكل منهما يُقاطِع الآخَر. وكان تشيتشيفيتسين يسمي نفسه في أثناء الحديث: «مونتيغومو، مخلب الصقر»، وينادي فولوديا: «يا أخي الأصفر الخدين».

[1] البيسون هو الثور البري الأمريكي. والبمباس إقليم البراري في أمريكا الجنوبية. والموستانغ هو الحصان البري. والموسكيتو هو البعوض. والترميت هو النمل الأبيض. (المُعَرِّب)

[2] الاسم تشيتشيفيتسين مشتق من كلمة: «تشيتشيفيستا»، وتعني في الروسية «عدس». (المُعَرِّب)

وقالت كاتيا لسونيا وهما تأويان إلى الفراش: إياكِ أن تقولي لماما. سيحضر لنا فولوديا من أمريكا ذهبًا وعاجًا، ولو قلتِ لماما فلن يسمحَا له بالذهاب.

وقُبيل ليلة الميلاد ظل تشيتشيفيتسين يَفحص خريطة آسيا طوال النهار ويُسجِّل أشياء ما، بينما مَضى فولوديا يطوف بالغرف عابسًا، شاردًا ومنتفخًا كأنما لدغته نحلة. وفي إحدى المَرَّات تَوقَّف أمام الأيقونة في غرفة الأولاد ورسم علامة الصليب، وقال: يا إلهي، سامِح عبدك المُذْنِب! يا إلهي، احفظ أمي المسكينة البائسة!

وفي المساء أجهش بالبكاء. وعندما مضى إلى فراشه عانق أباه وأمه وأخواته طويلًا. كانت كاتيا وسونيا تُدركان الأمر، أما الأخت الصغرى ماشا فلم تفهم شيئًا، لم تفهم شيئًا على الإطلاق، ولكنها عندما نظرَت إلى تشيتشيفيتسين شردَت وقالت وهي تَتنهَّد: دادة تقول عندما يأتي الصيام ينبغي أن نأكل الحمص والعدس.

وفي يوم الميلاد نهضَت كاتيا وسونيا في ساعة مُبكِّرة، وذهبتَا لِترَيا كيف سيهرب الصَّبِيَّان إلى أمريكا. وتَسلَّلتَا إلى باب غرفتهما.

– إذن فلن تذهب؟ قال تشيتشيفيتسين بغضب: قل: لن تذهب؟

وبكى فولوديا بصوت خافِت وهو يقول: يا إلهي! كيف أذهب؟ إنني أُشفق على ماما.

– يا أخي الأصفر الخَدَّين، أرجوك، هيا نذهب! ألم تُؤكِّد لي بأنك ستذهب. تغريني بالذهاب وعندما تحين الساعة تَجبُن!

– أنا ... أنا، ... لم أَجبُن، ولكني ... أشفق على ماما.

– قل: ستذهب، أم لا؟

– سأذهب، ولكن ... انتظر. أريد أن أبقى قليلًا في البيت.

فقال تشيتشيفيتسين بحزم: إذَن سأذهب وحدي! سأمضى بدونك. كان يَدَّعي أنه يريد أن يصيد النمور ويحارب، إذن أعطني طلقاتي!

وأجهش فولوديا ببكاء مرير، حتى إن شقيقتيه لم تتمالَكا نفسيهما وبكيتا أيضًا. وساد الصمت.

وعاد تشيتشيفيتسين يسأل: إذن فلن تذهب؟

– سأ ... سأذهب.

– هيا البس إذن!

ومضى تشيتشيفيتسين، لكي يقنع فولوديا، يُثنِي على أمريكا، ويزأر كالنمر، ويقلد الباخرة، ويثب، ووعد فولوديا بأن يعطيه كل ما يحصل عليه من عاج وجلود الأُسود والنمور.

وبدا هذا الصبي النحيل الأسمر، ذو الشعر الخشن والوجه المُغطى بالنمش، بدَا لِلفتاتَين صبيًّا رائعًا لا مثيل له. لقد كان بطلًا، شخصًا حازمًا مِقدامًا، وكان يزأر بحيث يُخيَّل إليك وأنت خلف الباب أنه نَمِر أو أَسد حقيقي.

وعندما عادت الفتاتان إلى غرفتهما لتُبدِّلا ملابسهما، قالت كاتيا بعينين مليئتين بالدموع: آون، كم أنا خائفة!

وقبل أن يجلسوا إلى الغداء في الساعة الثانية كان كل شيء هادئًا، ولكن عندما جلسوا إلى المائدة اكتشفوا أن الصبيين غير موجودين في المنزل. وأرسَلُوا من يبحث عنهما في غرفة الخدم، وفي الإصطبل، وفي بيت الخولي، ولكنهما لم يكونا هناك. وأرسَلُوا في أثرهما إلى القرية فلم يجدوهما هناك. ثم تناولوا الشاي بعد ذلك بدون الصبيين. وعندما جلسوا إلى العشاء كانت الأم في غاية القلق حتى إنها بَكَت. وفي الليل أرسَلُوا من يبحث عنهما في القرية الثانية، ثم بحثوا عند النهر بالمصابيح ... يا إلهي، أي هرج حدث؟!

وفي اليوم التالي جاء رئيس الشرطة، وجلس في غرفة الطعام يكتب ورقًا ما. وبكت الأم.

ولكن ها هي ذي عربة تتوقف بجوار المدخل. ويتصاعد البخار من ثلاثة جياد بيضاء.

وصاح أحدهم في الفناء: فولوديا وصل!

وصرخت نتاليا وهي تندفع إلى غرفة الطعام: فولوديا وصل!

ونبح «ميلورد» بصوته الغليظ: «هَوْ! هَوْ!» واتَّضح أن الصَّبيَّين استوقَفا في المدينة، في نُزُل المسافرِين «وأخذَا هناك يسألان: أين يباع البارود؟» وما إن دلف فولوديا إلى الدهليز حتى انفجر مُنتحبًا وارتمى على صدر أمه.

وأخذَت الفتاتان ترتعشان وهما تُفكِّران فيما سيحدث بعد ذلك، وسمعَتا الأب وهو يسوق فولوديا وتشيتشيفيتسين إلى غُرفة مكتبه؛ حيث تحدَّث إليهما طويلًا. وتحدَّثَت الأم أيضًا وهي تبكي.

قال الأب: هل هذا ممكن؟ لو عَلِموا، لا قدر الله، في المدرسة، فسوف تُفصلان. وأنت يا سيد تشيتشيفيتسين، ألا تخجل؟ عيب عليك! أنت المُحرِّض وآمل أن يعاقبك والداك. هل هذا ممكن؟ أين قضيتما الليل؟

فأجاب تشيتشيفيتسين بفخر: في المحطة!

وبعد ذلك، تمدَّد فولوديا وأخذوا يضعون على رأسه المناشف المبللة بالخل. وأرسلوا برقية إلى مكان ما، وفي اليوم التالي وصلَت امرأة، هي أم تشيتشيفيتسين، وأخذَت ابنها.

وعندما كان تشيتشيفيتسين يَستعدُّ للرحيل ارتسمَت على وجهه ملامح الصرامة والكبرياء، وودع الفتيات دون كلمة، غير أنه أخذ من كاتيا كراسة وكتب فيها للذكرى: «مونتيغومو، مخلب الصقر».

المعلم

كان فيودور لوكيتش صيسويف، المُعلِّم بمدرسة الفابريقة التي تنفق عليها «مانيفاتورة كوليكين وأبنائه»، يَستعدُّ لحفل الغداء الرسمي. وكانت إدارة الفابريقة تُقيم سنويًّا، بعد انتهاء الامتحانات؛ حَفْلَ غداء يحضره مُفتِّش المدارس الشعبية وكل مَن شهدوا الامتحانات وإدارة الفابريقة. ورغم الطابع الرسمي لتلك الحفلات فَقد كانت تستمر دائمًا فترة طويلة، وتتميز بالمرح والطعام اللذيذ؛ إذ يَنسى المعلِّمون عِبادة الألقاب ولا يَتذكَّرون إلا جهودهم الشريفة، فيأكلون حتى الشبع، ويَسكرون في انسجام، ويُثرثِرون إلى أن تُبحَّ أصواتهم، وينصرفون في ساعة مُتأخِّرة من المساء تدوي في البلدة كلها أصوات غنائهم وقُبلاتهم. وقد شهد صيسويف من هذه الحفلات ثلاث عشرة حفلة، بَقدْر عدد السنوات التي عمل فيها بمدرسة الفابريقة.

وسعى، وهو يستعد للحفلة الرابعة عشرة، أن يضفي على نفسه هيئة احتفالية لائقة إلى أقصى حَد. فقضى ساعة كاملة يُنظِّف بالمقشة حُلَّته السوداء الجديدة، ووقف أمام المرآة نفس المدة تقريبًا وهو يرتدي قميصًا عصريًّا. وانحشَرَت أزرار أساور القميص في العروات، فأثارَ ذلك عاصفة من الشكاوى والوعيد واللوم ضد زوجته. وخارَت قُوَى الزوجة المسكينة وهي تجري وتدور حوله. وفي النهاية أصبح هو أيضًا مُنهكًا تمامًا. وعندما جاءُوه من المطبخ بحذائه النظيف لم يجد في نفسه القدرة على انتعاله. فاضطر أن يستلقي ليستريح قليلًا، وشرب ماء.

وتنهَّدَت زوجته قائلة: كم أصبحتَ ضعيفًا! كان من الأفضل ألا تذهب إلى هذا الحفل.

فنهرها المعلم بغضب: وفِّري نصائحك أرجوك!

كان متكدرًا للغاية؛ لأنه لم يكن راضيًا أبدًا عن الامتحانات الأخيرة. وقد مرت هذه الامتحانات بصورة رائعة، وحصل جميع صبيان المرحلة الأخيرة على شهادات وجوائز،

وأبدَى الرؤساء، من الفابريقة والجهات المسئولة، ارتياحهم إلى ما تَحقَّق من نجاح، ولكن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة إلى المُعلِّم؛ لقد أحزنه أن التلميذ بابكين، الذي لم يكن يخطئ أبدًا في الكتابة، ارتكب ثلاثة أخطاء في امتحان الإملاء؛ كما لم يستطع التلميذ سرجييف، بسبب الاضطراب، معرفة حاصل ضرب ١٧ في ١٣. لقد اختار المفتش، وهو رجل شاب قليل الخبرة، موضوعًا صعبًا للإملاء، أما مُعلِّم المدرسة المجاورة؛ لابونوف، الذي طلب منه المفتش أن يملي الموضوع، فقد تصرف «بصورة لا رفاقية»، فعندما كان يملي كان ينطق الكلمات كما تُلفَظ لا كما تُكتَب، وكأنما كان يلوكها في فمه.

وبعد أن انتعل المعلِّم حِذاءه بمساعدة زوجته، وألقى على نفسه نظرة أخرى في المرآة، تناول عصاه المُعقَّدة، ومضى إلى حفل الغداء. وقرب باب شقة مدير الفابريقة؛ حيث يقام الاحتفال، وقع له حادث غير سار. فقد داهمه السُّعال فجأة ... وبِسبَب هزات السعال طارت القُبَّعة من على رأسه، وسقطَت العصا من يده، وعندما خرَج المعلِّمون والمفتش من شقة المدير ركضًا وقد سمعوا سعاله، وجدُوه جالسًا على الدَّرجة السفلي يَتصبَّب عرقًا.

ودهش المفتش وسأله: أهو أنت يا فيودور لوكيتش؟ إذن، لقد جئت؟

– وماذا هناك؟

– من الأفضل أن تلزم البيت يا عزيزي. أنت اليوم مريض جدًّا.

– أنا اليوم كما كنتُ بالأمس. أما إذا كان حضوري يضايقكم فأستطيع أن أنصرف.

– ما هذا الكلام يا فيودور لوكيتش؟ ما الداعي لأن تقول هذا؟ أهلًا ومرحبًا! على العموم لسنا نحن أصحاب الحفل بل أنت. بالعكس نحن في غاية السرور، بالشرف!

كان كل شيء معدًّا للاحتفال في شقة مدير الفابريقة. ففي غرفة الطعام الكبيرة، ذات نُسَخ اللوحات الزيتية الألمانية على حيطانها وأريج زهور الجيرانيوم ورائحة طلاء الأثاث، امتدَّت طاولتان؛ واحدة كبيرة للغداء؛ وأخرى أصغر منها للمزات. ومن النافذة المسدلة الستائر تسلل بوهن ضوء الظهيرة القائظ ... وبدَا ظلام الغرفة الغسقي، والمَناظر السويسرية على الستائر، والجيرانيوم، والمرتدلا المُقطَّعة شرائح رقيقة في الأطباق ... بدَا كل ذلك مشوبًا بالسَّذاجَة وعاطِفيَّة المُراهِقات، ويُشبِه صاحب الشقة نفسه؛ ذلك الألماني الصغير البشوش، ذا الكرش المدور والعينين المداهنتَين الودودتَين. وكان أدولف أندرييتش بروني (هكذا كان يدعى صاحب الشقة) يهرول بجوار طاولة المَزَّات، كأنما يطفئ حريقًا، ويملأ الكئوس، ويضع المَزَّة في الأطباق، وهو يسعى بكل جهده إلى إرضاء الجميع، وإضحاكهم وإظهار مودته. كان يربِّت على الأكتاف ويحدِّق في الوجوه، ويقهقه، ويفرك راحتيه، وباختصار كان يتمسح متوددًا ككلب طيب.

وقال بصوت متهدج عندما رأى صيسويف: فيودور لوكيتش ... مَن أرى؟! يا لها من سعادة! لقد جئتَ رغم مرضك! يا سادة، اسمحوا لي أن أسعدكم ... فيودور لوكيتش جاء!

كان المُرَبُّون يتزاحمون حول طاولة المَزَّات وهم يأكلون. وتَجهَّم صيسويف؛ إذ لم يعجبه أن رفاقه بدءوا في تناول الطعام والشراب ولم ينتظروه. ورأى بينهم لابونوف؛ ذلك الذي أملى موضوع الإملاء في الامتحان، فاقترب منه وقال:

– هذه ليست روحًا رفاقية! نعم! السادة المحترمون لا يُمْلِون هكذا!

فقال لابونوف مقطبًا: يا إلهي، ما زلتَ تتحدث عن نفس الشيء! ألم تمل ذلك؟

– نعم، عن نفس الشيء! تلميذي بابكين لم يكن يخطئ أبدًا! أنا أعرف لماذا أملَيتَ بهذه الطريقة. كنت تريد أن يرسب تلميذي؛ لكي تبدو مَدرستك أفضل ... أنا فاهم كل شيء!

فدمدم لابونوف بغضب: ما لكَ تَتمحَّك؟ لماذا تَتحرَّش بي بحق الشيطان؟ فتدخَّل المفتش بوجه يتصنع البكاء: كفاكم يا سادة! لا داعي للاحتداد من أجل أشياء تافهة. ثلاثة أخطاء ... لا أخطاء ... أليس الأمر سيانًا؟

– كلَّا، ليس سيانًا. تلميذي بابكين لم يرتكب أبدًا أي خطأ.

فمضى لابونوف يقول وهو يزفر بانزعاج: إنه يَتحرَّش بي! يستغل وضعه كرجل مريض ويفترس الجميع! ولكني يا سيدي لن أراعي أنك مريض!

فصاح صيسويف بغضب: دعوا مَرضي وشأنه، ما دخلكم بذلك؟ الكل يرددون: مريض! مريض! مريض! لا حاجة بي إلى مواساتكم! ثم لماذا قررتم أنني مريض؟ كنتُ مريضًا قبل الامتحانات، هذا صحيح، أما الآن فقد شُفيتُ تمامًا، ولم يبقَ إلا بعض الضعف.

فقال مُدرِّس الدِّين، الأب نيقولاي، وكان قسًّا شابًّا، يرتدي غفَّارة بُنِّية أنيقة وسروالًا مسدلًا فوق الحذاء الطويل: أحمد الله أنك شُفِيت. ينبغي أن تفرح، ولكنك تنفعل وما شابه ذلك.

فقاطعه صيسويف: وأنت أيضًا فيك الخير! الأسئلة ينبغي أن تكون مباشرة، واضحة، لكنك ألقيت عليهم ألغازًا. هذا لا يجوز!

واستطاعوا بعد جهود مشتركة أن يُهدِّئوه، وأجلَسوه إلى المائدة. وظل طويلًا ينتقي أي شراب يشرب، ثم قطَّب وجهه وشرب نصف كأس من شراب منزلي أخضر، وبعدها شد إليه قطعة كعكة وأخذ يستبعد من حشواتها بعناية قطع البصل والبيض. ومن القضمة الأولى خيِّل إليه أن الكعكة قليلة الملح. فملَّحها، وعلى الفور أبعدها عنه بغضب؛ لأنها أصبحت زائدة الملح.

أجلسوا صيسويف على الغداء بين المفتش وبرونيز، وفور الفراغ من الحساء، بدأتِ الأنخاب حسب التقليد المتبع من زمان.

ونهض المفتش، فقال: يَسرُّني ويُشرِّفني أن أتوجه بالشكر إلى راعيي المدرسة الغائبَين عن الحفل؛ الشقيقَيْن دانيلا بتروفيتش و... و... و... فَذكَّره بروني: وإيفان بتروفيتش.

– وإيفان بتروفيتش كوليكين، اللذين لم يبخلا بالمال على المدرسة، وأقتَرِح أن نشرب هذا النخب في صحتهما ... فقفز بروني كالملدوغ وقال: ومِن جَانِبي أقترح أن نشرب في صحة مُفتِّش المدارس الشعبية المحترم بافل جناديفتش نداروف.

تحرَّكَت المَقاعد، وتبسمت الوجوه، وبدأ قرع الكئوس المعهود. وكان النخب الثالث مخصصًا دائمًا لصيسويف. وفي هذه المَرَّة أيضًا نهض وراح يتكلم. اكتسب وجهه سيماء الجِدِّية، وبعد أن تنحنح أعلن قبل كل شيء أنه لا يملك موهبة الفصاحة، ولم يستعد لإلقاء الكلمة. ثم قال بعد ذلك: إنه خلال أربعة عشر عامًا من الخدمة واجه الكثير من المؤامَرات والدسائس بل وحتى الوشايات ضده، وإنه يعرف أعداءه والواشِين به، ولكنه لا يريد أن يُفصِح عن أسمائهم «خوفًا من أن يفسد شهية البعض» ورغم المؤامرات فقد احتَلَّت مدرسة كوليكين المركز الأول في المحافَظة كلها، «ليس من الناحية المعنوية فحسب، بل من الناحية المادية أيضًا».

ومضى يقول: في كل مكان يتقاضى المُعلِّمون ٢٠٠ أو ٣٠٠ روبل، أمَّا أنا فأتقاضى ٥٠٠ روبل، وعلاوة على ذلك فقد جرى تصليح شقتي بل وتأثيثها على حساب الفابريقة. وفي هذا العام غطيت جميع جدران الشقة بالورق الجديد.

ثم أفاض المعلم بعد ذلك في الحديث عن السخاء في تزويد التلاميذ بالأدوات المكتبية بالمقارنة مع تلاميذ المدارس الحكومية ومدارس المجالس المحلية. والمدرسة مَدينَة بكل ذلك، حسب رأيه، لا لأصحاب الفابريقة، المقِيمِين في الخارج ولا يعلمون ربما حتى بوجود المدرسة، بل للشخص الذي يملك، رغم أصله الألماني وعقيدته البروتستانتية، روحًا روسية. تحدث صيسويف طويلًا، وهو يتوقف لالتقاط أنفاسه، محاولًا أن يضفي على حديثه أسلوبًا فخمًا معقدًا، فجاءت كلمته مُقبضة مُنفِّرة. وأشار عدة مرات إلى أعداء له، ولجأ إلى التلميح، وكرر ما قاله، وتنحنح بينما كانت أصابعه تتحرك بصورة قبيحة. وأخيرًا أدركه التعب، وتصبَّب عرقه، وأخذ يتحدث بصوت خافت لاهث، كأنما يحدِّث نفسه، وأنهى حديثه بصورة مضطربة:

وهكذا، أقترح أن نشرب في صحة بروني، أعني في صحة أدولف أندرييتش الذي يجلس هنا بيننا ... وعمومًا ... ومفهوم.

وعندما أنهى كلمته تَنفَّس الجميع الصعداء، كأنما رش أحدهم في الجو رذاذًا باردًا فبدَّد الحر الخانق. ويبدو أن بروني وحده هو الذي لم يشعر بالنفور. فقد تهلَّلت أساريره، وقلب عينيه العاطفيَّتَين، وهزَّ يد صيسويف بتأثُّر، وتمَسَّح متوددًا من جديد كالكلب.

وقال وهو يضع يده اليسرى على قلبه: أوه، أشكرك! أنا سعيد جدًّا بأنك تفهمني! أتمنى لك كل التوفيق، من صميم قلبي! لكني أريد أن أقول إنك تبالغ في تقدير دوري. المدرسة مدينة بازدهارها لك، لك وحدك يا صديقي المبجل فيودور لوكيتش! لولاك لما تميزت بشيء عن المدارس الأخرى! إنك تظن أن هذا الألماني يتحدث مجاملًا، يتكلم بلباقة. ها ... ها! كلا يا عزيزي فيودور لوكيتش، إنني إنسان شريف ولا أجامل أبدًا. وإذا كنا ندفع لك خمسمائة روبل في السنة فهذا يعني أنك عزيز علينا. أليس كذلك؟ يا سادة، ألست أقول الحق؟ ما كنا لندفع لأحد غيرك مثل هذا المبلغ ... عفوك، إن المدرسة الجيدة هي شرف للفابريقة!

فقال المفتش: أريد أن أعترف لكم بصراحة بأن مدرستكم حقًّا غير عادية. لا تظنوا هذا مديحًا. على الأقل أنا لم أرَ مدرسة مثلها طوال حياتي. لقد حضرت الامتحانات عندكم وكنتُ طوال الوقت مندهشًا ... ما أروعهم من أولاد! يعرفون الكثير، ويجيبون عن الأسئلة بطلاقة، وعلاوة على ذلك فهم من نوع خاص، ليسوا مذعورين، صادقون ... ومن الواضح أنهم يحبونك يا فيودور لوكيتش. أنت مربٍّ حتى النخاع، لا بد أنك وُلِدت معلمًا. ولديك كل المؤهلات لذلك: التوجه الموروث، والخبرة الطويلة، وحب المهنة ... والمرء ليدهش ... فرغم ضعف صحتك تمتلك كل هذه الطاقة، وهذه المعرفة العميقة بالعمل، وهذه الـ ... التفهم ... الصلابة والثقة! صحيح ما قاله أحدهم في مجلس المدرسة من أنك شاعر في مهنتك ... نعم بالضبط، شاعر!

وانطلق جميع الحاضرين في صوت واحد يتحدثون عن موهبة صيسويف البارزة، وكأنما انفجر سد يحجز المياه؛ إذ تدفقت الكلمات الصادقة المعجبة التي لا يقولها المرء عندما يكون مفيقًا يحسب حساب الكلمات ويحترس. ونسوا كلمة صيسويف، وطبعه الذي لا يحتمل وتعبير وجهه الشرير الكريه. انطلقت ألسنة الجميع، حتى المدرسين الجدد الصامتين الوجلين؛ أولئك الشبان البؤساء المنكمِشين الذين لم يكونوا يخاطبون المفتِّش إلا بـ «يا صاحب المعالي». وكان من الواضح أن صيسويف في مجاله شخصية مشهورة.

ولَمَّا كان قد ألف النجاح والمديح خلال أربعة عشر عامًا من الخدمة، فقد أصغى بلا مبالاة إلى طنين محبيه المعجب.

وبدلًا منه كان بروني يستمتع بالإطراء. كان الألماني يتصيد كل كلمة ويتهلل، ويصفق، ويتضرج خجلًا، كأنما كان المديح موجهًا إليه لا إلى المعلم.

وكان يصيح: برافو، برافو! لقد خمَّنْت أفكاري! ... ممتاز!

ويحدق في وجه المعلم كأنما يريد أن يشاركه سعادته. وفي النهاية لم يطق صبرًا فقفز ناهضًا، وصاح فطغى صوته الرفيع المعول على جميع الأصوات:

– يا سادة! اسمحوا لي بكلمة. هس! لا أجد ما أرد به على كل كلماتكم إلَّا أن أقول: إن إدارة الفابريقة لن تُبقي في عنقها دين فيودور لوكيتش! وصمت الجميع. ورفع صيسويف عينيه نحو وجه الألماني المتورد.

– ومضى بروني يقول وقد خفض صوته، وأضفى على وجهه سيمياء الجدية: إننا نعرف كيف نقدر الناس. وردًّا على كل ما قلتموه أود أن أخبركم بأن ... أسرة فيودور لوكيتش ستكون مؤمَّنة، وأنه في هذا الصدد قد وضعنا لها رصيدًا في البنك منذ شهر.

نظر صيسويف مستفهِمًا إلى الألماني ثم إلى رفاقه وكأنما يستغرب: لماذا ستؤمِّن أسرته وليس هو نفسه؟ وهنا قرأ في جميع الوجوه، وفي جميع العيون الجامدة المحدقة فيه شيئًا ليس بالمواساة أو الشفقة، وهو ما لم يكن يطيقه، بل شيئًا آخر، ناعمًا، رقيقًا، وفي نفس الوقت منذرًا بالشر إلى أقصى حد، شيئًا يشبه الحقيقة الرهيبة، بعث على الفور في جسده كله البرودة، وفي روحه يأسًا لا يوصف. وفجأة قفز واقفًا وقد شحب وجهه وانقلب، وأمسك برأسه. ووقف هكذا حوالي ربع دقيقة، وهو يتطلع أمامه في رعب، محدقًا في نقطة واحدة، كأنما رأى أمامه ذلك الموت القريب الذي تحدث عنه بروني، ثم جلس وأجهش بالبكاء.

وسمع وهو يبكي أصواتًا منفعلة:

– كفى! ماذا بك؟ هاتوا ماء! اشرب قليلًا!

وبعد قليل هدأ المعلم إلَّا أن المرح السابق لم يعاود المحتفلين. وانتهى الغداء في صمت وتجهُّم وفي وقت مبكر بكثير عما كان في السنوات السابقة.

وعندما عاد صيسويف إلى البيت كان أول ما فعله أن نظر في المرآة وقال في نفسه وهو ينظر إلى عينيه بالدوائر السوداء المحيطة بهما، وإلى خديه الغائرين: «ما كان ينبغي طبعًا أن أستسلم للبكاء هناك! لون وجهي اليوم أحسن بكثير مما كان بالأمس. عندي فقر دم، والتهاب في المعدة، والسعال بسبب المعدة.»

وإذ ارتاح إلى ذلك وأخذ يخلع ملابسه ببطء وينظف بالمقشة حلته السوداء مدة طويلة، ثم طواها بعناية وأغلق الكومودينو عليها.

ثم اقترب من الطاولة حيث رصت كومة من دفاتر التلاميذ، فانتقى من بينها دفتر بابكين، وجلس واستغرق في تأمل الخط الطفولي الجميل. وفي تلك الأثناء، وبينما كان يتفحص إملاء تلاميذه، كان طبيب المجلس المحلي جالسًا في الغرفة المجاورة، ويقول همسًا لزوجة صيسويف إنه ما كان يجوز السماح بالذهاب إلى الحفل لرجل لم يبق أمامه في الحياة، على ما يبدو، أكثر من أسبوع.

فولوديا

في يوم أحد صيفي، وفي حوالي الساعة الخامسة مساء كان فولوديا، الفتى ذو السبعة عشر عامًا، القبيح الوجه، العليل والخجول؛ جالسًا في عريشة بحديقة دار آل شوميخين الريفية، مستسلمًا للضجر. وجرت أفكاره المُقبضة في ثلاثة اتجاهات؛ فأولًا: كان عليه غدًا الاثنين أن يؤدي امتحان الرياضيات، وكان يعرف أنه إذا لم يُوفَّق غدًا في حَل المسألة التحريرية، فسوف يفصلونه؛ لأنه قضى سنتين في الصف السادس، وكانت درجة أعمال السنة في الجبر لديه ٢ و٣ / ٤.[١]

وثانيًا: كان وجوده عند آل شوميخين؛ هؤلاء الأغنياء مُدَّعي الأرستقراطية يثير في نفسه شعورًا مستمرًّا بالمَهانة. كان يخيَّل إليه أن مدام شوميخينا وبنات أخواتها ينظرن إليه وإلى maman نظرتهن إلى الأقارب الفقراء والطفيليين، وأنهن لا يَحترِمن maman ويسخرن منها. وذات مرة سمع صدفة مدام شوميخينا وهي تَتحدَّث في الشُّرفة مع ابنة خالتها آنَّا فيودوروفنا وتقول إن maman ما زالت تَتصابَى وتتزوَّق، وإنها لا تُسدِّد أبدًا خسائرها في اللعب، ولديها وَلَع بأحذية الغير وتَبغِهم. وكان فولوديا يتوسَّل كل يوم إلى maman ألَّا تذهب إلى آل شيوميخين، ويوضح لها الدور المهين الذي تلعبه عند هؤلاء السادة، وكان يَحثُّها ويتطاول عليها، ولكن هذه المرأة المدلَّلة الطائشة، التي بدَّدَت في حياتها ثروتين؛ ثروتها وثروة زوجها، والميالة دومًا إلى المجتمع الراقي، لم تكن تَفهمه، فكان على فولوديا أن يَصحبَها مرتين في الأسبوع إلى الدار الريفية المَقيتة.

---

[١] وفق نظام التعليم الروسي كانت النهاية العظمى للدرجات هي خمس درجات، والحاصل على أقل من ٣ درجات يعتبر راسبًا. (المُعَرِّب)

وثالثًا: لم يكن في وُسعِه أن يَتخلَّص لحظة واحدة من شعور غريب غير مريح، كان جديدًا عليه تمامًا … فقد خُيِّل إليه أنه قد وقع في حب آنَّا فيودوروفنا؛ ابنة خالة مدام شوميخينا وضَيفَتها. كانت سيدة نشيطة، عالية الصوت ومازحة، في حوالي الثلاثين، عَفِيَّة، قوية، وردية البشرة، ذات كَتِفَين مُستديرَتين، وذَقْن مستدير سَمين، وابتسامة دائمة على شفتيها الدقيقتين. لم تَكن جميلة ولا صبية، وكان فولوديا يدرك ذلك جيدًا، ولكنه لسبب ما لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فيها والنظر إليها، عندما كانت وهي تلعب الكروكيت، تهز كتفيها المستديرتين وتُحرِّك ظَهْرَها الأملس، أو عندما كانت تَتهالَك في المقعد بعد ضحك طويل ورَكْض على السُّلَّم، وتغمض عينيها وهي تَلهث مُدَّعية أنها تشعر في صدرها بالضيق والاختناق. وكانت مُتزوِّجة. وكان زوجها، وهو معماري رصين، يحضر مرة في الأسبوع إلى الدار الريفية، فَيشبع نومًا، ثم يعود أدراجه إلى المدينة. وقد بدأ هذا الشعور الغريب يُراود فولوديا عندما وَجَد نَفْسَه، بلا سبب يمقتُ هذا المعماري، وفي كل مرة يرحلُ فيها هذا الرجل إلى المدينة يحس بالفرح.

وها هو ذا الآن، وهو جالس في العريشة يفكر في امتحان الغد وفي maman التي يسخرون منها، يشعر برغبة قوية في رؤية نيوتا (هكذا كان آل شوميخين يدعون آنَّا فيوروروفنا)، وفي سماع ضحكها وحفيف فستانها … ولم تكن هذه الرغبة تشبه ذلك الحب النقي، الشاعري، الذي كان يعرفه من الروايات ويحلم به كل مساء عندما يأوي إلى الفِراش؛ بل كانت رغبة غريبة، غير مَفهومة، يَخجَل منها ويخشاها، كأنها شيء قبيح للغاية ومُلوَّث، من الصعب أن يعترف به حتى لنفسه.

وقال لنفسه: ليس هذا حبًّا. لا أحد يقع في حب سيدات في الثلاثين ومتزوِّجات … هذه مجرد قصة غرامية صغيرة … نعم، قصة غرامية.

وبينما مضى يفكر في هذه القصة الغرامية تَذكَّر خَجَله الذي لا يقهر، وخُلوَّ وجهه من الشارب، وامتلاءه بالنمش، وعينيه الضَّيقتَين، ووضَع نفسه في الخيال بجوار نيوتا، فبدَا له اجتماع هذا الزواج مستحيلًا. عندئذٍ سارع إلى تَخيُّل نفسه جميلًا، جريئًا، حاضر البديهة، متأنِّقًا حسب آخِر موضة. وفي قمة أحلامه، وهو جالس في زاوية العريشة المظلمة متكورًا يُحدِّق في الأرض، تَردَّد وَقْع خطوات خفيفة. كان أحدهم يسير في الممر على مهل. وسرعان ما خفَتَت الخطوات ولاح شيء أبيض عند مدخل العريشة وسأل صوت نسائي: هل يوجد هنا أحد؟

وعرف فولوديا هذا الصوت فرفع رأسه مذعورًا.

– مِن هنا؟ سألَت نيوتا وهي تدخل العريشة. آه، أهو أنت يا فولوديا؟ ماذا تفعل هنا؟ تُفكِّر؟ كيف يمكن أن تفكر، تفكر، تفكر طوال الوقت ... بهذه الطريقة ستصاب بالجنون!

نهض فولوديا ونظر إلى نيوتا مرتبكًا. كانت عائدة لتوها من السباحة وتدلَّت على كتفها ملاءة وفوطة، وبرزَت من تحت منديل رأسها الحريري الأبيض خصلات شَعْرها المُبتَلَّة الملتصقة بجبينها. وفاحت منها رائحة رطبة مُنعِشة، رائحة النهر وصابون زيت اللوز. وكانت تلهث من السير السريع. وكان زِر بلوزتها العلوي مفكوكًا، فرأى فولوديا عنقها وصدرها.

وسألَت نيوتا وهي تشمل فولوديا بنظرتها: ما لك ساكتًا؟ ليس من الأدب أن تصمت عندما تكلمك سيدة. يا لك من عجل يا فولوديا! دائمًا تجلس صامتًا وتفكر، كأنك أحد الفلاسفة. ليس فيك حيوية ولا نار أبدًا! حقًّا أنت كريه ... وفي مثل سنك ينبغي أن تعيش، وتقفز، وتثرثر، وتغازل النساء وتعشق.

حدَّق فلوديا في الملاءة التي تثبتها ذراع بيضاء ممتلئة، وراح يفكر.

وقالت نيوتا باستغراب: إنه ساكت! هذا غريب فعلًا ... اسمع، كُن رجلًا! حسنًا، ابتسم على الأقل! أفٍّ، يا لك من فيلسوف كريه! وضحكَت: أتدري يا فولوديا لماذا أنت عجل هكذا؟ لأنك لا تغازل النساء. فلماذا لا تغازلهن؟ صحيح ليست هنا آنسات، ولكن لا شيء يمنعك من مغازلة السيدات! لماذا لا تغازلني مثلًا؟

أصغى فولوديا وأخذ يحك صدغيه بِتفكير صعب مُتوتِّر.

واستطردَت نيوتا تقول وهي تنزع يده عن صدغه: المُتكبِّرون وَحْدَهم هم الذين يصمتون ويحبون العزلة. أنت مُتكبِّر يا فولوديا! لماذا تنظر إليَّ شزرًا؟ من فضلك انظر مباشرة في وجهي! هيا، هيا يا عجل!

وقرَّر فولوديا أن يتكلم. ورغبة منه في أن يبتسم أرعش شفته السفلى وطرف بعينيه، ومد يده ثانية إلى صدغه.

ودمدم: أنا ... أنا أحبك!

رفعَت نيوتا حاجبيها بدهشة وضحكت.

وغنَّت مثل مغنيات الأوبرا عندما يسمعن شيئًا فظيعًا: ما الذي أسمعه؟ كيف؟ ماذا قلت؟ أعد ... أعد.

فأعاد فولوديا: أنا ... أنا أحبك!

وتقدَّم نصف خطوة نحو نيوتا مسلوب الإرادة وهو لا يفهم ولا يدرك شيئًا، وأمسك بذراعها فوق المرفق. وغامَت عيناه ودمعتا، وتركَّز العالم كله في فوطة كبيرة فاحت منها رائحة النهر.

وسمع ضحكًا مرحًا وصوتًا يقول: برافو، برافو! لماذا سكَت؟ أنا أريد أن تتكلم! هيا!

وعندما رأى فولوديا أن نيوتا لا تمنعه من الإمساك بذراعها تطلع إلى وجهها الضاحك، ثم أحاط خصرها بذراعيه بطريقة فجة غير مريحة، والتقى ساعداه خلف ظهرها. كان ممسكًا بها من خصرها بكلتا يديه، بينما رفعت هي ذراعيها إلى قفاه فلاحت غمازتان من مرفقيها، وأخذت تُسوِّي شعرها تحت المنديل وتقول بصوت هادئ: ينبغي يا فولوديا أن تكون ماهرًا، مهذبًا، رقيقًا ولن تستطيع أن تكون كذلك إلا تحت تأثير الصحبة النسائية. أوه، ولكن ما هذا الوجه المقبض ... الشرير؟ ينبغي أن تتكلم، وتضحك ... نعم يا فولوديا، لا تكن فظًّا، فأنتَ شابٌّ وما زال أمامك الوقت لتشبع من الفلسفة. هيا دعني، سأذهب! قلت لك دعني!

وخلصت خصرها بسهولة، وخرجت من العريشة وهو تُدندن بلحن ما. وبقيَ فولوديا وحده. سوَّى شعره وابتسم، وذرع العريشة عدة مرات من ركن لركن، ثم جلس على الأريكة، وابتسم مرة أخرى. كان يشعر بخجل لا يُطاق، حتى إنه دهش من أن الخجل البشري يمكن أن يبلغ هذه الدرجة من الحدة والقوة. ومن الخجل أخذ يبتسم ويتمتم بكلمات غير مترابطة ويشيح بيديه.

كان خجلًا من أنه عومل منذ لحظات كما يعامل الأطفال، كان خجلًا من وجله، والأهم من ذلك؛ لأنه تجاسر على تطويق خصر امرأة فاضلة متزوجة، بالرغم من أنه لا عمره، ولا مميزاته الخارجية، ولا وضعه الاجتماعي، لم يكن يعطيه — كما بدَا له — أي حق في ذلك.

وهبَّ واقفًا، وخرج من العريشة، ومضى دون أن يتلفت إلى داخل الحديقة بعيدًا عن الدار.

وفكَّر وهو يمسك برأسه: «أوه، لو نرحل بسرعة من هنا! يا إلهي، بسرعة!»

كان القطار الذي ينبغي أن يستقله فولوديا مع maman سيتحَرَّك الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين. وبقي إلى موعد القطار حوالي ثلاث ساعات، ولكن فولوديا كان يود بكل سرور لو رحل إلى المحطة الآن، دون انتظار maman.

وقُبَيل الساعة الثامنة تَوجَّه إلى الدار. واكتسبَت هيئته كلها طابع الحزم: فليكن ما يكون! وقرَّر أن يدخل الدار بجرأة، وينظر في العيون مباشرة. ويتكلم بصوت عالٍ مَهما كان الأمر.

عَبْر الشرفة، والصالة الكبيرة، وحجرة الجلوس، وهناك توقف قليلًا ليسترد أنفاسه. ومن هنا سمع أصوات السيدات وهن يتناولن الشاي في غرفة الطعام المجاورة. كانت مدام شوميخينا وmaman ونيوتا يَتحدَّثن عن شيء ما ويضحكن.

وأصاخ فولوديا السمع.

كانت نيوتا تقول: صَدِّقنَنِي! أنا لم أصدق عينيَّ! عندما أخذ يبوح لي بحبه، بل وتَصوَّرْن، أحاط بخصري، لم أعرف فيه فولوديا القديم. وبالمناسبة، إنه مهذب! عندما قال إنه يحبني كان في عينيه شيء وحشي، كما في عيون الشركس.

وتأوَّهَت maman: معقول؟ وأغرقَت في ضحك طويل: معقول؟ كم يذكرني بأبيه.

وهرول فولوديا راجعًا، وأفلَت من الدار إلى الهواء الطلق.

وقال في نفسه وهو يتمزق ويشيح بيديه ويحدق في السماء برعب: «كيف يَجرُؤْن على الكلام عن ذلك علانية؟ يَتحدَّثْن علانية، بأعصاب باردة ... وmaman تضحك ... maman يا إلهي، لماذا وهبتني هذه الأم؟ لماذا؟»

ومع ذلك كان عليه أن يذهب إلى الدار ويدخل مَهما كان الأمر. وذرع الممر عدة مرات حتى هدأ قليلًا ثم دخل الدار.

وسألته مدام شوميخينا بصرامة: لماذا لا تأتي لشرب الشاي في الموعد؟

فدمدم دون أن يرفع عينيه: آسف ... أنا ... ينبغي أن أرحل. maman، الساعة بلغت الثامنة!

فقالت maman ساهمة: اذهب أنت يا عزيزي ... سأبقى للمبيت عند لِيلي ... وداعًا يا صديقي ... دعني أباركك.

ورسمَت عليه علامة الصليب وقالت بالفرنسية لنيوتا: إنه يشبه ليرمونتوف قليلًا[٢] ... أليس كذلك؟

ودَّعَهن فولوديا كيفما اتفق، دون أن ينظر إلى وجوههن، وخرج من غرفة الطعام. وبعد عشر دقائق كان في الطريق إلى المحطة، وكان سعيدًا بذلك. لم يعد يشعر بالرهبة أو الخجل، وأحس بأنفاسه تتردد بخفة وطلاقة.

---

[٢] ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤–١٨٤١م) شاعر روسي كبير، خَلَف بوشكين على عرش الشعر. وله أيضًا رواية نثرية مشهورة «بطل من هذا الزمان». (المُعَرِّب)

وعلى بُعد نصف كيلومتر من المحطة، جلس على حجر بقرب الطريق وأخذ يتطلع إلى الشمس التي اختفَت إلى أكثر من نصفها وراء جسر الخط الحديدي. وفي المحطة أُشعلت المصابيح هنا وهناك، وومض ضوء أخضر غائم وحيد، ولكن القطار لم يظهر بعد. كان فولوديا مرتاحًا إلى جلوسه هكذا دون حراك وهو يصغي إلى اقتراب المساء شيئًا فشيئًا. وتجلى ظلام العريشة، ووقع الخطوات، ورائحة النهر، والضحك والخصر … تجلى كل ذلك في مخيلته بوضوح مذهل، ولم يعد كل ذلك مخيفًا وكبير الأهمية كما كان من قبل.

وفكر في نفسه: «هراء … لم تنزع يدي، بل وضحكَت عندما أمسكتُ بخصرها، إذن فقد أعجبها ذلك. لو ضايقها ذلك لغضبت مني …»

وأحس فولوديا الآن بالأسى؛ لأنه لم يكن جريئًا كما يجب هناك في العريشة. وأسف على أنه يرحل هكذا، بطريقة غبية، وأصبح واثقًا من أنه لو تكررت هذه الفرصة لكان أكثر جرأة، ولنظر إلى الأمور نظرة أبسط.

حسنًا، ليس من الصعب أن تتكرر الفرصة. فآل شوميخين يتنزهون طويلًا بعد العشاء. ولو ذهب فولوديا للنزهة مع نيوتا في الحديقة المظلمة فستكون تلك هي الفرصة!

وقال في نفسه: «سأعود، وغدًا أرحل بقطار الصباح … سأقول إنني تأخرت عن القطار.»

وعاد … كانت مدام شوميخينا وmaman ونيوتا وإحدى بنات الأخوات جالسات في الشرفة يلعبن الورق. وعندما كذب فولوديا مُدَّعيًا أنه تأخَّر عن القطار، أبدين قلقهن خشية أن يتأخر غدًا عن الامتحان، ونصحنه أن يستيقظ غدًا في وقت مبكر. وطول فترة لعبهن جلس غير بعيد، وهو يَتطلَّع إلى نيوتا بِنَهم وينتظر … واكتملَت في رأسه الخطة: سيقترب من نيوتا في الظلام، ويمسك بيدها، ثم يعانقها. ولا حاجة لأن يقول شيئًا؛ لأن كل شيء سيكون مفهومًا لكليهما دون كلمات.

ولكن السيدات لم يذهبن للتنزه في الحديقة بعد العشاء وواصلن اللعب. ولعبن حتى الواحدة صباحًا، ثم تفرقن للنوم.

وقال فولوديا لنفسه بأسى وهو يأوي إلى الفراش: «ما أغبى هذا كله! لكن لا بأس، سأنتظر إلى الغد … غدًا مرة أخرى في العريشة. لا بأس …»

لم يحاول أن ينام، بل جلس في الفِراش، محيطًا ركبتيه بذراعيه، وأخذ يفكر. كان التفكير في الامتحان كَريهًا. وقد قرَّر بينه وبين نفسه أنهم سيفصلونه حتمًا، وأنه ليس في هذا الفصل أي شيء مُروِّع. بالعكس، كل شيء ممتاز جدًّا. فغدًا سيكون طليقًا كالطائر،

وسيرتدي الملابس المدنية، وسيدخن علنًا، وسيتردد على هذه الدار لكي يغازل نيوتا في أي وقت يشاء. لن يعود تلميذًا بل «شابًّا محترمًا». وما عدا ذلك، أي ما يسمى بالـ«كارير» والمستقبَل، فأَمرُه واضح؛ سيتطوع للخدمة، أو يعمل في البرق، أو حتى في صيدلية؛ حيث يترقى إلى وظيفة محضِّر أدوية ... فما أكثر الوظائف ... ومرَّت ساعة، وأخرى وهو جالس يفكر.

وقبيل الثالثة صباحًا، عندما بدأ ضوء الفجر يلوح، صرَّ الباب بحذر ودخلت maman الغرفة.

وسألت وهي تتثاءب: ألستَ نائمًا؟ نم، نم، سأخرج حالًا ... فقط سآخذ قطرات.

– ولماذا تحتاجين إليها؟

–لِيلي المسكينة عندها تَشنُّج. ثم يا بني، عندك امتحان غدًا.

وأخذَت من الصوان قارورة بها قطرات ما، واقترَبَت من النافذة وقرأت المكتوب عليها ثم خرجت.

وبعد دقيقة سمع فولوديا صوتًا نسائيًّا يقول: يا ماريا ليونتيفنا، هذه ليست القطرات المطلوبة!

هذه قطرات السوسن، وليلى تريد المورفين. هل ابنك نائم؟ اطلبي منه أن يبحث عنها.

كان ذلك صوت نيوتا وسَرَت البرودة في جسد فولوديا. وأسرع يرتدي سرواله، ثم ألقى بالمعطف على كتفيه واتجه إلى الباب.

وكانت نيوتا توضح لأمه همسًا: مفهوم؟ المورفين مكتوب عليها باللاتيني. أيقظي فولوديا وسوف يعثر عليه.

فتحت maman الباب فرأى فولوديا نيوتا. كانت في تلك البلوزة التي ذهبت فيها للحمام. ولم يكن شعرها مصففًا بل تناثر على كتفيها، وكان وجهها ناعسًا، أسمر في العتمة؛ وقالت: ها هو فولوديا مستيقظ. فولوديا، ابحث يا عزيزي عن المورفين في الصوان. مصيبة لِيلي هذه ... دائمًا يحدث لها شيء ما.

ودمدمَت maman بكلمات ما، وتثاءبَت وانصرفَت. وقالت نيوتا: هيًّا ابحث، ما لك واقفًا؟

اتَّجَه فولوديا نحو الصوان، وجَثَا على ركبتيه وأخذ يفتش بين القوارير وعلب الأدوية. كانت يداه ترتعشان، وأحس في صدره وجوفه بشيء، وكأنما تدفَّقَت في أحشائه كلها أمواج باردة. وشعر بالاختناق والدُّوار من رائحة الأثير وحامض الكربوليك وشتى الأعشاب الطبية التي كان يُقلِّبها دون أي داعٍ بِيدَين مرتعشتَين فتتَبعثَر منه بسبب ذلك.

وفكر: «يبدو أن maman ذهبت. هذا حسن ... حسن ...»

وسألت نيوتا بنبرة ممطوطة:

– هل ستنتهي قريبًا؟

– حالًا ... ها هو ذا المورفين على ما أظن. قال وهو يقرأ كلمة morph ... على إحدى القوارير: تفضلي!

كانت نيوتا واقفة بالباب، بحيث كانت إحدى ساقيها في الطريق والأخرى في غرفته. وسوَّت شعرها الذي كان من الصعب تسويته لغزارته وطوله، ونظرت إلى فولوديا نظرة شاردة. وبدت لفولوديا في هذه البلوزة الفضفاضة وبوجهها الناعس، وبشعرها المهدل، في هذا الضوء الشحيح المتسرب إلى الغرفة من السماء التي ابيضَّت وإن لم تنرها الشمس بعد، بدت له جذابة، باهرة ... كان مفتونًا، وبدنه كله يرتعش، وتذكر باستمتاع كيف احتضن هذا الجسد الخلَّاب في العريشة. ومد لها الدواء قائلًا: كم أنت؟

– ماذا؟

ودخلتِ الغرفة.

وسألَت وهي تبتسم: ماذا؟

كان صامتًا يتطلع إليها، ثم تناول يدها كما في العريشة ... أمَّا هي فنظرت إليه وهي تبتسم وتنتظر: وماذا بعد؟

وهمس: أنا أحبك.

كفَّت عن الابتسام وفكرت قليلًا، ثم قالت: مهلًا، يبدو أن أحدًا قادم. آه من هؤلاء التلاميذ! قالت في شبه همس وهي تمضي إلى الباب وتطل في الممر: كلَّا، لا أحد هناك.

وعادت.

ثم خُيِّل لفولوديا أن الغرفة، ونيوتا، والفجر، وهو نفسه ... كل ذلك تركز في إحساس واحد بسعادة حادَّة غير عادية، لا مثيل لها، تستحق من أَجْلِها أن تدفع كل عمرك وتتحمَّل العذاب الأبدي، ولكن ما إن مرت نصف دقيقة حتى اختفى كل ذلك فجأة. لم يعد فولوديا يرى سوى وجه بدين دميم شَوَّهه تعبير اشمئزاز، وفجأة أحس هو أيضًا بالقَرَف مما يحدث.

وقالت نيوتا وهي تنظر إلى فولوديا بتقزز: ينبغي عليَّ أن أذهب. يا لك من دميم بائس ... إخص ... فرخ بط قبيح!

وكم بدا بشعًا لفولوديا الآن شعرها الطويل، وبلوزتها الفضفاضة وخطواتها، وصوتها!

وقال لنفسه بعد أن ذهبت: «فرخ بط قبيح ... حقًّا أنا قبيح ... كل شيء قبيح.»

كانت الشمس في الخارج قد بزغت، وَصدَحَت الطيور. وتناهت من الحديقة خطوات البستاني وصرير عربته اليدوية ... وبعد ذلك بقليل تردد خوار البقر وأنغام زمارة الراعي. وكان ضوء الشمس وتلك الأصوات ينبئ بوجود حياة طاهرة، أنيقة، شاعرية في مكان ما في هذه الدنيا. ولكن أين هي؟ لم يتحدث عنها إلى فولوديا أحد، لا maman ولا كل أولئك الأشخاص المحيطين به.

وعندما أيقظه الخادم ليلحق بقطار الصباح تَصنَّع النوم ... وقال في نفسه: «في داهية، فليذهب كل شيء إلى الشيطان!»

ونهض من فراشه في الحادية عشرة. وفكر وهو يمشط شعره أمام المرآة ويتطلع إلى وجهه الدميم الشاحب من السهاد: «صحيح تمامًا ... فرخ بط قبيح».

وعندما رأته maman وجزعت من عدم ذهابه إلى الامتحان قال لها فولوديا: غبتُ في النوم يا maman ... لكن لا تقلقي، سأقدم شهادة طبية.

واستيقظَت مدام شوميخينا ونيوتا قبيل الساعة الواحدة. وسمع فولوديا كيف فتحت مدام شوميخينا نافذتها بصخب بعد أن استيقظت، وكيف نادت على نيوتا بصوتها الأجش فردت هذه بضحك مجلجل. ورأى الباب يفتح فيتقاطر من غرفة الجلوس إلى مائدة الإفطار صف طويل من بنات الأخوات والطفيليات «وفي حشد الأخيرات كانت maman» ولمح وجه نيوتا المغسول الضاحك، وبجواره ظهرت لحية المعماري الذي وصل لتوه وحاجباه الأسودان.

كانت نيوتا في تايير أوكراني لم يكن لائقًا بها أبدًا بل جعل منظرها أخرق. وكان المعماري يلقي نكات مُبتذَلة وسطحية، أما الكستليتة التي قدمت في الإفطار فقد بدَا لفولوديا أن فيها بصلًا زائدًا. وبدا له أيضًا أن نيوتا تضحك بصوت عالٍ عن عمد وتنظر نحوه لكي تفهمه بذلك أن ذكرى ليلة الأمس لا تسبب لها أي قلق، وأنها لا تشعر بوجود فرخ البط القبيح على المائدة.

وقبيل الساعة الرابعة، رحل فولوديا مع maman إلى المحطة. وأثارت الذكريات القذرة والسهاد، والفصل المنتظر من المدرسة، وتأنيب الضمير ... أثار كل ذلك في نفسه غيظًا ثقيلًا قاتمًا. وتطلع إلى صفحة وجه maman الهزيل وأنفها الصغير ومعطفها المشمع الذي أهدته لها نيوتا، ودمدم: لماذا تضعين البودرة؟ هذا لا يليق في مثل سنك! أنت تتزوقين ولا تسددين خسائرك في اللعب، وتدخنين سجائر الآخرين ... هذا كريه! أنا لا أحبك ... لا أحبك!

كان يهينها، بينما أخذت تدير عينيها بخوف، وتشيح بيديها وتهمس بذعر: ما هذا يا صديقي؟ يا إلهي، سيسمعك الحوذي! اسكت وإلا سمعك الحوذي! إنه يسمعك!

ولكن فولوديا مضى يقول وهو يختنق: لا أحبك ... لا أحبك! أنت منحلَّة، بلا قلب ... إياك أن تلبسي هذا المعطف! أتسمعين؟ وإلا سأمزقه إربًا.

فبكت maman مستعطفة: عيب يا ولدي! سيسمعك الحوذي!

– وأين ثروة أبي؟ أين نقودك؟ أنت بددت كل ذلك! أنا لا أخجل من فقري، ولكني أخجل من أن لي أمًّا مثلك ... عندما يسألني رفاقي عنك أحمرُّ خجلًا.

كان عليهما أن يستقلَّا القطار لمسافة محطتين حتى المدينة. ووقف فولوديا طوال الطريق في شرفة العربة وجسَدُه كُلُّه يرتعش. لم يشأ أن يدخل العربة، فقد جلست هناك أمه التي كان يَمقُتها. وكان يَمقُت نفسه ومُفتِّشي القطار ودخان القاطرة، والبَرْد الذي عزا إليه رعشته ... وكلما ضاقَت نفسُه، ازداد إحساسه بأنه توجد في مكان ما في هذا العالم، وعند أناس ما، حياة نقية، سامية، دافئة، أنيقة، مليئة بالحب والرقة والمرح والانطلاق ... أحس بذلك فاستبدَّت به كآبة شديدة، حتى إن أحد الركاب نظر إليه نظرة فاحصة وسأله: ماذا، يبدو أن أسنانك تؤلمك؟

كانت maman وفولوديا يعيشان في المدينة عند ماريا بتروفنا، وهي سيدة من النبلاء كانت تستأجر شقة كبيرة وتؤجرها من الباطن للسكان وكانت maman تستأجر غرفتين؛ إحداهما ذات نوافذ وبها سريرها ولوحتان بإطارين مُذَهَّبين مُعلَّقَتان على الجدران، كانت غرفتها، ومن داخلها غرفة صغيرة مُظلمة يقطنها فولوديا. وكانت هنا كنبة ينام عليها، وفيما عدا الكنبة لم يكن هناك أي أثاث. كانت الغرفة كلها غاصَّة بِسِلال الملابس وعُلَب القبعات وبمختلف أنواع المتاع القديم الذي كانت maman تحتفظ به لسبب ما. وكان فولوديا يُحضِّر دروسه في غرفة أمه أو في «الغرفَة المشتركة» ... هكذا كانوا يسمون الغرفة الكبيرة التي كان كل السكان يَجتمعون فيها في أثناء الغداء أو في أوقات المساء.

وعندما عاد فولوديا إلى البيت استلقى على الكنبة وتغطى بالبطانية ليكبح ارتجاف بدنه. وذكَّرَته علب القبعات، والسلال والمتاع القديم بأنه ليست لديه غرفته الخاصة؛ ملجؤه الذي يمكن أن ينتحي فيه بعيدًا عن maman وضيوفها، وعن الأصوات التي كانت تتناهى الآن من «الغرفة المشترَكة» وذَكَّرته الحقيبة المدرسية والكتب المتناثرة في الأركان بالامتحان الذي تَغيَّب عنه ... ولسبب ما ودون مناسبة، تَذكَّر «منتون» حيث كان يعيش وهو في

السابعة من عمره مع المرحوم والده. وتذكر «بياريتس»[٣] والفتاتين الإنجليزيتين اللتين كان يركض معهما على رمال الشاطئ ... وأراد أن يسترجع مع ذاكرته لون السماء والمحيط، وارتفاع الأمواج، ومزاجه آنذاك، لكنه لم يَتمكَّن من ذلك. ومَضَت الفتاتان الإنجليزيتان في مُخيِّلَته بصورة حية مُجسَّدة، أما الأشياء الأخرى فاختلطت وتَبخَّرت في اضطراب.

«كلا، الجو هنا بارد»، فكَّر فولوديا، ثم نهض فارتدى المعطف واتجه إلى «الغرفة المشتركة».

كانوا هناك يشربون الشاي. وجلس إلى السَّماوَر ثلاثة أشخاص: maman ومُدرِّسة الموسيقى؛ وهي عجوز ترتدي عوينات بإطار من عظم السلحفاة، وأفجوستين ميخايليتش؛ كَهْل فرنسي بدين للغاية، يعمل في مصنع عطور.

وقالت maman: أنا لم أتَغدَّ اليوم. ينبغي إرسال الخادم لشراء خبز.

فصاح الفرنسي: يا دونياشا!

واتضح أن ربة المنزل أرسلَت الخادم في أمر ما.

فقال الفرنسي وهو يبتسم ابتسامة عريضة: أوه، هذه بسيطة جدًّا. أنا سأذهب وأشتري لك الخبز. أوه، هذه بسيطة!

وضَع سيجارَه ذا الرائحة القوية الكريهة في مكان ظاهر، وارتدى قُبَّعتَه وخرج. وما إن خرج حتى أخذَت maman تروي لمُدرِّسة الموسيقى كيف كانت في ضيافة آل شوميخين؟ وكيف استقبلوها هناك بحفاوة؟

وقالت: إن لِيلِي شوميخينا قريبتي ... المرحوم زوجها؛ الجنرال شوميخين كان ابن عم زوجي. أما هي فكانت قبل الزواج البارونة كولب.

فقال فولوديا بعصبية: maman، هذا ليس صحيحًا! لماذا تكذبين؟

كان يعرف أن maman تقول الحقيقة، ولم يكن في حديثها عن الجنرال شوميخين والبارونة كولب كلمة كذب واحدة، ولكنه مع ذلك أحس أنها تكذب. بدَا الكذب في طريقة كلامها وفي تعابير وجهها وفي نظرتها، في كل شيء.

وكرَّر فولوديا ودق الطاولة بقبضته بشدة حتى إن الأواني اهتزت، وانسكب الشاي من فنجان maman: أنت تَكذِبين! لأي داعٍ تَتحدَّثِين عن الجنرالات والبارونات؟ كل هذا كذب!

---

[٣] منتون وبياريتس مدينتان ساحليتان في فرنسا. (المُعَرِّب)

ارتَبكَت مُدرِّسة الموسيقى وسعَلَت في منديلها مُتظاهِرة أنها شرقت، بينما بَكَت maman.

وفكر فولوديا: «إلى أين أذهب؟»

كان في الخارج منذ قريب، أما الأصدقاء فيخجل من الذهاب إليهم. ومن جديد تَذكَّر بلا مناسبة الفتاتين الإنجليزيتين ... وذرع «الغرفة المشترَكة» من ركن لركن ثم دلف إلى غرفة أفجوستين ميخايليتش. وهنا فاحَت بشدة روائح الزيوت العطرية وصابون الجلسرين. وعلى الطاولة وعلى رفوف النوافذ، بل وحتى على الكراسي اصطفَّت كمية لا حصر لها من القوارير والأكواب والكئوس بسوائل مختلفة الألوان. وتناول فولوديا جريدة من على الطاولة ونشرها وقرأ الاسم: figaro[٤] وفاحَت من الجريدة رائحة قوية لطيفة. ثم أخذ من على الطاولة مسدسًا.

وفي الغرفة المجاوِرة كانت مُدرِّسة الموسيقى تُطيِّب خَاطِر maman: كَفَى، لا تُلقِي بالًا! إنه ما زال صغيرًا! الفِتْيَان في سنه دائمًا يتجاوزون الحدود. ينبغي التسليم بذلك.

فقالت maman بصوت مُنغَّم: لا يا يفجينيا أندرييفنا، لقد فَسد جدًّا. ليس هناك كبير يحكمه، وأنا ضعيفة ولا أستطيع أن أفعل شيئًا. كلَّا، إنني تعيسة!

وضع فولوديا فوهة المسدس في فمه، وتَحسَّس فيه شيئًا يشبه حرك الزناد أو القفل فضغط عليه بإصبعه ... ثم تحسس بروزًا آخر، وضغط مرة أخرى، وضغط مرة أخرى. ثم أخرج المسدس من فمه، ومسحه بذيل معطفه، وتفحَّص القفل. لم يسبق له أبدًا أن أمسك بسلاح في يديه.

وقال لنفسه مخمنًا: يبدو أن هذا ينبغي رفعه ... نعم، يبدو هكذا.

ودخل أفجوستين ميخايليتش «الغرفة المشترَكة» مقهقهًا، وأخذ يتحدَّث عن شيء ما. ووضع فولوديا المسدس في فمه مرة أخرى وضغط عليه بأسنانه، وداس بإصبعه على شيء ما. ودوَّت طلقة ... اصطدم شيء ما بقفا فولوديا بقوة رهيبة، فوقع على الطاولة وغاصَ بوجهه في الكئوس والقوارير مباشَرَة. ثم رأى المرحوم أباه في قبعة أسطوانية بشريط أسود عريض، لابسًا ثياب الحِداد على سيدة ما في «منتون»، رآه يحتضنه فجأة بكلتا ذراعيه، ثم يسقطان معًا في هاوية سحيقة مظلمة للغاية.

ثم اختلط كل شيء واختفى.

[٤] صحيفة الفيجارو الفرنسية. (المُعَرِّب)

الزوج

توقَّف أحد أفواج الخيالة في أثناء المناورات للمبيت في مدينة «ك» الريفية الصغيرة. وحدثٌ مثل مَبيت السادة الضباط يُثير دائمًا مشاعر السكان المحلِّيِّين إلى أقصى درجات الانفعال والحماس. فأصحاب الدكاكين، الذين يَحلُمون بتصريف المرتدلا الكاسدة الصدئة و«أحسن أنواع» السَّرْدين المرصوص على الأرفف منذ عشر سنوات، وأصحاب الحانات وغيرهم من رجال الأعمال، لا يُغلقون أبواب مُحالِّهم طوال الليل. ويَرتدِي الحاكم العسكري وسكرتيره وجنود الحامية المحلية أفضل حُلِلِهم ويهرول رجال الشرطة كالمجانين، أما النساء فالشيطان وحده يعلم ماذا يحدث لهن!

وعندما سمعت سيدات «ك» باقتراب الفوج، تَركن جانبًا قُدور المُرَبَّى الساخنة وهَرَعْن إلى الخارج. لم يَعبأْنَ بثيابهن المنزلية وهيآتهن المُشعثة وانطَلَقْن لاهثات مَبهورات لملاقاة الفوج وهن يصغين بِنَهم إلى أنغام المارش. ولو نظَرْتَ إلى وجوههن الشاحبة المتحَمِّسة لخيِّل إليك أن هذه الأنغام لم تكن تتردد من أبواق الجنود بل من السماء.

وتصايحن بسرور: الفوج! الفوج قادم!

فما الذي كان يَبغيه هذا الفوج الغريب، الذي عرج على المدينة صدفة وسيرحل غدًا في الفجر؟ وفيما بعد. حينما وقَف السادة الضباط وسط المدينة، عاقِدِين أذرعهم خلف ظهورهم، وهم يبحثون مسألة الإيواء، كانت السيدات مُجتمِعات في شقة زوجة المحقِّق ويتسابقن في انتقاد الفوج. ولا يعلم إلا الله مِن أين عَرفْنَ أن قائد الفوج مُتزوِّج، لكنه لا يعاشر زوجته، وأن كبير الضباط يُولَد له كل عام أطفال مَيِّتون، وأن الياور غارِق في حب كونتيسة ما بلا أمل، بل حاول الانتحار مرة. كنَّ يعرفن كل شيء وعندما مرَّ من أمام النوافذ جندي مَجدُور الوجه، في قميص أحمر كن يَعلَمْن تمام العلم أنه جندي مُراسَلة الملازم ريمزوف، وأنه يُهرِول من المدينة بحثًا لسيده عن فودكا إنجليزية مع تأجيل الدَّفع.

ولم يكنَّ قد رَأيْن الضباط إلا لمحًا، ومن ظهورهم، إلا أنهن قد قرَّرن أنه لا يوجد بينهم ضابط واحد جميل أو جذاب ... وبعد أن شَبعْن من الكلام طَلَبْنَ أن يأتي إليهن الحاكم العسكري ورئاسة النادي، وأَمرنَهم بإقامة حفل راقص مَهما كان الأمر.

ونُفِّذت رغبتهن. وفي التاسعة مساء دوَّت أمام النادي أنغام أوركسترا عسكرية، وفي داخل النادي نفسه كان السادة الضُّبَّاط يرقصون مع سيدات مدينة «ك». وأَحسَّت السيدات أنهن يحلِّقن بأجنحة. ثَمِلْن من الرقص والموسيقى وصليل المهاميز، فاستسلمن بكل قلوبهن للتعارف العابر ونَسِين تمامًا رجالهن المَدنِيِّين. وتجمع آباؤهن وأزواجهن، الذين تراجعوا إلى أقصى خلفية الصورة، حول البوفيه الهزيل في المدخل. كان كل هؤلاء الصيارفة والسكرتِيرِيِّين والمفتشين ذوي الوجوه السقيمة، والبواسير والملابس المُهدَّلة يدركون ضآلتهم تمام الإدراك فلم يدخلوا الصالة، بل أخذوا يتطلعون من بعيد إلى زوجاتهم وبناتهم وهُن يُراقِصن الضُّبَّاط المهرة ذوي الأجسام الرشيقة.

وكان من بين الأزواج مَأمور ضرائب رسوم الإنتاج كيريل بتروفتش شاليكوف، وهو مُخلوق ثَمِل، ضيق الخلق وخبيث، ذو رأس كبير حَليق وشَفتين سمَينتين مُتدلِّيَتَين. كان في وقت ما طالبًا في الجامعة، يقرأ بيساريف ودوبرولوبوف[1] ويغني الأغاني، أما الآن فيقول عن نفسه إنه مساعد اعتباري[2] ولا شيء أكثر. وقَف مرتكزًا على قائم الباب دون أن يُحوِّل نَظرَه عن زوجته، آنَّا بافلوفنا، وهي سيدة صغيرة، سوداء الشعر، طويلة الأنف، في حوالي الثلاثين، حادة الذقن، مُزيَّنة بالمساحيق ومشدودة بالكورسيه، تَرقُص بلا توقُّف إلى درجة الإعياء. وقد أرهقها الرَّقص، ولكن التعب كان تعبًا جسديًّا لا روحيًّا ... كانت هيئتها كلها تطفح بالإعجاب والاستمتاع. كان صدرها يختلج، ولمعَت على خديها بقع حمراء، وكانت كل حركاتها فاترة، ناعمة. وبدَا واضحًا أنها كانت، وهي ترقص، تَتذكَّر الماضي؛ ذلك الماضي البعيد، عندما كانت ترقص وهي طالبة في المعهد وتحلم بحياة مُترَفة مَرِحة، وعندما كانت واثقة من أنها ستتزوج حتمًا ببارون أو أمير.

وأخذ مأمور الضرائب يَتطلَّع إليها مقطَّب الوجه من الغيظ ... لم يكن يشعر بالغيرة، إلا أنه كان متضايقًا من أنه؛ أولًا: بِسبَب الرقص، لم يكن هناك مكان للعب الورق،

[1] ديميتري بيساريف (١٨٤٠–١٨٦٨م)، ونيقولاي دوبرولوبوف (١٨٢٦–١٨٦١م) ناقدان أدبيان وصحفيان من كبار ممثلي الثوريين الديمقراطِيِّين في القرن التاسع عشر. (المُعَرِّب)

[2] من الرُّتَب المَدنيَّة الدنيا في روسيا القيصرية. (المُعَرِّب)

وثانيًا: لأنه كان لا يطيق الموسيقى، وثالثًا: لأن السادة الضباط، كما بدَا له، كانوا يُعامِلون المدَنِيِّين بإهمال وتعالٍ بالِغَين، ورابعًا: وهو الأهم، فقد أثار سخطه وأجج غضبه تعبير الغبطة على وجه زوجته. ودمدم: منظر كريه! عَمَّا قريب ستبلغ الأربعين، لا مال ولا جمال، ومع ذلك تزيَّنَت وتصفَّفَت، ولبِسَت الكورسيه! تتدلل وتتقصع، وتظن أن ذلك يبدو جميلًا ... يا سلام، ما أروعك يا سيدتي!

استسلمَت آنَّا بافلوفنا للرقص تمامًا، حتى إنها لم تنظر إلى زوجها نظرة واحدة.

وقال المأمور بكراهية: طبعًا، وماذا نكون نحن الفلاحين؟ نحن الآن خارج الهيئة ... نحن أفيال بحر، دببة ريفيون! أما هي فأميرة الحفل، ما زالت تحتفظ بشبابها إلى درجة أنها تثير اهتمام الضباط، بل وربما وقع أحدهم في غرامها.

وفي أثناء رقصة المازوركا تقلَّص وجه المأمور تمامًا من شدة الغيظ. كان هناك ضابط أسود الشعر، جاحظ العينين ذو وجنتين تَتَريتَيْن بَارزِتَين يُراقِص آنَّا بافلوفنا. وكان يعمل بساقيه في جِدِّيَّة، وقد اكتسى وجهه بتعبير صارم، وأخذ يلوي ركبتيه بشدة حتى إنه كان مثل الدُّمية الخشبية التي يَشدُّونَها بالخيوط فتتحرك. أما آنَّا بافلوفنا فكانت شاحبة مُرتجِفَة، وقد ثَنَت قوامها بفتور وقلَبَت عينيها، محاولة أن تبدو وكأنها لا تكاد تلمس الأرض، والظاهر أنه خيِّل إليها أنها ليست على الأرض، في نادٍ ريفي، بل في مكان بعيد، فوق السحاب! لم يكن وجهها وحده الذي يعبر عن الغبطة بل جسدها كله ... ولم يَعُد في وسع مأمور الضرائب أن يحتمل. أحس برغبة في السخرية من هذه الغبطة، وإشعار آنَّا بافلوفنا بأنها غابت عن وعيها، وبأن الحياة ليست أبدًا بهذه الروعة التي تبدو لها الآن وهي سكرى بالنشوة.

ودمدم قائلًا: مهلًا، سوف أُريك كيف تَبْتَسمين بغبطة! لستِ طالبة ولا بنتًا صغيرة. الشمطاء يجب أن تعرف أنها شمطاء!

تحرَّكَت في صدره كما تَتحرَّك الفئران أحاسيس خسيسة بالغيرة والحنق، والكبرياء المُهان، والكراهية الريفية المحدودة؛ تلك الكراهية التي تُعشِّش في نفوس الموظَّفِين الصغار بسبب الفودكا وحياة الجلوس إلى المكاتب ... وانتظر حتى انتهت المازوركا ثم دخل الصالة واتجه نحو زوجته. كانت آنَّا بافلوفنا في ذلك الوقت جالسة مع مُراقِصها وهي تخفق بالمروحة، وتزرُّ عينيها بدلال وتروٍّ كيف رقَصَت في وقت ما في بطرسبرج (كانت تزمُّ شفتيها على شكل قَلب وتلفظ الحروف هكذا: «عندنا في بيوتيورسبيورج»).

وقال المأمور بصوت مُتحشرِج: أنيوتا، هيا إلى البيت!

وعندما رأت آنَّا بافلوفنا زوجها أمامها انتفضت في البداية وكأنما تذكَّرَت أن لديها زوجًا، ثم تَضرَّجت خجلًا. شعرت بالخجل من أن لها زوجًا سقيمًا، عبوسًا، عاديًّا كهذا.

وكرر المأمور: هيَّا إلى البيت!

– لماذا؟ الوقتُ مُبكِّر.

فقال المأمور متباطئًا وبوجه شرير: هيَّا إلى البيت أرجوك!

فسألَت آنَّا بافلوفنا بقلق: لماذا؟ هل حدث شيء؟

– لم يحدث شيء، ولكني أريد أن تعودي إلى البيت حالًا … أريد وكفى، وأرجوك لا داعي للكلام!

لم تكن آنَّا بافلوفنا تخاف زوجها، ولكنها شعرت بالخجل أمام مُراقِصها، الذي كان ينظر إلى المأمور بدهشة وسخرية. فنهضَت وانتَحَت بزوجها جانبًا. قالت له: ماذا دهاك؟ لماذا أعود إلى البيت؟ الساعة لم تبلغ حتى الحادية عشرة بعد!

– أنا أريد وانتهينا! تَفضَّلي عُودي وكفى!

– دعكَ من هذه الحماقات! اذهب أنتَ إذا أردت.

– حسنًا، سأثير فضيحة!

رأى المأمور كيف يتلاشى تعبير الغبطة شيئًا فشيئًا من وجه زوجته، وكيف كانت تشعر بالخجل وتعاني، فأحس بشيء من الراحة.

وسألته زوجته: ما حاجتك إليَّ الآن؟

– لستُ بحاجة إليك، ولكني أريد أن تبقى في البيت. أريد وكفى.

لم ترغب آنَّا بافلوفنا حتى في السماع، ولكنها أخذَت بعد ذلك تتوسل إلى زوجها أن يسمح لها بالبقاء ولو نصف ساعة. ثم أخذَت تعتذر وتقسم وهي لا تدري لماذا تفعل ذلك. كانت تتحدث في همس وتبتسم؛ حتى لا يظن الحاضرون أن هناك خلافًا بينها وبين زوجها. ومضَت تؤكد له أنها لن تبقى طويلًا، فقط عشر دقائق، فقط خمس دقائق. بيد أن المأمور أصرَّ على موقفه بعناد.

– كما تشائين، ابقي! ولكني سأثير فضيحة.

وبينما كانت آنَّا بافلوفنا تَتحدَّث مع زوجها ضمرت وهزلت وشاخت ومضَت إلى المدخل شاحبة وهي تعض شفتيها وتكاد تبكي، وبدأت ترتدي معطفها.

وأبدَت سيدات «ك» دهشتهن فسألْنَ: إلى أين؟ آنَّا بافلوفنا إلى أين يا عزيزتي؟

فرد المأمور نيابة عنها: عندها صداع.

وبعد أن خرج الزوجان من النادي سارَا في صمت حتى بلغَا البيت. كان المأمور يَسير خلف زوجته. وبينما كان ينظر إلى قامتها المحنية الذَّلِيلة التي هدَّها الحزن، تذكر غبطتها التي أثارت حنقه في النادي، فامتلأ قلبه بإحساس الظفر عندما أدرك أن هذه الغبطة قد تلاشت. كان سعيدًا وراضيًا، وفي الوقت نفسه أحس بأن شيئًا ما ينقصه، وراوَدَته رغبة في أن يعود إلى النادي ليصنع شيئًا يجعل الجميع يشعرون بالملل والمرارة، وبضآلة هذه الحياة وسطحيتها عندما تسير هكذا في ظلام الشارع وتسمع بقبقة الوحل تحت قدميك، وعندما تعرف أنك ستستيقظ غدًا في الصباح فلا تجد أمامك شيئًا آخر سوى الفودكا وأوراق اللعب! أوه، ما أفظع ذلك!

أما آنَّا بافلوفنا فكانت تخطو بالكاد ... كانت لا تزال تحت تأثير الرقص والموسيقى والأحاديث والبريق والصخب. وسارت وهي تسأل نفسها: ما الذي جَنَته ليعاقبها الله هذا العقاب؟ كانت تَشعُر بالمرارة والمَهانة، وتكاد تختنق من الحِقد الذي اعتمل في صدرها وهي تَسمَع خطوات زوجها الثقيلة. ولَزِمت الصَّمت وهي تحاول أن تَعثُر على أكثر الكلمات إهانة ووخزًا وسُمًّا لتُزْهَى بها زوجها، وفي الوقت نفسه كانت تدرك أن مأمورها لا تُؤثِّر فيه أي كلمات. فماذا تعني الكلمات بالنسبة إليه؟ ولم يكن في وُسع أعدى الأعداء أن يَضعَها في حالة أشد عجزًا من هذه الحالة. بينما كانت الموسيقى تُدوِّي، والظلمة مشبعة بأكثر الأنغام رقصًا وإثارة.

الأطفال

بابا وماما والعمة نادية غائبون عن البيت؛ لقد رحلُوا لحفل التَّعميد عند ذلك الضابط العجوز الذي يركب فرسًا رمادية صغيرة. وفي انتظار عودتهم جلس جريشا وآنيا وأليوشا وسونيا وابن الطاهية أندريه في غرفة الطعام حول طاولة الطعام يلعبون اللوتو. وفي الحقيقة كان من المفروض أن يَناموا منذ وقت طويل، ولكن هل يمكن أن يناموا دون أن يسمعوا من ماما كيف كان الطفل الذي عَمَّدوه، وما الذي قُدِّم في العشاء؟ والطاولة التي يضيئها مصباح مُعلَّق؛ حافلة بالأرقام وقِشر الجَوز وبِقطع الورق والمُربَّعات الزُّجاجية. وأمام كل لاعب بطاقتان وكمية من المُربَّعات لسد خانات الأرقام وفي وسط الطاولة طَبق أبيض به خمس قطع معدنية من فئة الكوبيك. وبجوار الطبق بقايا تفاحة ومِقَص وطَبَق كبير صَدرَت الأوامر بوضع قِشر الجَوز فيه. والأطفال يلعبون على النقود. الرهان: كوبيك واحد، والشَّرْط: إذا غش أحد في اللعب يُطرد فورًا. وليس هناك في غرفة الطعام أحد غير اللاعبين. فالمُربِّية أجافيا أيفانوفنا تَجلِس في الطابق الأسفل، في المطبخ، وتُعلِّم الطاهية التَّفصيل. أما الأخ الأكبر فاسيا؛ التلميذ بالصف الخامس فَيَستَلقِي على الكنبة في غرفة الجلوس ويضجر.

يلعبون بحماسة، وترتسم الحماسة أكثر ما ترتسم على وجه جريشا. وهو صبي صغير، في التاسعة من عمره، برأس مَحلوق الشعر تمامًا، وخدَّين مُنتفِخَين وشفتين غليظتين كشفاه الزنوج، وقد التحق بالدراسة في الصف الإعدادي؛ ولهذا يعتبرونه كبيرًا وأذكى الجميع. وهو يلعب من أجل النقود فقط. ولولا الكوبيكات الموضوعة في الطبق لكان قد نام منذ زمن بعيد. عيونه العسلية تركض بِقلَق وغيرة فوق بطاقات شُركائِه في اللعب. والخوف من احتمال الخسارة، والغيرة، والاعتبارات المالية تملأ رأسه الحليق، لا تدع له مجالًا للجلوس في هدوء وللتركيز. فهو يتململ في مجلسه كأنه على جَمْر، وعندما يكسب

يقبض على النقود بجشع ويَدسُّها في جيبه على الفور. وشقيقته آنيا، ذات الأعوام الثمانية، والذقن الحاد والعَينَين الذَّكيتَين اللامعتين، تخشى هي الأخرى من أن يكسب أحد غيرها. إنها تُراقِب اللاعب بيقظة وتارة تَتضرَّج بالحمرة وتارة تشحب. ولكن ليس ما يهمها هو النقود. بل إنَّ التوفيق في اللعب هو بالنسبة إليها مسألة كرامة. أما الشقيقة الأخرى سونيا، ذات الأعوام السِّتَّة والرأس الصغير المُجعَّد الخصلات، والبشرة ذات اللون الذي لا تراه إلا على وجوه الأطفال الأصحاء للغاية أو الدُّمى الغالية أو عُلَب الحلوى، فتلعب من أجل عملية اللعب ذاتها. ويطفح وجهها بالتأثر والرضا. وأيًّا كان الرابح فهي تُقَهقه وتُصفِّق بنفس الدرجة. أما أليوشا؛ الصبي الصغير المُكتَنِز المستدير الجسم، فَيُشخِّر ويلهث ويُحملِق بعينين جَاحظَتين في البطاقات. وليس لديه أي غرض ولا كرامة، يكفيه أنهم لا يطردونه من مائدة اللعب ولا يُجبِرونه على النوم، ويبدو من مَظهَره الخارجي أنه فَاتِر عديم المبالاة، لكنه في قرارة نفسه شيطان ماكر. وقد اشترك في اللعب لا حُبًّا فيه بِقَدْر ما هو من أجل المشاحَنات الحتمية التي تحدث في مَجرى اللعب. وهو يشعر بفرحة طاغية عندما يَضرِب أحدُهم شخصًا ما أو يَسبُّه.

ومنذ فترة طويلة وهو يريد أن يقضي حاجته، ولكنه لا يترك الطاولة لحظة واحدة؛ خشيةَ أن يسرقوا مُربَّعاته وكوبيكاته في غيابه. ولَمَّا كان لا يعرف سوى أرقام الآحاد والأعداد التي تنتهي بصفر، فإن شقيقته آنيا تقوم بدلًا منه بسد الخانات بالمربعات. أما اللاعب الخامس، ابن الطاهية أندريه، الصبي الأسود الشعر المريض الهيئة، الذي يرتدي قميصًا من الشيت ويعلق على صدره صليبًا نحاسيًّا، فيقف جامدًا ويُحدِّق في الأرقام حالمًا. وهو ينظر إلى المكسب وإلى فوز الآخَرين بلا اكتراث؛ إذ إنه غارق كلية في حسابات اللعبة وفي فلسفتها البسيطة؛ فما أكثر الأرقام المختلفة في هذه الدنيا، وكيف لا تختلط؟!

ويتناوب اللاعبون إعلان الأرقام ما عدا سونيا وأليوشا. ونظرًا إلى رتابة الأرقام فقد أوجدَت الممارَسة مصطلحات ومُسمَّيات مُضحِكة كثيرة لها، فمثلًا رقم سبعة يسميه اللاعبون «البشكور»، ورقم أحد عشر «العصويْن»، ورقم سبعة وسبعين «سيمون سيمونيتش»، ورقم تسعين «جدو» … إلخ. ويسير اللعب بنشاط.

– اثنان وثلاثون! يصيح جريشا وهو يُخرِج من قبعة الأب الإسطوانات الخشبية الصفراء ذات الأرقام: سبعة عشر! بشكور! ثمانية وعشرين، ماذا تفعلون؟

وترى آنيا أن أندريه قد فاته أن يسد خانة الرقم ثمانية وعشرين، ولو كان الوضع مختلفًا لنَبَّهَته حتمًا إلى ذلك. أما الآن، عندما وضعت كرامتها إلى جانب الكوبيك في الطبق، فقد تَهلَّلَت.

ويستطرد جريشا: ثلاثة وعشرون! سيميون سيميونيتش! تسعة!

– صرصار، صرصار! تصيح سونيا وهي تشير إلى صرصار يجري فوق المائدة: آي!

ويقول أليوشا بصوت غليظ: لا تقتليه، ربما عنده أولاد.

وتتابع سونيا الصرصار بعينيها وهي تفكر في أولاده: لا بد أنهم صراصير صغيرة جدًّا!

ويواصل جريشا وهو يَتعذَّب من فكرة أن آنيا قد بَقِيت لديها فقط خانتان شاغرتان: ثلاثة وأربعون! واحد! ستة!

وتصيح سونيا وهي تقلب عينيها بدلال وتقهقه: كسبت! أنا كسبت!

ويستطيل وجوه اللاعبين.

ويقول جريشا وهو ينظر إلى سونيا بحقد: فَلْنُراجعها!

أخذ جريشا لنفسه حق القرار بحكم أنه أكبر الجميع وأذكاهم. وكل ما يريده ينفذونه. وأخذوا يراجعون أرقام سونيا بدقة ولمدة طويلة. ولأسفهم الشديد اتضح أنها لم تغش. ويبدأ دور جديد.

وتقول آنيا وكأنما تخاطب نفسها: ماذا رأيتُ بالأمس! فيليب فيليبوفتش قلب جفنيه فأصبحت عيناه حمراوين، مرعبتين، مثل عيون العفاريت.

فيقول جريشا: أنا أيضًا رأيتُه ... ثمانية! وعندنا تلميذ يستطيع تحريك أذنيه. سبعة وعشرون!

ويرفع أندريه عينيه إلى جريشا متفكرًا ثم يقول: وأنا أيضًا أستطيع تحريك أذنيَّ.

– إذن هيَّا حَرِّكها!

ويحرك أندريه عينيه وشفتيه وأصابعه، ويخيل إليه أن أذنيه تتحركان. ويدوي ضحك جماعي.

وتقول سونيا مُتنهِّدة: رَجُل سيئ فيليب فيليبوفتش هذا؛ دخل بالأمس غُرفتنا، وكنت بقميص النوم فقط ... وأَحسستُ بعيب شديد!

وفجأة يصيح جريشا وهو يخطف النقود من الطبق: كسبت! أنا كسبت! راجعوا إذا أردتم!

ويرفع ابن الطاهية عينيه وقد علاه الشحوب، ثم يهمس: يعني أنا لن ألعب بَعد.

– لماذا؟

– لأنه ... لأنه لم يَعُد معي نقود.

فيقول جريشا: لا يمكن اللعب بدون نقود!

ولمزيد من التأكد يفتش أندريه في جيوبه مرة أخرى. وعندما لا يجد شيئًا سوى فتات الخبز وقطعة قلم رصاص معضوضة، تتقلص شفتاه وتطرف عيناه بعذاب. إنه يوشك على البكاء.

فتقول سونيا وهي لا تقوى على احتمال نظرته المعذبة: سأضع بَدَلك! لكن لا بد أن تَردَّها فيما بعد.

ويوضع الرهان ويستمر اللعب.

وتقول آنيا وهي تُحملِق بعينين واسعتين: يبدو أن أحدًا يقرع الجرس.

يتوقف الجميع عن اللعب ويُحدِّقون في النافذة المظلمة بأفواه مفتوحة. ومن خلف الظلام تتراقص انعكاسات المصباح.

– لقد خيِّل إليك.

ويقول أندريه: الأجراس لا تُدَق ليلًا إلَّا في المقابر.

– ولماذا يَدقُّون الأجراس هناك؟

– لكي لا يتسلل قطَّاع الطرق إلى الكنيسة. فهم يخافون الرنين.

فتسأل سونيا: ولماذا يتسلل قطَّاع الطرق إلى الكنيسة؟

– معروف لماذا ... لكي يقتلوا الحراس!

وتمر دقيقة صمت. ويتبادل الجميع النظرات، وينتفضون، ثم يواصلون اللعب. ويكسب أندريه في هذه المرة.

وفجأة يصيح أليوشا بصوت غليظ: لقد غش!

– كذَّاب، أنا لم أغش!

ويمتقع أندريه وتتقلص شفتاه ويخبط أليوشا على رأسه! فتجحظ عينا أليوشا بغلٍّ، ويقفز من مكانه ويرتكز على الطاولة بركبته، وبدوره يصفع أندريه على خده! ثم يوجه كل منهما إلى الآخر صفعة أخرى وينفجران بالبكاء. وسونيا، التي لا تطيق مثل هذه المشاهد الرهيبة، تنخرط أيضًا في البكاء، فتدوي غرفة الطعام بأصوات العويل المتعدِّدة. ولا تظنوا أن اللعب قد انتهى بسبب ذلك. لا تمر سوى خمس دقائق حتى يعودوا إلى الضحك والحديث المُسالِم. وعلى الوجوه آثار الدموع، ولكن ذلك لا يَعوقُهم عن الابتسام، بل إن أليوشا سعيد ... فها قد حدثت مُشاحَنة!

ويدلف فاسيا، تلميذ الصف الخامس، إلى غرفة الطعام. تبدو عليه آثار النعاس وخيبة الأمل. ويقول لنفسه وهو يرى جريشا يَتحسَّس جيبه الذي ترن فيه الكوبيكات: «يا للفظاعة! كيف يعطون نقودًا للأطفال؟ كيف يمكن السماح لهم بلعب القمار؟ يا لها من تربية عظيمة! يا للفظاعة!»

ولكن الأطفال يلعبون بتلذذ إلى درجة تثير فيه الرغبة في الالتحاق بهم لكي يجرب حظه. فيقول: انتظروا، سألعب معكم.

– ضع كوبيكًا!

– حالًا، يقول وهو يبحث في جيوبه: ليس معي كوبيك، ها هو روبل. أضع روبلًا.[1]

– لا، لا، لا ... ضع كوبيكا!

– أيها الحمقى ... الروبل على أي حال أغلى من الكوبيك — يقول التلميذ موضحًا — من يكسب منكم يعطني الباقي.

– لا، ابتعد لو سمحت!

يهز تلميذ الصف الخامس كتفيه، ويمضي إلى المطبخ ليأخذ من الخدم فكة. ويتضح أنه لا يوجد في المطبخ كوبيك واحد.

ويعود من المطبخ فيلحُّ على جريشا: في هذه الحالة، فك لي الروبل ... سأعطيك مقابل الفك، ألا تريد؟ إذن بع لي عشرة كوبيكات بروبل.

يتطلع جريشا بارتياب إلى فاسيا: أليس في طلبه هذا مؤامرة؟ أليس فيه احتيال؟

ويقول قابضًا على جيبه: لا أريد.

ويثور فاسيا ويغلي، ويسبهم بالأغبياء وأصحاب الرءوس الغليظة. فتقول سونيا: فاسيا، سأضع بَدلَك! اجلس.

فيجلس التلميذ ويضع أمامه بطاقتين. وتبدأ آنيا في إعلان الأعداد. وفجأة يعلن جريشا بصوت منفعل: سقط مني كوبيك! انتظِروا!

وينزعون المصباح المُعلَّق ويهبطون تحت الطاولة ليبحثوا عن الكوبيك. وتقع أيديهم على البصقات وقشر الجوز وتصطدم رءوسهم. ولكنهم لا يعثرون على الكوبيك. ويعاودون البحث من جديد، ويبحثون إلى أن ينتزع فاسيا المصباح من يدي جريشا ويضعه في مكانه. ويواصل جريشا البحث في الظلام.

---

[1] الروبل وحدة نقدية تساوي مائة كوبيك. (المُعَرِّب)

وأخيرًا يعثرون على الكوبيك، فيجلس اللاعبون إلى الطاولة لمواصلة اللعب.

ويعلن أليوشا: سونيا نامت!

وضعت سونيا رأسها المُجعَّد الخصلات على يديها وغابت في نوم عذب هادئ عميق، كأنما تنام منذ ساعة. نامت دون قصد، عندما كان الآخرون يبحثون عن الكوبيك.

فتقول آنيا وهي تسحبها من غرفة الطعام: هَيَّا نامِي على سرير ماما. هيَّا!

يقودونها جماعة. وبعد ما لا يزيد على خمس دقائق يتحول سرير ماما إلى منظر طريف. سونيا نائمة. وبجوارها يشخر أليوشا. وينام جريشا وآنيا متوسدين أرجل سونيا وأليوشا. وأندريه، ابن الطاهية، تمدد هنا أيضًا مع الآخرين. ومن حولهم تناثرت الكوبيكات التي فقدَت سلطانها عليهم حتى موعد اللعب القادم ... تُصبِحون على خير!

الهارب

كانت تلك عملية طويلة. ففي البداية سار باشكا مع أمه تحت المطر، تارة عبر حقل محصود، وتارة في الغابة، حيث كانت الأوراق الصفراء تلتصق بحذائه، سار حتى لاح الفجر. ثم وقف زهاء ساعتين في المدخل المظلم ينتظر فتح الباب. لم يكن المدخل رطبًا وباردًا كما في الخارج، بيد أن رذاذ المطر كان يتطاير إلى هنا عند هبوب الريح. وعندما اكتظ المدخل شيئًا فشيئًا بالبشر، دفن باشكا المحشور وجهه في معطف شخص ما كانت تنبعث منه بشدة رائحة سمك مملح، ونعس. وها هو ذا المزلاج يصرُّ، ويفتح الباب على مصراعيه، فيدخل باشكا مع أمه إلى غرفة الاستقبال. وهنا أيضًا اضطروا لأن ينتظروا طويلًا. كان المرضى جالسين على الأرائك بلا حراك وفي صمت. وتطلع باشكا ولزم هو الآخر الصمت، رغم أنه رأى الكثير من الأشياء الغريبة والمضحكة. لم يتمالك نفسه مرة واحدة، عندما دخل الغرفة فتى ما وهو يقفز على ساق واحدة، فقد شعر باشكا بالرغبة في أن يقفز هو أيضًا. لَكز أمه أسفل كوعها وقال وهو يكتم ضحكة في كمه: انظري يا ماما. عصفور!

فقالت أمه: اسكت يا بني، اسكت!

وظهر الحكيم النعسان في شباك صغير وقال بصوت أجش: تقدموا للتسجيل.

وأسرع الجميع إلى الشباك بمن فيهم الفتى النطَّاط المضحك. وكان الحكيم يسأل كلًّا منهم عن اسمه واسم أبيه، وعمره، ومحل إقامته، ومتى مرض وغير ذلك. وعرف باشكا من ردود أمه أن اسمه ليس باشكا، بل بافل جالاكتيونوف، وأن عمره سبع سنوات، وأنه أميٌّ، ومريض منذ عيد الفصح.

وبعد التسجيل بقليل كان عليهم أن ينهضوا؛ إذ مر الدكتور عبر غرفة الاستقبال مرتديًا مريلة بيضاء ومحزومًا بفوطة. وحين مر بجوار الفتى النطَّاط هز كتفيه، وقال

بنبرة «تينور» منغمة: يا لك من أحمق! حسنًا، ألست أحمق حقًّا؟ لقد قلت لك أن تأتي يوم الاثنين وها أنت ذا تأتي يوم الجمعة. بالنسبة إليَّ لا يهم حتى لو لم تأتِ، ولكن ساقك ستضيع أيها الأحمق!

رسم الفتى على وجهه المسكنة الشديدة، وكأنما كان ينوي أن يسأل حسنة، وطرف بعينيه وقال: اصنع معروفًا يا إيفان ميكولايفتش!

فقال الدكتور مقلدًا لهجته: دعك من إيفان ميكولايفتش! قلت لك يوم الاثنين وكان يجب أن تسمع الكلام. لست إلا أحمق.

وبدأ استقبال المرضى. كان الدكتور جالسًا في غرفته يستدعي المرضى بالدور. ومن وقت لآخر تتردد من هناك صرخات حادة، وبكاء أطفال أو هتاف الدكتور الغاضب:

– ما لك تصرخ؟ هل أنا أقطع لحمك؟ اجلس ساكنًا.

وجاء دور باشكا.

وصاح الدكتور: بافل جالاكتيونوف!

روعت الأم كأنما لم تكن تتوقع هذا الاستدعاء، ثم أمسكت باشكا من يده وسحبته إلى غرفة الدكتور. وكان الدكتور جالسًا إلى الطاولة وهو يدق بمطرقة صغيرة آليًّا على دفتر سميك.

وسأل دون أن ينظر إلى الداخِلِين: ممَّ يشكو؟

فأجابت الأم: الولد عنده دمل في كوعه يا سيدي … وارتسم على وجهها تعبير وكأنما كانت حقًّا في غاية الحزن بسبب دمل باشكا.

– قلَّعيه!

فك باشكا المنديل من حول عنقه وهو يزفر، ثم مسح أنفه بكمه وأخذ ينزع معطفه على مهل.

فقال الدكتور بغضب: لم تأتِ إلى هنا للضيافة يا ولية! ما لك تتلكئين؟ لست الوحيدة عندي.

فألقى باشكا المعطف على الأرض بعجل وخلع القميص بمساعدة أمه … وتطلع الدكتور بكسل وربَّت على بطنه العاري.

– يا لها من كرش كبيرة ربَّيْتَها يا أخي، قال الدكتور ثم تنهَّد: حسنًا أرني كوعك.

تطلع باشكا شزرًا إلى الطست المملوءة بمخلفات الأربطة الدموية، ثم إلى مريلة الدكتور وأجهش بالبكاء. فقال الدكتور ساخرًا: إي … ي … ي! آن الأوان أن تتزوج أيها المخادِع، بينما تبكي! إخص عليك!

نظر باشكا إلى أمه محاولًا ألا يبكي، وتجلى في نظرته هذه رجاء: «لا تخبري أحدًا في البيت بأنني بكيت في المستشفى!»

وفحص الدكتور كوعه، وضغط عليه ثم تَنهَّد، ومَصمَص شفتيه، ثم ضغط عليه مرة أخرى.

وقال: تستحقين الضرب يا ولية. لماذا لم تأتِ به من قبل؟ خلاص ضاعت ذراعه! انظري يا حمقاء ... مفصله مريض!

فَتنهَّدَت الولية: أنتم أدرى يا سيدي.

– يا سيدي ... تُهمِلين ذراعه حتى تتقيَّح ثم تقولين يا سيدي! أي كسِّيب هو بدون ذراع؟! سوف تَقضِين عمرك كله في العناية به، أظن لو ظهر في أنفك دمل لهرولتِ إلى المستشفى فورًا، بينما تتركين ذراع الولد تتقيح نصف سنة. كلكن هكذا.

أشعل الدكتور لُفافَة تبغ. ومع دخانها المتصاعد أخذ يوبخ الولية ويهز رأسه على إيقاع أغنية أخذ يدندن بها في سرِّه وهو يفكر في شيء طوال الوقت. وكان باشكا يقف أمامه عاريًا وهو يُصغي ويتطلع إلى الدخان. وعندما انطفأت اللفافة انتفض الدكتور، وقال بنبرة أَهدَأ: طيب، اسمعي يا ولية، المراهم والنقط لن تُجْدِي شيئًا. ينبغي إدخاله المستشفى.

– إذا كان ضروريًّا يا سيدي، فلماذا لا يدخل؟

– سنجري له عملية جراحية. ثم قال مخاطبًا باشكا وهو يربِّت على كتفه: ابقَ عندنا يا باشكا. دع أمك ترحل، أما أنا وأنت يا أخي فسنبقى هنا. الحياة هنا طيبة يا أخي، آخر حلاوة! وما إن نفرغ من العمل يا باشكا حتى نذهب لاصطياد الحسُّون، وسأريك الثعلب! وسنذهب معًا لزيارة الجيران! هه؟ هل تريد؟ وستأتي أمك غدًا إليك! هه؟

ونظر باشكا إلى أمه مستفهمًا، فقالت: ابقَ يا بني!

فصاح الدكتور بمرح: سيبقى، سيبقى! ولا حاجة للكلام! سأريه الثعلب حيًّا! وسنذهب معًا إلى السوق لنشتري الحلوى! خذيه يا ماريا دينيسوفنا إلى الطابق الثاني!

بدَا الطبيب الذي كان أغلب الظن فتًى مَرِحًا وطيبًا، مسرورًا بهذه الصحبة. وأراد باشكا أن يرضيه، خاصة أنه لم يذهب إلى السوق في حياته، ويود عن طيب خاطر أن يرى ثعلبًا حيًّا، ولكن كيف يبقى بلا أمه؟ وبعد أن فكر قليلًا قرر أن يرجو الطبيب أن يُبقي أمه أيضًا في المستشفى، ولكن قبل أن يتمكن من فتح فمه كانت الحكيمة تقوده على الدرج إلى الطابق العلوي. وسار يُحدِّق عن يمينه ويساره بفم مفغور. فالدرج والأرضية وعوارض الأبواب — وكلها ضخمة مستقيمة ساطعة — كانت مُطلِيَّة بطلاء أصفر رائع،

وتفوح منها رائحة الزيت النباتي اللذيذ. وفي كل مكان تدلَّت المصابيح وفُرِشَت مماسح الأقدام، وبرزت من الجدران الصنابير النحاسية. ولكن باشكا أعجب أكثر شيء بالسرير الذي أجلسوه عليه، وبالبطانية الرمادية الخشنة. وتحسس بيده الوسائد والبطانية، وطاف ببصره على العنبر وقرر أن الدكتور يحيا حياة لا بأس بها أبدًا.

كان العنبر صغيرًا لا يضم سوى ثلاثة أَسِرَّة؛ أحدها خاوٍ؛ والثاني شغَله باشكا؛ أما السرير الثالث فكان يجلس عليه عجوز ما، بعينين مكتئبتَين، وكان يسعل باستمرار ويبصق في كوز. ومن سرير باشكا كان يرى عبر الباب جزءًا من عنبر آخر بسريرين: على أحدهما ينام شخص شاحب جدًّا وهزيل، وعلى رأسه كيس من المطاط وعلى السرير الآخر جلس فلاح مباعدًا ذراعيه، معصوب الرأس، وكان يبدو قريب الشبه بامرأة.

وبعد أن أجلسَت الحكيمة باشكا انصرفَت، ثم عادَت بعد قليل حاملة كومًا من الملابس.

وقالت له: هذا لك. البس.

خلع باشكا ملابسه، وبإحساس لا يخلو من المتعة راح يرتدي الزي الجديد. وعندما ارتدى القميص والسروال والروب الرمادي تطلع إلى هيئته بخيلاء. وفكر في أنه لا بأس لو يخطر في القرية بهذا الزي. وتصور في خياله كيف ترسله أمه إلى مزرعة الخضراوات على الشاطئ ليجمع أوراق الكرنب للخنزير الصغير. ويسير بينما يحيط به الصبيان والفتيات وينظرون بحسد إلى روبه.

ودخلت العنبر ممرضة تحمل في يديها صحفتين معدنيتين وملعقتين وقطعتي خبز. وضعت إحدى الصحفتين أمام العجوز والأخرى أمام باشكا، وقالت: كُلْ!

نظر باشكا إلى الصحفة فرأى حساء كرنب دسمًا بقطعة لحم، ففكر ثانية أن الدكتور يحيا حياة لا بأس بها أبدًا، وأنه ليس عبوسًا أبدًا كما بدَا له أول الأمر. وظل باشكا طويلًا يتناول الحساء وهو يلعق الملعقة بعد كل غمسة، وعندما لم يتبقَّ في الصحفة سوى قطعة اللحم تطلع خلسة إلى العجوز وحسده على أنه ما زال يجرع الحساء. وشرع يأكل اللحم وهو يتنهد، ويحاول أن يطيل فترة تناوله إلى أقصى ما يمكن، لكن جهوده باءت بالفشل، فسرعان ما اختفى اللحم أيضًا. لم تبقَ سوى قطعة خبز. وليس لذيذًا أكل الخبز بدون غموس، ولكن ما باليد حيلة، ففكر باشكا قليلًا ثم أكل الخبز. وفي تلك اللحظة دخلت الممرضة بصحفتين أخريين. كان فيهما هذه المرة لحم مقلي مع البطاطس.

وسألته الممرضة: وأين خبزك؟

وبدلًا من الرد نفخ باشكا أوداجه ثم زفر.

فقالت له الممرضة مُؤنِّبة: لماذا أكلتَه؟ فبمَ ستأكل اللحم المقلي الآن؟ وخرجَت ثم عادت بقطعة خبز أخرى. ولم يكن باشكا قد ذاق اللحم المقلي في حياته، وعندما تذوقه الآن وجده لذيذًا جدًّا. واختفى اللحم بسرعة، وتبقت بعده قطعة خبز أكبر مما تبقى بعد الحساء. وعندما انتهى العجوز من غدائه وضع قطعة الخبز المتبقية في درج الطاولة. وأراد باشكا أن يفعل مثله، ولكنه فكر قليلًا ثم أكل قطعة خبزه.

وبعد أن شبع خرج ليتجول. كان في العنبر المجاور بالإضافة إلى الاثنين اللذين رآهما عبر الباب أربعة أشخاص آخرون. ولم يجذب انتباهه سوى واحد منهم. كان فلاحًا طويلًا، نحيفًا للغاية، بوجه مكفهر مشعر. كان جالسًا على السرير يومئ برأسه ويلوح بيده اليمنى طوال الوقت كالبندول. وظل باشكا لا يحوِّل عنه بصره طويلًا. وبدت له إيماءات الفلاح البندولية المنتظمة أول الأمر هزلية، الغرض منها إثارة الضحك، ولكنه عندما حدَّق مليًّا في وجهه أحس بالرعب، وأدرك أن هذا الفلاح مريض مرضًا خطيرًا. ودخل العنبر الثالث فرأى فلاحَيْن بوجهَيْن أحمرَيْن قاتمَيْن كأنما لُوِّثا بالطين. كانا جالسَين على سريرَيْهما دون حراك، ولاح بوجهَيْهما الغريبَين اللذيْن كان من الصعب أن تميز فيهما الملامح، أشبه بصنمين من آلهة الوثنيين.

وسأل باشكا الممرضة: لماذا هما هكذا يا عمتي؟

– عندهما جدري يا بنيَّ

وعاد باشكا إلى عنبره فجلس على السرير وأخذ ينتظر الدكتور ليذهب معه إلى صيد الحسُّون أو إلى السوق. ولكن الدكتور لم يأتِ. وظهر الحكيم للحظة في باب العنبر المجاور وانحنى فوق المريض الذي كان على رأسه كيس ثلج وصاح: يا ميخايلو!

ولم يتحرك ميخايلو النائم. فأشاح الحكيم بيده وانصرف. وأخذ باشكا، في انتظار الدكتور، يتأمل جاره العجوز. كان العجوز لا يكف عن السعال والبصق في الكوز. وكان سعاله طويلًا متحشرجًا. وأعجب باشكا بشيء مميز في العجوز: فعندما كان يسعل ويشهق، يصفر شيء ما في صدره ويصدح بشتى النغمات.

وسأله باشكا: ما هذا الذي يصفر عندك يا جدي؟

ولم يرد العجوز بشيء. وانتظر باشكا قليلًا ثم سأله: وأين الثعلب يا جدي؟

– أيُّ ثعلب؟

– الحي.

– وأين يمكن أن يكون؟ في الغابة!

مر زمن طويل ولم يأتِ الدكتور بعد. وحملت الممرضة الشاي ووبخت باشكا؛ لأنه لم يُبقِ على الخبز للشاي. وجاء الحكيم مرة أخرى وأخذ يوقظ ميخايلو. ومال الجو إلى الزرقة وراء النوافذ، وأُشعِلت مصابيح العنابر، ولم يظهر الدكتور. أصبح الوقت متأخرًا للذهاب إلى السوق أو صيد الحسُّون. فتمدد باشكا على السرير وأخذ يفكر. تذكر الحلوى التي وعده بها الدكتور، ووجه أمه وصوتها، والعتمة في بيتهم والفرن والجدة يجوروفنا التي لا تكف عن التذمر ... وفجأة شعر بالسأم والحزن. وتذكر أن أمه ستأتي غدًا إليه وتأخذه فابتسم وأغمض عينيه.

وأيقظه حفيف. كان هناك أحد يمشي في العنبر المجاور ويتحدث بصوت خافِت وفي ضوء اللمبات السهَّاري وقناديل الأيقونات كانت ثلاثة أشباح تتحرك بجوار سرير ميخايلو.

وقال أحدهم: هل نحمله بالسرير، أم بدونه؟

– بدونه، لن تمر بالسرير، إيه، مات في وقت غير مناسب، عليه الرحمة! أمسك أحدهم ميخايلو من كتفيه والآخر من قدميه ورفعاه: وتدلت ذراعا ميخايلو وأطراف روبه بتراخٍ. أما الشخص الثالث — وكان ذلك الفلاح الذي يشبه المرأة — فقد رسم علامة الصليب، ثم خرج ثلاثتهم بميخايلو من العنبر وهم يدقون بأقدامهم في اضطراب ويدوسون على أطراف روبه.

وتردد في صدر العجوز النائم صفير وصَدْح مُتعدِّد النغمات. وأصاخ باشكا السمع، وتطلع إلى النوافذ المظلمة، ثم قفز من السرير في ذعر. وتأوه بصوت غليظ: ما ... ا ... ما!

ودون أن ينتظر ردًّا انفلَت إلى العنبر المُجاوِر. وهناك كان ضوء القناديل واللمبة السهَّاري لا يكاد يشق الظلام. وجلس المرضى على أَسِرَّتهم مُضطربِين لموت ميخايلو. وظهروا بهيئاتهم المشعثة وفي اختلاطهم بالظلال أعرض وأطول، وبدَا كأنهم يَزدادون ضَخامة. وعلى آخِر سرير في الركن؛ حيث الظُّلمة أحلَك، جلس ذلك الفلاح يُومِئ برأسه ويهز يده.

انطلق باشكا على غير هدى فاقتحم عنبر المَجدُورين، ومن هناك إلى المَمر، ومن الممر اندفع إلى غرفة كبيرة؛ حيث كانت تَرقُد وتجلس في الأسرة مَخلوقات رهيبة بشعر طويل ووجوه عجائز. وبعد أن ركض باشكا عبر القسم النسائي وجد نفسه مرة أخرى في الممر، ورأى حاجز السلم المعروف فانحدر أسفل. وهنا عرف غرفة الاستقبال التي جلس فيها صباحًا، فأخذ يبحث عن باب الخروج.

صرَّ المزلاج، وهَبَّت دفقة هواء بارد، فانطلق باشكا إلى الفناء وهو يتعثر. لم يكن في ذهنه سوى فكرة واحدة: أن يهرب! ولم يكن يعرف الطريق، ولكنه كان واثقًا من أنه لو

جرى فسيصل حتمًا إلى دارهم، إلى أمه. وكان الليل غائمًا، ولكن ضوء القمر لاح خلف السحب. وركض باشكا من المدخل إلى الأمام مباشرة، ودار حول الحظيرة فاصطدم بحرش خاوٍ. وقف قليلًا وفكر، ثم اندفع عائدًا إلى المستشفى، ودار حوله، وتوقف ثانية مترددًا؛ فمن خلف مبنى المستشفى لاحت صلبان المقابر البيضاء. وصاح: ما ... ا ... ما!

وركض عائدًا.

وبينما كان يجري مارًّا بمبانٍ مظلمة جهمة، رأى نافذة مضيئة.

بدت هذه البقعة الحمراء الساطعة في الظلام مخيفة، ولكن باشكا الذي جن رعبًا ولم يَعُد يدري إلى أين يجري، اتَّجَه نحوها. وكان بجوار النافذة مدخل ودرج وباب رئيسي بلوحة بيضاء. ارتقى باشكا الدرج ركضًا ونظر في النافذة فَتولَّته فجأة فرحة واخزة غامرة. لقد رأى في النافذة الدكتور المَرِح الطيب جالسًا إلى المكتب يقرأ كتابًا. ومدَّ باشكا يديه نحو الوجه الأليف وهو يضحك من السعادة، وأراد أن يصرخ، إلا أن قوة مجهولة كتمت أنفاسه وأهوت على ساقيه، فترنح وسقط على الدرج مغشيًّا عليه.

عندما أفاق كان الضوء منتشرًا، وبجواره سمع الصوت المعروف جدًّا؛ الصوت الذي وعده أمس بالسوق والحسُّون والثعلب، يقول: يا لك من أحمق يا باشكا! ألستَ أحمق حقًّا؟ تستحق الضرب ... فعلًا تستحق الضرب.

بعد المسرح

ما إن عادت نادية زيلينينا مع والدتها من المسرح؛ حيث شاهدتا «يفجيني أنيجين»[١] ودخلت غرفتها، حتى نزعت فستانها بسرعة وحلَّت ضفيرتها، وأسرعت بالجونلة والبلوزة البيضاء فقط فجلست إلى الطاولة لتكتب خطابًا كالذي كتبته تاتيانا.

وخَطَّت: «إنني أحبك، ولكنك لا تحبني، لا تحبني!»

كتبَت هذا وضحِكَت.

كان عُمرها ستة عشر عامًا فقط، ولم تحب أحدًا بعد. وكانت تعلم أن الضابط جورني، والطالب جروزديف يحبانها، ولكنها شعرت الآن، بعد الأوبرا، برغبة في التشكيك في ذلك الحب. أن تكون محبوبة وتعيسة … ما أروع ذلك! ثمة شيء ما، حين يحب الشخص بقوة ولا يكترث به الآخر، شيء جميل، ومؤثر، وشاعري. أنيجين ممتع لأنه لا يحب مطلقًا، أما تاتيانا فهي خلابة؛ لأنها تحب بقوة، ولو أنهما أحبَّا بعضهما البعض بنفس الدرجة وكانا سعيدين لأصبحا على الأرجح مملين.

«كُف عن التأكيد بأنك تحبني — واصلت نادية الكتابة وهي تفكر في الضابط جورني — فأنا لا أستطيع أن أصدقك. أنت ذكي جدًّا، مُثقَّف جادٌّ، ولديك موهبة كبيرة، وربما كان في انتظارك مُستقبَل باهر، أما أنا فلا شيء يميزني، فتاة لا وزن لها، وأنتَ نفسك تعرف جيدًا أنني لن أكون سوى عقبة في حياتك. حقًّا أنت هِمتَ بي، وظننتَ أنك في شخصي عَثرتَ على المثال الذي يبحث عنه، لكنها كانت غلطة، والآن تسأل نفسك بيأس: ما الذي جعلني ألتقي بهذه الفتاة؟ وطيبة قلبك فقط هي التي تمنعك من الاعتراف بذلك!»

---

[١] أوبرا للموسيقار تشايكوفسكي مأخوذة عن رواية بوشكين الشعرية التي تحمل نفس الاسم. (المُعَرِّب)

أحست نادية بالإشفاق على نفسها، فَبكت ومَضت تكتب:

«صعب عليَّ فراق ماما وأخي، وإلا كنت قد ارتديتُ مسوح الراهبات ومضيتُ أينما يمتد بي البصر. ولأصبحتَ أنتَ حرًّا وأحببتَ فتاة غيري، آه لو كنت أموت!»

من خلال الدموع استحال تبيُّن الكلمات المكتوبة، وتراقصت ألوان طيف قصيرة فوق الطاولة، وعلى أرضية الغرفة وعلى السقف كما لو أن نادية كانت تنظر عبر منشور. وتعذرت الكتابة فتراجعت إلى ظهر المقعد وأخذت تفكر في جورني.

«يا إلهي، أي سحر في الرجال، وأي جاذبية!» ... تذكرت نادية ذلك التعبير، المتزلف والمذنب والناعم الذي يرتسم على وجه الضابط عندما يجادلونه في الموسيقى، وأي جهود يبذلها في أثناء ذلك لكيلا يرن صوته بحماسة. ففي المجتمع الذي يعتبر فيه الترفع البارد واللامبالاة دلالة على حسن التربية والأخلاق الفاضلة لا بد أن تداري حماستك. وهو يداريها، لكنه لا يُوفَّق في ذلك، فالجميع يعرفون أنه يهوى الموسيقى بشغف. إن المناقشات التي لا تنتهي عن الموسيقى والأحكام الجريئة لغير الفاهمين من الناس تجعلانه في تَوتُّر دائم فهو مفزع، خجول، وصموت. وهو يعزف على البيانو بصورة رائعة، مثل أي عازف أصيل، ولو لم يكن ضابطًا لكان في الغالب موسيقيًّا مشهورًا.

وجفت دموعها. وتذكرت نادية أن جورني قد صارحها بحبه في حفل سيمفوني، ثم بعد ذلك، في الطابق الأرضي، بجوار المشاجب؛ حيث هبت تيارات الهواء من جميع النواحي.

«أنا سعيدة جدًّا؛ لأنك أخيرًا تعرفتَ على الطالب جروزديف، مضَت تكتب ... إنه إنسان ذكي جدًّا، ولعلك ستعجب به. كان عندنا بالأمس ومكث حتى الساعة الثانية. وقد انبهرنا به جميعًا، وتأسَّفتُ أنك لم تأتِ؛ لقد حدَّثَنا بالكثير من الأشياء الرائعة.»

عقدت نادية يديها فوق الطاولة وأسندَت إليهما رأسها فسقط شعرها وغطَّى الخطاب. وتذكَّرَت أن الطالب جروزديف أيضًا يحبها، وأن له من الحق في رسالة منها مثلما لجورني تمامًا. وبالفعل، أليس من الأفضل أن تكتُب إلى جروزديف؟ وبلا أي أسباب دَبَّت البهجة في صدرها ... بدأت بهجة صغيرة تَواثَبت في صدرها مثل كرة المطاط، ثم صارت أعرض وأكبر وتدفقت كالموجة. ونسيت نادية جورني، وجروزديف، واختلطت أفكارها، بينما أخذت البهجة تكبر وتكبر وتنساب من صدرها إلى ذراعيها وساقيها، وخيِّل إليها كأن نسمة رقيقة باردة هفت على رأسها فحركت شعرها. واهتزت كتفاها من الضحك الخافت، واهتزت الطاولة وزجاجة المصباح، وطفر الدمع من عينيها إلى الخطاب. لم يكن بوسعها أن توقف ذلك الضحك، ولكن تظهر لنفسها أنها لا تضحك بدون سبب، أسرعت تتذكر شيئًا ما مضحكًا.

– يا له من مضحك ذلك الكلب البودل! تَمتمَت وقد شعرَت بأنها ستختنق من الضحك: يا له من مضحك ذلك البودل!

تذكَّرَت كيف لاعب جروزديف، بعد شرب الشاي بالأمس، الكلب البودل مكسيم، ثم حكى لها عن بودل: ذكي جدًّا لاحَق في الفناء غرابًا، فالتفَتَ الغراب نحوه وقال: أنتَ يا أَفَّاك!

ولم يكن الكلب يدري أن أمامه غرابًا مدربًا، فارتبك بشدة، وتراجع في حيرة، ثم عاد ينبح.

– كلا، الأفضل أن أحب جروزديف. قرَّرَت نادية ومزَّقَت الرسالة.

وأخذت تفكر في الطالب؛ في حبه، وفي حبها، لكن الذي حدث أن الأفكار ساحت في رأسها فأصبحَت تُفكِّر في كل شيء: في أمها، في الشارع، في القلم، في البيانو ... فكَّرَت ببهجة فوجدت أن كل شيء حسن، رائع. وأوحَت إليها البهجة بأن هذا ليس كل شيء بعد، وأنه عَمَّا قريب ستكون الأمور أروع. قريبًا يحل الربيع، الصيف، السفر مع والدتها إلى «جوربيكي»، وسيأتي جورني في فترة إجازته وسيتجول معها في الحديقة ويحيطها باهتمامه. وسيجيء جروزديف أيضًا ويلعب معها الكروكيت والكجل، ويقص عليها أشياء مُضحِكة أو مُدهِشة. وانتابتها رغبة جارفة في أن تجد نفسها في الحديقة، في العتمة، تحت السماء الصافية، والنجوم. واهتزت كتفاها ثانية من الضحك، وخيِّل إليها أن الغرفة تعبق برائحة الشيح، وأن غصنًا قد احتك بالنافذة.

مشت نحو فِراشها، وجلست، ودون أن تدري ماذا تفعل ببهجتها التي أضنتها، نظرت إلى الأيقونة المعلقة فوق ظهر سريرها وتمتمت: يا إلهي! إلهي! يا إلهي!

الملاحق

ملحوظة عن الأسماء المنسوبة إلى الأب في اللغة الروسية

تتكون الأسماء الروسية من الاسم الأول، والاسم الأبوي، واسم العائلة أو اللقب، والاسم الأبوي أو الاسم الأوسط مُستمَد من اسم الأب الأول. وعلى سبيل المثال، اسم تشيخوف الأوسط، بافلوفيتش، مستمد من اسم والده الأول، بافل. وفي المخاطبة الرسمية، يستخدم عادة الاسم الأول والاسم الأبوي: فالخادم حين يخاطب سيده يستخدم كلًّا من الاسم الأول والاسم الأبوي. لكن السيد يمكنه استخدام الاسم الأول فقط حين يوجه الحديث إلى الخادم.

لمحات من حياة تشيخوف

١٨٣٦م: جوجول، مفتش الحكومة.

١٨٥٢م: تورجنيف، صفحات من ألبوم صياد.

١٨٦٠م: دستويفسكي، مذكرات من بيت الموتى «١٨٦٠–١٨٦١م». ميلاد أنطون بافلوفيتش تشيخوف يوم ١٧ يناير في بلده تاجانروج، وهي ميناء على بحر آزوف، الابن الثالث لبافل يجوروفيتش تشيخوف، بقال، ويفجينيا ياكوفليفنا، ولقبها قبل الزواج موروزوفا.

١٨٦١م: تحرير عبيد الإقطاع على يد ألكسندر الثاني. تشكيل حركة الأرض والحرية الثورية.

١٨٦٢م: تروجنيف، آباء وأبناء.

١٨٦٣–١٨٦٤م: الثورة البولندية. بداية التصنيع المُكثَّف؛ انتشار السكك الحديدية؛ إنشاء البنوك؛ بناء المصانع. إقامة مجالس محلية مُنتخَبَة، إصلاح القضاء. تولستوي، القوزاق (١٨٦٣).

١٨٦٥م: ليدي ماكبث من متسنسك (١٨٦٤م)، من تأليف ليسكوف، وهو كاتِب كان تشيخوف مُعجَبًا به كثيرًا.

١٨٦٦م: مُحاولة اغتيال ألكسندر الثاني على يد كراكوزوف. دستويفسكي، الجريمة والعقاب.

١٨٦٧م: إميل زولا، تيريز راكان.

١٨٦٨: دستويفسكي، الأبله.

١٨٦٨م: يبدأ تشيخوف في حضور تاجانروج جيمنازيوم (مدرسة ثانوية تهتم بالرياضة إلى جانب التعليم المعتاد)، بعد ضياع سنة في مدرسة يونانية.

١٨٦٩م: تولستوي، الحرب والسلام.

١٨٧٠م: إصلاح الحكومة المحلية.

١٨٧٠–١٨٧١م: الحرب البروسية الفرنسية.

١٨٧٣م: تولستوي، آنا كارنينا (١٨٧٣–١٨٧٧م). تشيخوف يساهد عروضًا محلية لهاملت، ولمسرحية جوجول مفتش الحكومة.

١٨٧٥م: تشيخوف يكتب وينتج مجلة فكاهية لإخوته في موسكو، The Stammerer، تحتوي على قطع نثرية قصيرة عن الحياة في تاجانروج.

١٨٧٦م: إعلان إفلاس والد تشيخوف، وهربه إلى موسكو، متبوعًا بعائلته ما عدَا تشيخوف، الذي بقي في تاجانروج لإكمال مدرسته. يقرأ باكل، وهوجو، وشوبنهاور.

١٨٧٧–١٨٧٨م: حرب مع تركيا.

١٨٧٧م: تشيخوف يزور موسكو لأول مرة، عائلته تعاني شظف العيش.

١٨٧٨م: تشيخوف يَكتُب مؤلَّفات الصبا الدرامية: دراما كاملة بعنوان اللاأبوة، وكوميديا بعنوان «الماس يقطع الماس»، وملهاة هزلية بعنوان «لماذا يقاقئ الدجاج» (لم تُنْشَر أي منها).

١٨٧٩م: دستويفسكي، الإخوة كارامازوف (١٨٧٩-١٨٨٠م) تولستوي، الاعتراف (١٨٧٩–١٨٨٢) تشيخوف يتخرج في المدرسة بدرجات جيدة. يفوز بمنحة تعليمية لجامعة موسكو لدراسة الطب، ويقول بمساهمات مُنتَظِمة للمجلة الفكاهية Alarm Clock.

١٨٨٠م: الجنرال لوريس ميليكوف ينظم نضالًا ضد الإرهاب. جي دي موباسان، بول دي ساف أخو الفنان الطبيعي ليفاتان، نيكولاي يقدم تشيخوف لأخيه وتنعقد بينهما صداقة طول العمر. أول قصة قصيرة «رسالة من دون فلاديميروفيتش، من صاحب البيت إلى جاره المتعلم»، ونشرت في المجلة الفكاهية Dragonfly. نُشِرَت له في المجلة نفسها قصص أخرى تحت أسماء مُستعارَة، أهمها أنتوشا تشيكونتي.

١٨٨١م: اغتيال ألكسندر الثاني؛ بداية نظام ألكسندر الثالث الرجعي الخانق، سارة برنار تزور موسكو (وتشيخوف يقول عن تمثيلها إنه «مفتعل») يستمر تشيخوف في كتابة أعداد كبيرة من الاسكتشات الفكاهية للمجلات الأسبوعية (حتى ١٨٨٣م). ويصبح مساهمًا دائمًا في مجلة نيكولاي ليكين Fragments، وهي مجلة فكاهية أسبوعية تصدر في سان بطرسبرج. يكتب (١٨٨١-١٨٨٢م) مسرحية معروفة حاليًا عادة بعنوان بلاتونوف (اكتشفت في ١٩٢٣م)، رفضت من مسرح مالي؛ يحاول تدمير المخطوطة.

١٨٨٢م: شغب من الطلبة في جامعتي سان بطرسبرج وكازان. مزيد من التمييز العنصري ضد اليهود. يتمكن تشيخوف من إعالة عائلته بنقود المنحة الدراسية، ومكاسبه من مساهماته في الأسبوعيات الفكاهية.

١٨٨٣م: تولستوي، بماذا أعتقد؟ يحصل تشيخوف على خبرة عملية في مستشفى تشيكينو الريفي.

١٨٨٤م: هنريك إبسن، البطة البرية؛ هويسمان، ضد الطبيعة؛ تشيخوف يتخرج ويصبح طبيبًا ممارسًا في تشيكينو. أولى علامات الإصابة بالسل في ديسمبر، ست قصص عن المسرح، تنشر في كتاب بعنوان «قصص خيالية من ميلبومين». روايته عن الجريمة، رحلة الرماية، تنشر مسلسلة في Daily News.

١٨٨٥–١٨٨٦م: تولستوي، موت إيفان إيليتش (١٨٨٦م) في أول زيارة لسان بطرسبرج، يبدأ تشيخوف صداقته مع إليكسي سوفورين (١٨٣٤–١٩١٢م)، المحرر المتنفذ للجريدة اليومية الشهيرة New Times. يعيش تشيخوف علاقتي حب مع دنيا إفروس

وناتاليا جولدن (التي أصبحَت فيما بعد زوجة أخيه). مرض السل الآن أصبح واضحًا. ينشر أكثر من مائة قصة قصيرة. وأول قصة تظهر تحت اسمه هي «القداس الجنائزي»، وأولى قصصه في جريدة نيو تايمز (فبراير ١٨٨٦م). أول مجموعة قصصية قصص منوعة Motley Tales.

١٨٨٧م: شنق خمسة من الطلبة لمحاولة اغتيال القيصر؛ أحدهما أخو ليو تولستوي، مسرحية قوة الظلام (عرضت لأول مرة في باريس)، والتي بسببها قال ألكسندر الثالث إنه عدمي وتجديفي. تشيخوف يُنتخَب عضوًا في صندوق أدبي. ويقوم برحلة إلى تاجانروج وسهل دون الكتاب الثاني من القصص القصيرة بعنوان في ضوء الشفق. عرض مسرحية إيفانوف-كارثة.

١٨٨٨م: تشيخوف يلتقي بستانسلافسكي. يحضر العديد من العروض المسرحية في مسرح مالي ومسرح كورش ويصبح على معرفة واسعة بالممثلين، ومديري المسرح، إلخ. يلتقي بتشايكوفسكي. يكمل «السهل» التي تصبح علامة على «دخوله» إلى الأدب الجاد. يكسب جائزة بوشكين لـ«أفضل إنتاج أدبي مميز، وذي قيمة فنية مرتفعة» عن مجموعته القصصية في ضوء الشفق، والتي قدَّمها القسم الأدبي لأكاديمية العلوم يعرض مسرحيتين من نوع الكوميديا الهزلية ذات الفصل الواحد، الدب (والتي أثنى عليها تولستوي كثيرًا)، و... العرض، بنجاح كبير. يبدأ العمل في شيطان الغابة (والتي عنونت فيما بعد بالعم فانيا). ويراجع إيفانوف، مراجعة جذرية للعرض في سان بطرسبرج.

١٨٨٩م: تولستوي، سوناتا كروتزر (والتي أثنى عليها تشيخوف كثيرًا في البداية). يلتقي تشيخوف بليديا أفيولوفا التي تَدَّعي فيما بَعدُ علاقة حب معه. يبدأ تولستوي في الاهتمام بتشيخوف، الذي ينتخب لجمعية محبي الأدب الروسي «قصة مريعة». شيطان الغابة، فشل ذريع.

١٨٩٠م: يشعر تشيخوف بالتعب من الحياة، فيسافر في رحلة عبر سيبريا بالعربة وقارب نهري إلى ساخالين لتحري الأحوال في مُستعمَرة بينال (سجلت في: جزيرة ساخالين). بعد سبعة أشهر يعود إلى موسكو (عبر هونج كونج، وسنغافورة، وسيلان «سري لانكا») مجموعة «أناس مكتئبون» (مهداة إلى تشايكوفسكي). نُشِرت له قصتان فقط: «جوسيف» و«اللصوص». كمية هائلة من القراءات التمهيدية لكتابة جزيرة ساخالين.

١٨٩١م: مجاعة عسيرة في حوض نهر الفولجا (وينظم تشيخوف مساعدات). يقوم تشيخوف برحلة لستة أسابيع إلى أوروبا الغربية مع سوفورين. قصة حب عميقة مع ليكا ميزينوفا. يعمل في جزيرة سخالين. وينشر «المبارزة» مسلسلة. يعمل في «الجراد».

١٨٩٢م: يشتري تشيخوف مزرعة صغيرة في ميلخوفو، بالقرب من موسكو، ويعيش فيها معه والداه وأخته؛ يقدم مساعدات طبية مجانية للفلاحين. يعيد قراءة تورجنيف؛ ينظر إليه على أنه أقل من تولستوي وشديد الانتقاد لأبطاله «الجناح رقم ٦»، و«قصة بلا اسم».

١٨٩٣م: جزيرة ساخالين، اكتملت ونشرت مسلسلة.

١٨٩٤م: وفاة ألكسندر الثالث؛ وصعود نيكولاي الثاني إلى العرش؛ سَحْقُ ألفٍ حتى الموت في حقل خودينكا في أثناء احتفالات التتويج. إضرابات في سان بطرسبرج. تشيخوف يقوم برحلة أخرى إلى أوروبا الغربية «التلميذ»، «مدرس الأدب»، «في بيت ريفي»، و«الراهب الأسود».

١٨٩٥م: «ثلاث سنوات» يكتب «آريادنا» و«القتل» و«آنا حول الرقبة». أول مسودة من النورس.

١٨٩٦م: يحرك تشيخوف بنفسه الدعوة لمشروعات في التعليم الريفي والنقل؛ ويساعد على بناء مدرسة القرية في تاليز؛ ويقدم منحة كبيرة من الكتب لمكتبة تاجانروج العامة. «البيت ذو الطابق المسروق»، «حياتي»، نشرت في حلقات. النورس استقبال عدائي في مسرح ألكسندرين سكاي.

١٨٩٧م: يقوم تشيخوف بالمساعدة على إجراء الإحصاء الرسمي القومي؛ ويبني ثاني مدرسة ريفية. أزمة صحية مصحوبة بنزيف الرئة؛ يقضي فترة نقاهة في نيس، قصة «الفلاحون» تلقى هجومًا شديدًا من النقاد الرجعيين ويمنعها الرقباء. ينشر العم فانيا، لكنه يرفض السماح بعرضها (حتى ١٨٩٩م).

١٨٩٨م: تشكيل الحزب الشيوعي الديموقراطي. فضيحة ديفوس. ستانسلافسكي يؤسس مسرح الفن بموسكو مع نميروفيتش دانتشنكو. تشيخوف ناقم بشدة على فضيحة دريفوس ويؤيد زولا؛ خلاف حادٌّ مع سوفورين المُعادي للسامية على هذا. وفاة والده. يسافر إلى يالتا، ويشتري أرضًا هناك. مودة مع جوركي وبونين (وقد ترك كل منهما

مذكرات مهمة عن تشيخوف). ينجذب إلى أولجا كنيبر في بروفة بمسرح الفن بموسكو لمسرحية النورس، لكنه يغادر مباشرة تقريبًا إلى يالتا. يتراسل مع جوركي «زيارة لأصدقاء»، ثلاثية: «رجل في صندوق»، «عنب الثعلب»، «عن الحب». «أيونيتش». أول عرض لمسرحية النورس على مسرح الفن بموسكو، أكد تشيخوف وجوده كاتبًا مسرحيًّا.

١٨٩٩م: اضطرابات طلابية واسعة الانتشار. تولستوي ينشر البعث مسلسلة. تشيخوف ينشق مع سوفورين بسبب اضطرابات الطلبة. أولجا كنيبر تزور مليخوفو. يبيع مليخوفو في يونية وينتقل مع أمه وأخته إلى يالتا. يُمنَح عضوية جماعة سان ستانيسلاف مكافأة على عمله التعليمي «حبيبتي»، «فيلا ريفية جديدة»، و«في مهمة رسمية». يُوقِّع عقدًا غير مواتٍ له على الإطلاق مع أ. ف. ماركس لإصدار طبعة من أعماله الكاملة. عمل مُجهِد ومستغرق للوقت لجمع أول مجلدين. نجاح محدود لـ«العم فانيا» على مسرح الفن بموسكو. ينشر اثنتين من أفضل قصصه، «السيدة صاحبة الكلب». ويكمل «في الوادي الضيق». ويبدأ عملًا جادًّا في ثلاث أخوات؛ يذهب إلى نيس لمراجعة الفصلين الأخيرين.

١٩٠٠م: يستقر تشيخيوف في بيت بناه في يالتا. ممثلون من مسرح الفن بموسكو يزورون سيفاستوبول ويالتا نزولًا على طلبه. رأي متدنٍّ في إبسن. يشاهد العم فانيا لأول مرة.

١٩٠١م: تشكيل الحزب الشيوعي الثوري. إعلان حرمان تولستوي من الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية. تشيخوف يتزوج أولجا كنيبر. العرض الأول لـ «ثلاث أخوات» على مسرح الفن بموسكو، وتقوم أولجا كنيبر بدور ماشا. يعمل على «الأسقف».

١٩٠٢م: اغتيال سيبياجين وزير الداخلية. نيكولاس الثاني يقصي جوركي عن أكاديمية العلوم. جوركي الأعمال السفلى، قدمت على مسرح الفن بموسكو. تشيخوف يستقيل من أكاديمية العلوم مع كورولينكو احتجاجًا على إقصاء جوركي. جائزة جريبويدوف التي تمنحها جمعية كُتَّاب الدراما والموسيقى للأوبرا عن ثلاث أخوات. يكمل «الأسقف» ويبدأ «العروس» آخر قصة له. يبدأ بستان الكرز.

١٩٠٣م: اكتمال سكك حديد عبر سيبريا. مذبحة اليهود في كيشينف بوجروم. تشيخوف يُنتَخب رئيسًا إقليميًّا لجمعية محبي الأدب الروسي. يكمل «العروس»، وأول مسودة من «بستان الكرز». يصل إلى موسكو لحضور بروفة على مسرح الفن لـ «بستان الكرز»؛ خلاف قوي مع متانيسلافسكي على تأويلها.

١٩٠٤م: اغتيال بليف، وزير الداخلية على يد الثوريين الشيوعيين. حرب مع اليابان. يموت تشيخوف بالسل يوم ١٥ من يولية في الغابة السوداء «ألمانيا». العرض الأول لمسرحية «بستان الكرز» على مسرح الفن بموسكو.


هنداوي